العمل لمصر

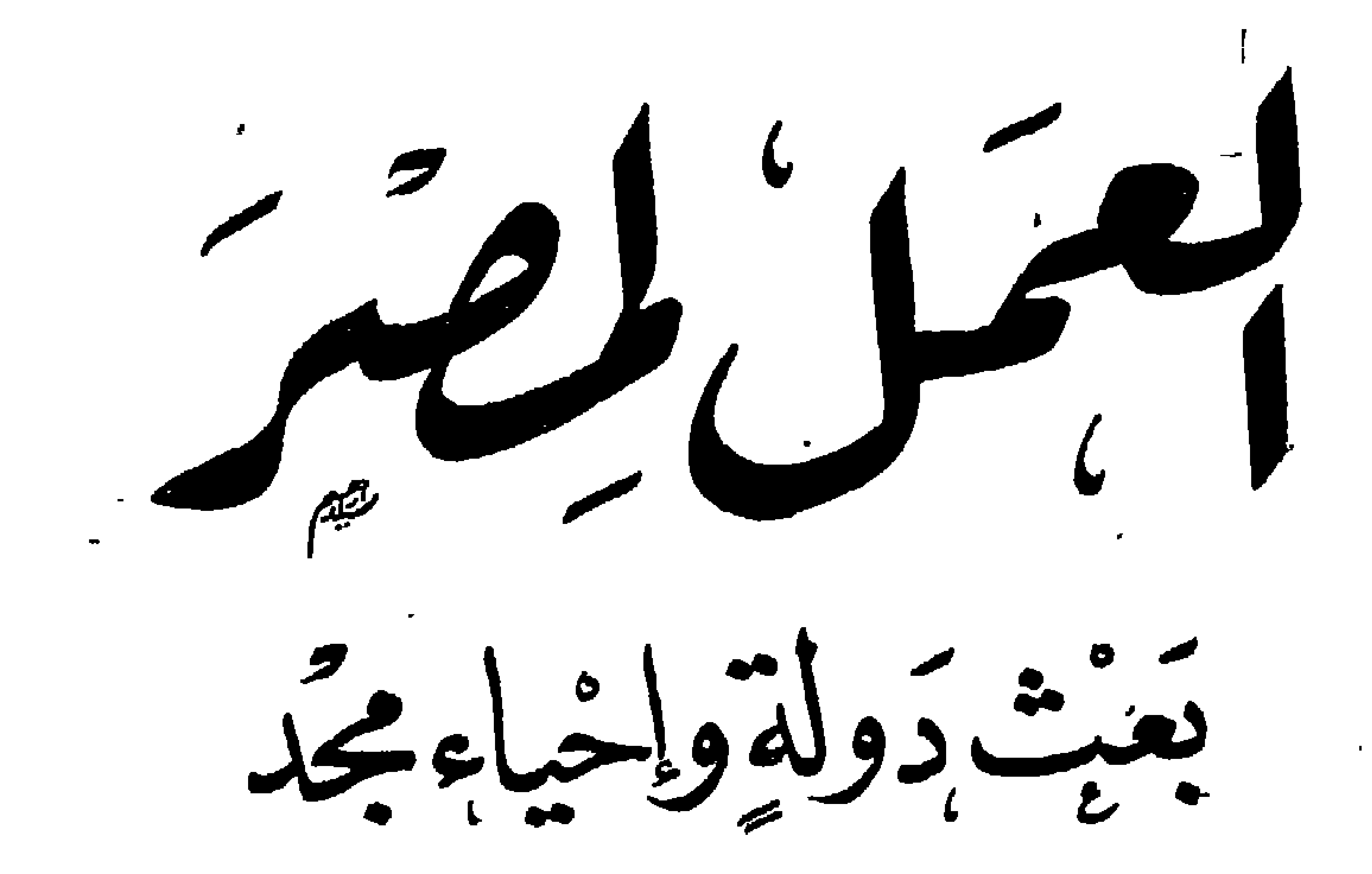
بعث دولة وإحياء مجد

[إن الأسماء العظيمة
لاتكون إلا فى الشرق].
نابوليون

محمود كامل
المحامى
بالنقض والابرام

٣٠ م

مطبعة الاعتماد بمصر



محمود كامل
المحامي

مطبعة الاعتماد بمصر

للمؤلف

كتب ودراسات قانونية واقتصادية

«مصر الغد تحت حكم الشباب» برنامج للاصلاح السياسي والاقتصادي

« السيادة المصرية وموقف مصر كعضو فى أسرة الدول » بحث فى معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وانجلترا

« لائحة بيوت العاهرات والأوامر العسكرية المكملة لها » بحث قانونى مقارن فى التشريعات الخاصة بالرقيق الأبيض

« الدين وأثره فى تحديد اختصاص جهات الأحوال الشخصية فى مصر » بحث فى القانون الدولى الخاص المصرى

« أسماء بارزة فى تاريخ المحاماة بفرنسا » دراسة « بيوجرافية »لطائفة من أشهر المحامين الفرنسيين

« يوميات محام مصرى» الجانب الانسانى من حياة المحاكم

مسرحيات

«حسن» ترجمة عن : Elroy James Flecker شركة ترقية التمثيل العربى

« الوحوش » مثلت على مسرح رمسيس سنة ١٩٢٦: درامة مصرية

«فاطمة»مثلت على مسرح حديقة الأزبكية سنة ١٩٣٠:درامة مصرية

« سافو » مثلت على مسرح الأوبرا الملكية سنة ١٩٣٥ : ترجمة عن Alphonse Daudet

« المنتقم » مثلت على مسرح برنتانيا سنة ١٩٣٦ : مقتبسة عن مسرحية Un Grand Bourgois لـ Emile Fabre

«الأقاعى»مقتبسة عن مسرحية - La Maison d'Argile لـ Emile Fabre

«حياة الظلام»قصة سينمية أخرجتها شركة مصر للتمثيل والسينما سنة ١٩٤٠

قصص

« روبين هود» مكتبة حسين حسنين : ترجمة عن الانجليزية

« صيحات جديدة فى النقد والفن والأدب » مكتبة صبيح دراسات أدبية وملخصات مسرحية

« المتمردون » دار الترقى للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« المسرح الجديد » دار الهلال : مجموعة ملخصات مسرحية

« ٨ يوليو » دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« بائع الأحلام » دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« أول يناير » دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« ٣٠ » دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« أنت وأنا» دار الجامعة للطبع والنشر : ترجمة عن كتاب Toi et moi لـ Paul Geraldy ومجموعة قصص مصرية

« المجنونة » دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« الربيع الآثم » دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية

« حياة الظلام » مطبعة المعارف ومكتبتها : قصة مصرية طويلة

« زوبعة تحت جمجمة» دار الجامعة للطبع والنشر مجموعة قصص مصرية

« عيون معصوبة » دار الجامعة للطبع والنشر : شعر منثور ومجموعة قصص مصرية

« الرجال منافقون » مطبعة المعارف ومكتبتها : مجموعة قصص مصرية

« حطام امرأة » مطبعة المعارف ومكتبتها مجموعة قصص مصرية

« لاعبات بالنار » دار الجامعة للطبع والنشر مجموعة قصص مصرية

بالانجليزية

Blue Wings دار الجامعة للطبع والنشر : مجموعة قصص مصرية : تولى ترجمتها إلى الانجليزية الأستاذ جيرالد براكنبرى

بالفرنسية

Zahira مجموعة قصص مصرية تولت نشرها مجلة La Semaine Egyptienne

أهداف العمل المصري

المراجع الأجنبية

Saintine, Marcel, Reybaud : Histoire scientifique et militaire de L'Epedition Française en Egypte

Blunt : Secret History of The English Occupation

Morgan Shuster : The Strangling of Persia

Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East

Eliot Grinnell Mears : Modern Turkey

Henri Massis : Chefs

Emile Ludwig : Genius and Character

Adolf Hitler : Mein Kampf

المراجع العربية

عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر

أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية

جوليت آدام : انجلترا في مصر — ترجمة على فهمى كامل

من الاسراف فى المغالطة أن يدعى حزب من الأحزاب السياسية المصرية التى تتناوب الحكم فى مصر منذ عام ١٩٢٠ أنه أيقظ الشعور الوطنى وحدد للمصريين أهدافا معينة دعاهم إلى الوصول اليها . فإحساس المصريين بحقوقهم . وتمردهم على كل من يعتدى على هذه الحقوق قديم . أقدم من أى حزب سياسى قائم فى مصر الآن . بل أن تاريخ مصر الحديث ناطق بأن الزعامة التى كانت تقود المصريين إلى تلك الأهداف الوطنية كانت قبل ظهور الأحزاب السياسية المصرية الحالية أرشد وأجرأ . وأشد إيمانا برسالتها . فالسيد عمر مكرم الذى دعا الشعب المصرى إلى الاجتماع يوم ١٢ مايو عام ١٨٠٥ فى دار المحكمة الشرعية بالقاهرة ليعرض عليه مظالم خورشيد باشا الوالى التركى استطاع أن يحدد أهداف الشعب وقتئذ تحديدا واضحا وفق أحدث المبادىء الخاصة بسيادة الشعب . إذ أنه عندما حضر وكلاء الوالى التركى إلى دار المحكمة تقدم الزعماء المصريون بالمطالب الآتية :

١ — ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها العلماء والأعيان

٢ — أن يجلو الجنود العثمانيون عن القاهرة وتنتقل الحامية التركية إلى الجيزة

٣ — ألا يسمح بدخول جندى تركى إلى القاهرة حاملا سلاحه

وهذه المطالب التى تقرر بضع حقوق رئيسية من حقوق الشعب تظهر إلى أى مدى وصل نضج زعماء الشعب المصرى فى أوائل القرن التاسع عشر . وقد قرر المؤرخون أن هذا الانقلاب السياسى الذى تم باسم الشعب و بواسطة الشعب إنما هو أول حادث من نوعه فى تاريخ الأقطار التى كانت تكون الدولة العثمانية . فشروط التفاهم التى فرضها العلماء المصريون على خورشيد باشا تشهد على الأقل بأن غريزة أولئك المصريين قد جبلت على الحرية

وعلى إحساس بالضمانات الشعبية التى كانت شعوب الشرق تجهلها حتى ذلك الوقت [١]

والدليل على أن إحساس الشعب المصرى بكرامته ، وحرص زعمائه على سعادته كانا فى ذلك الوقت أعظم بكثير مما أصبحا عليه بعد أن قامت الأحزاب السياسية المصرية الحالية بقيادة الرأى العام المصرى أن هذه الأحزاب قد قبلت فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ عند توقيع معاهدة التحالف والصداقة مع بريطانيا العظمى إبقاء الثكنات البريطانية فى قلب عاصمة مصر أى فى قصر النيل . وقبلت أن يدخل الجنود الانجليز هذه العاصمة حاملين سلاحا فى وقت السلم أو فى وقت الحرب وهما أمران أبى زعماء الشعب المصرى عام ١٨٠٥ أن يسمحا بهما للجنود الأتراك !

وفى اليوم التالى لذلك اليوم التاريخى أى فى يوم ١٣ مايو عام ١٨٠٥ انتقل زعماء الشعب المصرى إلى دار محمد على ونادى السيد عمر مكرم بخلع الوالى التركى خورشيد باشا فلما سألهم محمد على عمن يريدون واليا أجابوا بأنهم اختاروه هو — أى محمد على — واليا . ولاشك أن المحضر الذى حرره يومئذ الشيخ محمد المهدى قد تضمن أسمى ما فى المبادىء الديمقراطية الصحيحة من مبادىء . وهو مبدأ حق المحكوم فى اختيار حاكمه . إذ ثبت فى ذلك المحضر « أن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم » [٢]

---

(١) Saintine, Marcel, Reybaud : Histoire Scientifique et militaire de L'Expedition Francaise en Egypte T9. P. 215

(٢) عبد الرحمن الرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » الجزء الثانى ص ٣٧٢

وقد جاء فى الترجمة الفرنسية التى وردت فى الكتاب الذى أشرف Saintine =

ولما ظهر التدخل الأجنبي في شؤون مصر وأحس المصريون بأن سيادتهم قد مست تقدم بعضهم لزعامة الرأى العام وألف محمد سلطان واحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وسليمان أباظه وحسن الشريعى حزبا سريا أسموه « الحزب الوطنى » وأصدروا منشوراً فى ٤ نوفمبر عام ١٨٧٩ تضمن برنامج ذلك الحزب . أشار معظمه إلى كارثة الديون التى مكنت الأجانب من الأعتداء على سيادة مصر ولذلك عالجوا تلك الكارثة بالمطالب الآتية :

١ — أن تعاد إلى الحكومة المصرية جميع الأملاك المسماة بالخديوية

٢ — أن يلغى النص القاضى بتخصيص إيراد السكك الحديدية لسداد الدين الممتاز فان لم يرض الدائنون الانجليز بذلك تعين عليهم قبول ذلك الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة المخصصة لهم من الدخل العام

٣ — أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنتظمة ديناً واحداً مضموناً بمال الأمة والبلاد بفائدة مقدارها ٤ فى المائة

٤ — أن تقام إدارة مراقبة وطنية خاصة يمثل الأجانب فيها ثلاثة ترشحهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية[1]

وقد تطور هذا البرنامج فيما بعد عندما تبين زعماء الشعب المصرى

= و Marcel و Reybaud على اصداره عن « التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية بمصر » المشار اليه سابقا ما يدل على شدة تمسك المصريين بحكم القانون اذ اضافت تلك الترجمة فى صفحة ٢١٣ من ذلك المرجع car les tyrans sont rebelles à la loi,et la loi seule est souveraine

(١) — احمد عرابى « كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية » ص ١٤٩

أن الأيدى الأجنبية تعمل على أن تحكم مصر حكما استبداديا فاعلن على العالم برنامجه الشامل الذى تضمن :

١ — المحافظة على استقلال مصر ومقاومة من يحاول إخضاعها ويجعلها ولاية عثمانية

٢ — الولاء للخديوى وتأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون والالحاح عليه بتنفيذ ما وعد به من إعطاء الشعب حكما نيابياً وإطلاق الحرية للمصريين والتعاون معهم بأمانة فى تحقيق هذه الأغراض

٣ — إخضاع الأجانب لما يخضع له المصريون من قوانين البلاد ومساواتهم بالمصريين فى اقتضاء الضرائب منهم

٤ — زيادة عدد الجيش للدفاع عن سيادة مصر إلى أن تبدأ الحياة النيابية باعتبار الجيش حارساً للشعب الذى لا سلاح له

٥ — جميع المصريين سواء فى الحقوق مهما اختلفت عقائدهم الدينية

٦ — إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ونشر التعليم وتوفير الحرية السياسية لكافة المصريين وهى الحرية التى يعتبرها الحزب حياة للأمة [١]

والنظرة الأولى لهذا البرنامج يتبين منها أنه تضمن الخطوط الرئيسية الخارجية لمطالب الشعب المصرى فى الحياة الحرة الكريمة . وأنه يمتاز برجولة التعهد بمقاومة كل محاولة للاعتداء على سيادة مصر بالقوة . وقد أثبت هذا الحزب فعلا فيما بعد أنه قاوم الجيوش الانجليزية التى غزت مصر عام ١٨٨٢ المقاومة العسكرية التى كانت فى طاقة البلاد وقتئذ . ولم نسمع

---

(١) Blunt: Secret History of the English Occupation P 556

وقد نشر البرنامج بعدد جريدة (التيمس) الذى صدر فى أول يناير عام ١٨٨٢

إذ ذاك زعيما من أولئك الزعماء يسخر فيطلب « تجريدة » لايقاف ذلك الاعتداء كما سمعنا بعد عندما اعتدى على حق مصر فى السودان !

ولما بدأ مصطفى كامل حركته الخالدة للمطالبة بحقوق الشعب المصرى دعا إلى تمجيد المصرية ورفع شأنها فكان أول زعيم فى القرن العشرين فهم نفسية الجماهير فسما بها وقضى على الرجعية التى كانت سائدة والتى كانت تتنصل من الانتساب إلى المصرية بجملته المأثورة « لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً »[1] وهذا الاعتزاز بالمصرية أكرم وأشرف من التعصب الأعمى للجنس الآرى الذى عمد إليه ادولف هتلر فى كتابه « كفاحى » بعد ذلك بسبعة عشر عاماً . وكانت عقليته السياسية وهضمه لأساليب الاستعمار من النضوج بحيث قال « باطلا يعتقد البسطاء أن الانجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام السلطة واسع السلطان نافذ الكلمة لغوا ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين »[2] وهو أمر غاب عن جميع الأحزاب السياسية التى تناوبت الحكم فى مصر منذ عام ١٩٢٠ لأن التجربة أثبتت أن بقاء الأصبع الأجنبية قد شل من سلطة البرلمان المصرى واعتدى على حقوقه الدستورية فى أكثر من تشريع مصرى هام كما أن هذه التجربة قد أثبتت أن مجلس النواب المصرى منذ إنشائه فى عام ١٩٢٤ لم يستعمل حقه الدستورى فى الاقتراح على عدم الثقة بوزارة وإسقاطها بل الذى حدث على التوالى هو العكس إذ أن كل وزارة مصرية — تؤيدها السياسة الأجنبية — قد

(١) خطبته بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧

(٢) خطبته بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧

استطاعت التخلص من كل مجلس نواب مصرى يناوىء تلك السياسة .

ولا شك أن مصطفى كامل — رغم حداثة سنه بالنسبة لزعماء الأحزاب السياسية المصرية الحالية — كان أبعد نظراً منهم جميعاً فهو الذى قال :

«هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطوف الأرض من جانب إلى جانب وهو فى كل مكان ينزل به قوى الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه معتقد أنه رايته التى إذا أهينت أهين و إذا مست بسوء قامت لأجلها بلاده وقعدت وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وارتبط كل فرد ببقية أفرادها فصارت كتلة واحدة لا يعتدى عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها إنسان

أما الأمة التى ظنت بنفسها السوء وتركت هذا الظن الفاسد ميراثاً لأبنائها وأحفادها فقل عليها السلام وادعها أمة الموت والفناء .

لا يؤلم المصرى المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم وتناقل هذه الأقوال المميتة للخواطر القاتلة لكل حركة و إرادة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين

ما هذا السم القتال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم اليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العاملين بقدرتها وشدة بأسها ؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ومحو آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب » (١)

(١) خطبته فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ بمناسبة الاحتفال بانقضاء مائة عام على تولية محمد على باشا حكم مصر .

وهذا أمر آخر غاب عن الزعماء المصريين الذين تولوا قيادة الرأى العام المصرى بعد ذلك فلم يفطنوا إلى أن تربية الشعب تربية وطنية . وأثارة النخوة والاعتزاز بماضيه والزهو بتاريخه هو الأساس الأول الذى تبنى عليه كل حركة وطنية موفقة . ولم تصدر كتب فى «التربية الوطنية» بمصر إلا بعد خطاب ذلك الزعيم الشاب بأكثر من عشرين عاما . ولم يراع فى وضعها الوازع الوطنى بل سيقت أساليبها فى قالب مدرسى جاف لا يحقق الغرض السامى الذى كان يرمى اليه مصطفى كامل .

هذه نظرة سريعة إلى موقف زعماء مصر قبل عام ١٩١٩ الذين أيقظوا الرأى العام المصرى وحددوا بعض أهدافه . وموقف زعمائها الذين خلقتهم الثورة المصرية التى نشبت عقب حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . والذين لم يفعلوا إلا أن جاروا الشعور الوطنى العام . وإذا كنا نغتفر لأمثال السيد عمر مكرم عام ١٨٠٥ وأحمد عرابى عام ١٨٧٩ ومصطفى كامل من عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩٠٦ أنهم لم يضعوا برامج واضحة صريحة للأحزاب السياسية المصرية التى أسسوها(١) فاننا لا نفهم كيف جرؤ زعماء الأحزاب السياسية التى خلقتها ثورة ١٩١٩ على مواجهة الرأى العام بدون برنامج حتى أن سعد زغلول قد اعتمد على شخصيته الوطنية القوية فى إنشاء «الوفد المصرى» ببرنامج ساذج يتلخص فى شيئين . الإستقلال وحكم الشعب بواسطة الشعب (٢)

ومركز مصر الجغرافى يجعل لها أهمية دولية لا يحس بها زعماء الأحزاب السياسية الحالية فهى بلا شك زعيمة الشرق الأدنى ، وهى زعامة اعترفت

---

(١) لم يعلن مصطفى كامل برنامج الحزب الوطنى إلا فى الخطبة التى ألقاها فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ .

(٢) Hans Kohn :Western Civilisatian in the Near East. P 83

بها جميع شعوب هذا الشرق ، ففى هذا الجزء من العالم نبت السبب الحقيقى لحرب القرم وحروب البلقان والحرب العظمى الماضية ، وفى هذا الشرق تعاركت بريطانيا العظمى وروسيا وألمانيا وفرنسا و إيطاليا ولا تزال تتعارك على أهم طرق العالم لكى تفوز بسيادة العالم . وفى هذا الجزء يبدو جليا كيف يقف نظامان من أنظمة التحكم فى العالم . أحدهما تجاه الآخر . أحدهما نظام الاستعمار الأنجلوسكسونى القائم على التوسع التجارى والصناعى لصالح الرأسمالية تؤيده دعاية سداها المبادىء المسيحية والديمقراطية ويوحى به الشعور بأريستوقراطية الجنس « النورديكى » الذى يقطن شمال أوروبا والآخر نظام الاتحاد السوفيتى القائم على التوسع الاشتراكى الذى يوحى به مثل أعلى جديد سداه الايمان بمساواة جميع الأجناس والشعوب فى الحقوق مساواة مطلقة وهذا النظام يعلن استعداده لمساعدة جميع الشعوب الراغبة فى التحرر . وأمام هذا الجهد الذى يبذله النظامان تجد شعوب الشرق نفسها فى عراك مع خصمها الخارجى . وهو الاستعمار الذى يرى من مصلحته أن تبقى هذه الشعوب فى حالة ضعف وفى مستوى منخفض من الحياة وهى حالة يعرف الخصم الخارجى كيف يستغلها وقد ورثت شعوب الشرق من الماضى تركة مثقلة بالفقر والجهل ، وقل التعاون بينها لتفرق شعوبها فى مساحات شاسعة متباعدة . فلم يعد أفرادها يحتملون المقاومة فى سبيل مثل أعلى . ويتسمون بقوة الشخصية . و يضطلعون بالمسئولية ، وهذه النقائص تنبىء بخلق جيل من الزعماء المثقفين الذين يحسون بها و يتعهدون بالقضاء عليها[1] ولكن الجيل الجديد من الشبان المصريين الذين أحسوا بتلك النقائص قد تبينوا أن مصر . وطنهم الخالد . الذى به يفخرون . وله يعملون .

---

(١) المرجع السابق ص ٦ .

وفى سبيله يموتون . لها مقوماتها التاريخية الخاصة . وظروفها الاجتماعية المميزة لها . ووجهات نظرها الخلقيه التى تتسم بها وتنفرد عن غيرها . فالنظامان اللذان يتعاركان على حدود مصر للفوز بالسيطرة عليها لا يصلحان لها إطلاقا إذ أن التوسع الاستعمارى الانجلوسكسونى قد أساء إلى مصر إساءة بالغة كما أساء إلى غيرها من بلاد الشرق الأدنى فقد بلغ من أثرة السياسة الاستعمارية الأوروبية أثرة وحشية فى استغلال هذه البلاد وفى اختيار حكومات عاجزة لا ضمير لها من أبنائها لحكمها أن تسببت فى خراب بعضها وتعريض كافة بلاد الشرق الأدنى للخراب[١] وقد تبين فعلا بعد الحرب العظمى الماضية أن الغرب قد نجح فى غزو الشرق مره أخرى كما فعل أثناء الحروب الصليبية[٢] مع فرق أن الغزو الحديث كان لأغراض استعمارية اقتصادية ويكفى أن أذكر هنا أن مصر — وهى دولة مزدحمة بالسكان وغنية — قد احتلت من عام ١٨٨٢ وظلت تعانى ذلك الإحتلال إلى يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ عندما أعلنت الحكومة الإنجليزية تصريحها المعروف باستقلالها .

وفى خلال هذه الأعوام الأربعين لم تتورع الإدارة الأجنبية التى كانت وحدها مسئوولة عن وزارة المعارف العمومية . عن ترك الأمية متفشية فقد أثبت إحصاء عام ١٩٢٧ أن نسبة الذين يستطيعون القراءة والكتابة من الذكور ٢٠٪ من مجموع عدد السكان ونسبة اللاتى يستطعنها من الأناث ٤٪

وقد اعترف لورد كرومر فى تقريره عن مصر عام ١٩٠٥ بأن « من يقابل بين صناعة مصر الآن وبين ما كانت عليه منذ عشر سنوات أو

---

(١) Morgan Shuster-The Strangling of Persia

(٢) Hans Kohn — المرجع السابق الاشارة إليه — ص ٦٨ .

خمس عشرة سنة مضت ـ أى قبل الاحتلال البريطانى ـ يجد أن الأمكنة التى كانت مزدحمة بصناع الغزل والحياكة والصباغة والخيم والأحذية والصياغة والعطارة والأدوات النحاسية والسروج والمناخل والأقفال قد قلت أو اندثرت وقام على أطلالها قهوات وحوانيت ملأى بضائع أوروبية . »

وليست هذه المقدمة مجال الأسهاب فى بيان الأضرار التى عادت على مصر من سياسة الاستعمار الأوروبى بل مجاله باب آخر من أبواب هذا الكتاب عند الكلام على الجزء الخاص بإعادة مجد مصر الصناعى من برنامج « العمل لمصر » ولكن يكفى أن أذكر أن سياسة التوسع الاستعمارى قد قضت بألا تكون فى مصر زراعة غنية إلا زراعة القطن ولكن المصريين لا يجنون منها ربحاً صناعياً منذ أغلقت مغازلهم لأن رجال الاحتلال رأوا وجوب إغلاقها لكى تربح مغازل لانكشير ومانشيستر وليفربول وبذلك يصدر القطن من مصر إلى المغازل الانجليزية ويعود اليها قماشاً باهظ النفقات [1]

أما النظام الآخر . وهو النظام الذى يروج له اتحاد السوفييت فهو الآخر لا يصلح أساساً لحياتنا الاقتصادية والاجتماعية لأنه أن صلح لروسيا فانه يتعارض مع المقومات الدينية والخلقية للأنظمة الاجتماعية التى قام عليها مجد الشرق فى ماضيه البعيد والقريب . ومن واجب الجيل الجديد من الشبان المصريين الذين يتقدمون لخدمة مصر أن ينبهوا مواطنيهم إلى أنه إذا كان العالم قد أعجب برجولة الروسيين فى الدفاع عن وطنهم ورد عادية الغزاه . وتقديم أكبر مساعدة إلى قضية الديموقراطية التى انضمت مصر

(١) جوليت آدم — « انجلترا فى مصر » ص ١٨٤ (ترجمة على فهمى كامل)

إلى أنصارها راضية مقتنعة فإن هذا الإعجاب ليس معناه اعتناق المبادىء الشيوعية . و إذا كان اتحاد السوفييت قد وجه عقب خلع القيصر وتأليف الجمهوريات الاشتراكية نداء إلى شعوب الشرق ذكر فيه « إلى مسلمى الشرق . إلى الايرانين والأتراك والعرب والهنود . إلى من تاجر لصوص أوروبا الجشعون برؤوسهم وحريتهم وأوطانهم مدى قرون عدة . إلى كل من يريد اللصوص الذين بدأوا الحرب أن يقتسموا بلادهم . نعلن أن المعاهدة السرية التى أبرمها القيصر المخلوع بشأن الاستيلاء عنوة على القسطنطينية قد مزقت وألغيت . ونعلن أن المعاهدة الخاصة بتقسيم إيران قد مزقت وألغيت . ونعلن أن المعاهدة الخاصة بتقسيم تركيا والاستيلاء على أرمينيا قد مزقت وألغيت . لا تضيعوا وقتاً فى نفض اللصوص الذين اغتصبوا أوطانكم عن أكتافكم . لا تمكنوهم بعد من استغلال أرضكم ليسلبوها . يجب أن تكونوا أنتم أنفسكم سادة أوطانكم . إن هذا من حقكم . ومصيركم فى أيديكم »[1] — إذا كان اتحاد السوفييت قد أعلن ذلك عقب الحرب الماضية فقد تبين بعدئذ أنه قد ضم أرمينيا اليه رغم ذلك . وأنه عمل على توسيع نفوذه السياسى والاقتصادى فى إيران وأنه لا تزال له مطامع جغرافية فى مضايق البوسفور والدردنيل تشبه إلى حد كبير المطامع التاريخية التى كان يتمنى قياصرة روسيا تحقيقها قبل زوال دولتهم !

إننا نؤمن بحقيقة واحدة . هى أن أى برنامج لحزب مصرى جديد يجب أن يعتمد على تأييد المصريين وحدهم دون غيرهم . على إيمانهم بنفع هذا البرنامج و بقدرته على تحقيق ما تصبو اليه مصر وتستحقه من عظمة ومجد لأن التجربة قد أثبتت أن اعتماد الشعوب الضعيفة على المساعدة

Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East P. 207 (١)

الخارجية فى السياسة العمليةهو مجرد مقامرة [١]

« العمل لمصر » فكرة جديدة : اقتنع بها نفر من الشبان المصريين المؤمنين بحق مصرفى حياة دولية عظيمة مجيدة و بقدرة المصريين على توفير هذه الحياة لوطنهم إذا نفذوا برنامجاً معيناً واضح الأهداف محدد الأغراض صريح الأساليب . وهم فى تحقيق هذا البرنامج يعتمدون على اقتناع كل مصرى ومصرية بما اقتنعوا به . وعلى اشتراك كل مصرى مصرية فى تنفيذ ذلك البرنامج أو العمل على تنفيذه وهذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا شعر الفرد فى مصر — أثناء العهد الجديد — بكيانه شعوراً حقاً . تحميه القوانين والأوضاع التشريعية الجديدة والظروف الاجتماعية التى ستنشأ حول فكرة « العمل لمصر »!

وهذا الايمان بكيان الفرد يخالف مخالفة تامة ما ذهبت إليه برامج بعض الأحزاب السياسية الأوروبية التى نشأت قبل هذه الحرب الأخيرة . فمنها من رأى أن تضحية الفرد ضرورية لضمان بقاء الجنس وأن أهم شرط لانشاء واستقرار دولة هو شعور معين بالتعاون قائم على توافق فى الخلق والجنس وعلى أهبة للدفاع عن ذلك كله بأى ثمن [٢] أى أن تكوين الدولة لا يقوم على أساس الفرد المتكرر بل على أساس مجموع الجنس . وفى سبيل هذا المجموع يجب أن تضحى حقوق الفرد ! وهذا الاعتقاد بتفاهة الفرد عند تلك الأحزاب هو الذى دعاها إلى تفسير نفسية الجماهير بأنها لا تتأثر إلا بكل ما هو قوى عنيف و بأن هذه الجماهير كالمرأة التى لا تمكنها حواسها الداخلية من التعقل ووزن الأمور وزنا صحيحا . بل أنها تصبو دائما إلى

---

(١) Eliot Grinnell Mears—Modern Turkey

(٢) Adolf Hitler — Mein Kampf P. 141

القوة التى تكمل كيانها فهى تفضل الانحناء للرجل القوى على إخضاع رجل ضعيف والحاكم الذى يملى إرادته على الرجل الذى يلتمس منها أن تتبعه . وهى تشعر باطمئنان عقلى إذا وجدت من يعلمها شيئا لا يقبل أن تتحول عنه أكبر من اطمئنانها لو تركت لها حرية اختيار ذلك الشىء أو التحول عنه إلى شىء آخر : فليست لدى هذه الجماهير إلا فكرة ضئيلة جدا عن كيفية ذلك الاختيار ولذلك تميل إلى الشعور إذ ذاك بأن معلميها تخلوا عنها . وهى لا تكاد تخجل من أن تتعذب عقلياً كما أنها لا تحس إلا نادرا بأن حرياتها ككائنات آدمية قد اعتدى عليها وهى ترى القوة التى لا ترحم ومظاهر قسوتها الوحشية فتخضع لها [١]

ولكن أنصار «العمل لمصر» لا يقرون هذا المذهب بل يرونه رجوعا بالمدنية الانسانية إلى عهد بائد ، وقد أثبتت تجربة الحرب الأخيرة أن المذاهب التى دعت إلى إفناء الفرد خابت خيبة مرة ، ولم تجلب على زعماء تلك المذاهب إلا الويلات . وعلى الشعوب التى انقادت لهم إلا الخراب .

إن « العمل لمصر » — كما قلت فى هذه المقدمة — فكرة نعرضها على كل مصرى ، ولكل مصرى أن يناقشها . أو يعدل فيها . أو ينبذها . ولكن إيماننا بعظمة هذه الفكرة ونفعها أشد من تهيبنا أية معارضة ، فعرض هذه الفكرة الجديدة التى تتهم جميع الأحزاب السياسية القائمة بالتقصير فى حق مصر . والتى تدعو الى حشد جهود جبارة من كل فرد وكل هيئة . وكل مجموع لتحقيق البرنامج الضخم الذى وضعناه . والتى تحبذ حرمان بعض طوائف المصريين والأجانب من امتيازات نالوها فى غفلة الزمن لاسعاد المجموع المصرى . وإنشاء « مصر العظمى » — عرض

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .

هذه الفكرة سيثير بلا شك غضب الكثيرين ممن لا يستريحون إلى الفكرة الجديدة . لأنها تتعارض مع مصالحهم . أو لأنها تكشف عن نقائصهم . وتوقع هذا الغضب لا يثنينا عن عزمنا فالمصرى الذى يرى أمراضا تفتك بوطنه . وهو يعرف سر الدواء الذى يشفى هذا الوطن العزيز منها يجب عليه أن يتقدم لمكافحة تلك الأمراض وإلا كان خائنا لا يستحق شرف الانتساب إلى هذا الوطن المجيد .

واعتمادنا فى تنفيذ برنامجنا على إقناع المصريين به يفهم منه بداهة أننا لا نفكر فى إقامة أية ديكتاتورية من أى نوع كان بل ننكر الطغيان بكافة مظاهره . نحن لا نفهم أن يوصف الزعيم فى الوقت الحاضر بأنه لم يعد القائد الروحى وإنما مروض الوحوش [١] ولا نفهم أن يقال فى القرن العشرين وبعد آلاف السنين من جهاد عنيف فى سبيل حرية الفرد إنه يجب أن يرسخ فى الذهن أن الأغلبية لا يمكن أن تحل محل الرجل الموهوب وإن هذه الأغلبية لا تمثل الجهل فحسب بل الجبن أيضا وإنه كلما خف عبء المسئولية عن عاتق الزعيم كلما كثر عدد الأفراد الذين يشعرون رغم انحطاط شعورهم العقلى بأنهم مدعوون إلى تسخير نشاطهم لمصلحة الشعب فينتظرون فى صف طويل فى ألم وحزن يعدون الساعات الباقية على احتمال تقدمهم إلى الأمام ويراقبون كل تغيير فى مراكز الحكام التى يصبون اليها ويفرحون لكل فضيحة قد تبعد عن طريقهم واحداً من المتطلعين إلى تلك المراكز ممن يكون قد سبقهم فى الصف إليها [٢] ولا نفهم أن تهاجم إرادة الشعب إلى حد أن يقال إن الفكرة التى تقرر أن الانتخاب العام هو الذى يمهد لاكتشاف العباقرة من أبناء الشعب فكرة سخيفة

---

(١) Henri Massis: Chefs. P 31 : والرأى منسوب الى المفكر الألمانى Keyserling

(١) Adolf Hitler : P 81

أولا لأن الأيام التى يظهر فيها سياسى عبقرى واحد بين الشعب هى أيام باركها الله وحددها تعالى ولا شأن للشعب بها . وأن مثل هذا السياسى يظهر بمفرده لا بالمئات أو الآلاف . وثانيا لأن الجماهير تشعر بكراهية غريزية لكل رجل عبقرى . وأنه لأسهل أن يرى الجمل يمر من سم الخياط على أن يرى رجل عظيم يكتشف عن طريق الانتخاب العام وأن كل ما حدث فى التاريخ مما يعدفوق مستوى الجمهور العادى كان يرجع الفضل فيه إلى قوة جارفة صادرة من فرد واحد [1] لأن التجربة قد أثبتت فى مصر أن الشعب المصرى هو الذى « اكتشف » سعد زغلول فانتخبه وكيلا للجمعية التشريعية . فى وقت لم يكن يملك فيه أن « ينتخبه » رئيساً والشعب المصرى — بقوته الجارفة — هو الذى جعل سعد زغلول زعيما وطنياً أثناء الثورة عام ١٩١٨ . فحمله على أن يسخر مواهبه لمهاجمة أوضاع يشهد ماضيه بأنه كان يقرها فى وقت لم يكن الشعب قد جرفه فيه إلى اتجاهه الجديد . والتجربة قد أثبتت فى انجلتره أن الشعب — عن طريق الانتخاب — هو الذى « اكتشف » ونستون تشرشل . وهو الذى أعانه على أن يهزم من قال هذا الكلام الذى أشرنا اليه هزيمة غيرت وجه التاريخ . نحن لا نفهم أن يقود الزعيم شعبه كما يقود المدرس أطفال مدرسته . فيتعالى عليهم لكى يستطيع أن يسوسهم [2] ولا أن يجترىء زعيم على القول إنه إذا اعتزم أمراً فانه لا يسمح لأية معارضة بأن تثنيه عنه إلا اذا اقتنع عن طريق التجربة والوقائع المادية بفساد رأيه وأن ضميره هو الينبوع الوحيد الذى يغذى تصرفاته لأن عمله كزعيم يكشف له عن أمور كثيرة تغيب عن بصر

---

(١) Hitler : Mein Kampf p. 87,88

(٢) Henri Massis : Chefs P. 70

المتفرج الذى لايعمل عمل الزعيم ويدلل على هذا الزعم بأن المهندس المعمارى ليس فى حاجة الى مهندسين معماريين آخرين يقفون خلفه لينبهوه الى الأخطاء التى تظهر فى البناء الذى يشيده وأنه أعجب دائما بالجملة التى توضع على المنازل التى لم يتم بناؤها بعد وهى « الدخول محظور على كل شخص أجنبى عن العمل ! [١] » لأن التجربة قد أثبتت أن الذى قال هذا الكلام كان يستطيع أن ينقذ شعبه من النهاية التعسة التى إنتهى اليها لو أنه سمح لغيره من السياسيين بأن يقفوا خلفه لينبهوه الى الأخطاء الهائلة التى ارتكبها ولكنه عند ماحظر الدخول على الأجانب عن زعامته وعمل بمفرده فقد تلك الزعامة وجر شعبه الى الهلاك . نحن لانفهم أن يتلاعب طاغية بالألفاظ فيزعم أن احساس الحاكم بواجب الدفاع عن الشعب والارتقاء به رقياً مادياً وأدبياً لايعنى أبداً الظن بأن مجموع الشعب هو مصدر السلطة وأن الحكومة إنما هى صنيعة المجموع وليست نخبة ممتازة يقع عليها واجب قيادة المجموع والتضحية بنفسها فى سبيله . وأن الرغبة فى ضمان الحريات الضرورية للحياة الاجتماعية والكرامة الانسانية نفسها لاتحتم اعتبار الحرية دعامة يجب أن يرتفع فوقها بناء الكيان السياسى للدولة . وأن الحرية قد انتهت بالوقوع فى نطاق التعبير الصوفى الذى يقول « لاحرية ضد الحرية » وأنه لكى تنسجم مع الفكرة الصحيحة عن الفرد وحقائق الحياة يجب أن نقول إن حرية الفرد موجودة دائما إلا إذا تعارضت مع المصلحة العامة [٢] لانفهم هذا اللعب على الألفاظ لأن التجربة قد أثبتت فى نفس الدولة التى قيل فيها هذا الكلام أن قائله عطل الحريات العامة ليستأثر بالسلطة — كغيره — وادعى أن

(١) المرجع السابق ص ٧٢

(٢) المرجع السابق : « سالازار أو ديكتاتورية الذكاء » ص ٩٢ و ٩٣

العناية الالهية قد أرسلته لقيادة شعبه . ولا نفهم أن يجتذب زعيم عطف الشعب بالألفاظ الخلابة التى يبدو من ظاهرها الحدب على ذلك الشعب فيقول « إلى أى حد يعود شقاء الشعب المادى والمعنوى الى طريق كان يجب إنشاؤه ولم ينشأ وطريق أهملت صيانته ولم يصلح ومدرسة كان يجب أن تفتح ولم تفتح!(١) » ثم لايلبث أن يعلن أن الشعوب لاتحكم وفق هواها وإنما وفق مايقضى به مجموع مصالحها وحقيقة آرائها(٢) لانفهم ذلك ولا نقره لأن تبين تلك المصالح وحقيقة الآراء مسألة مطاطة يترك الطاغية لنفسه — دون الشعب — تقديرها . كما لا نفهم أن يصف زعيم رغبة الجماهير فى الاشتغال بالسياسة بأنها حمى . وأن يزعم بأنه لايوجد وباء يصيب بأبلغ الضرر الحياة الخاصة والحياة العامة . والكيان المادى والكيان المعنوى والضمير والذكاء كمرض السياسة (٣) لأن هذا الاتجاه فى التفكير يقصد به تبرير تعطيل الحريات العامة واستيلاء الطغاة على مقاليد الأمور دون معارض أما « العمل لمصر » ففكرة تستوحى كل عناصرها من ارادة الشعب فهى فكرة ديمقراطية صميمة وطبيعة النظام الديمقراطى الحر تبيح لكل مواطن أن يشترك اشتراكا فعليا فى توجيه سياسة وطنه . بل أن بعض الدساتير يجعل ذلك الاشتراك واجبا حتميا بينما الدول التى يستأثر الطغاة بالحكم فيها تعمل دائماً على أن ينصرف المواطنون عن الاهتمام بالمسائل السياسية .

ونحن لانقول ماقاله بعض الداعين الى المسائل الاقتصادية الجديدة التى تمخضت عنها الحرب العالمية الماضية من نبذ الفردية والمبادىء الحرة التى

---

(١) Oliveira Salazar : Revolution dans la Paix المرجع السابق ص ٨٥

(٢) هذا هو رأى المفكر الفرنسى Fustel de Coulanges

(٣) رأى آخر المفكر فوستيل ده كولانج اعتنقه اوليفيرا سالازار طاغية البرتغال

نشأت فى القرن الماضي ووصف عواقبهما بأنها عواقب سيئة والزعم بأن اعطاء الدولة حقاً فى الحد من نفوذ الطبقات « البورجوازيه » بما فيها أصحاب رؤوس الأموال الذين يستغلون الطبقات العاملة و يعيشون عيشة الطفيليات عالة على العمال ليس الغرض منه انتهاج سياسة عمالية متصاعدة وتبر ير ذلك الزعم بأن الشعب الذى تستأثر فيه الدولة وحدها بالثروة لا يوحى بالرغبة فى خدمته (١) ولا نقول أيضا أن للدولة الحق فى ترقية وتنسيق ومراقبة وتوجيه جميع النشاط الوطنى ولـكن بدون أن تحل محلها أو تنافسها ولا نقول أن وطنية الدولة قاصرة على تنظيم الجمعيات ونقابات العمال . ونقابات أصحاب الأعمال وعلى الاسراع فى اضفاء طابع وطنى على مختلف فروع الزراعة والصناعة والتجارة دون أن تسعى الدولة لـكى تصبح مزارعة أو صانعة أو تاجرة (٢) لا نقول لا هذا ولا ذاك لأننا نعتقد بأن هذا الـكلام تنقصه الصراحة ولذا يتناقض قائله مع نفسه تناقضاً ظاهراً . لأننا نؤمن بأن فى الامكان — بالنسبة لمصر — أن تزيد ميزانية الدولة زيادة هائلة عما عليه الآن . وفى نفس الوقت تقوى نواحى النشاط الصناعى والزراعى والتجارى فتزيد موارد أصحاب رؤوس الأموال . وأن يتمتع العمال — صناعيين وزراعيين — بحياة رغدة كريمة . وأن تتحصن أسرهم ضد العوز والمرض والشيخوخة وأن تمد أمامهم السبل للانتقال إلى مرتبة أصحاب الأعمال دون شن حرب بين الطبقة العاملة وطبقة أصحاب رؤوس الأموال . لأن مصر دولة رأسمالية ومصلحتها وحقيقة ميول شعبها تنسجمان تماما مع النظام الرأسمالى . ولأننا نؤمن بأن ثراء الدولة لا يتعارض مع ثراء

(١) خطبة أوليفيرا سالازار فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٣

(٢) Henry Massis — « سالازار أو ديكتاتورية الذكاء » من كتابه Chefs ص ١٣١ .

الأفراد ولا يتحقق دائما على حساب هؤلاء الأفراد بل إنه يمكن أن يتحقق بسبب ثرائهم اذا نفذنا برنامج «الاستعمار الداخلى» لمصر استعماراً زراعياً وصناعياً واسع النطاق بواسطة المصريين . ولأننا نؤمن بأن الظروف الخاصة التى أحاطت بمصر بسبب نظام الامتيازات الأجنبية تجعل من واجب الدولة — حتى فى ظل النظام الرأسمالى — أن تتولى بنفسها «ترقية وتنسيق ومراقبة وتوجيه» نوع واحد من أنواع النشاط الوطنى وهو الذى يؤدى «خدمات عامة» كشركات النقل والنور والماء وأن تترك للأفراد استغلال باقى نواحى النشاط الوطنى ، وهى عديدة ، استغلالا حراً لا يقيده إلا حرص الدولة على نمو ذلك النشاط واضطراده . والدليل على صحة مانقوله أن الدولة التى قال طاغيتها هذا الكلام الذى نرد عليه قد واجهت أزمة خطرة فى الطعام فاضطر مزارعوها أن يذبحوا أبقارهم لنقص الغذاء . واختفت الألبان ومنتجاتها من أسواقها [1]

« العمل لمصر » إذن فكرة ترمى إلى تحقيق خلق مصر العظمى بطريق الاقناع وحده دون غيره . ولا تقر شكلا من أشكال الاجرام أو الشغب أو العسف لنشرها أو كسب أنصار لها . لأنها — كما سبق أن قلت — تكره الطغيان . مهما كان مخففاً ومعتدلا . فقد ذهب البعض إلى وصف نوع من الطغيان بأنه « أشرف وأعقل وأكثر أنواع الطغيان الموجوده فى أوروبا اتزاناً »[2] ولكن الطغيان لا يمكن أن يكون شريفاً وهو يقوم على سلب حرية الفرد ولا يمكن أن يكون عاقلا وهو ينفرد بالبت فى مصير شعب بأكمله دون مشورة أحد . ودون السماح بمعارضة ولا يمكن أن يكون متزناً وهو يستوحى كيانه من انقلاب مفروض على

(١) جاءت البرقيات من البرتغال خلال شهر يونيو سنة ١٩٤٤ بهذا المعنى
(٢) Jacques Baimville فى وصف طغيان أوليفيرا سالازار

الناس كرها بقوة السلاح . ولذلك فسوف تكون دعايتنا إلى فكرة «العمل لمصر» دعاية سلمية هادئة فنحن ننكر إلى حد الكراهة والمقت أن الظروف — مهما كانت — تحتم استعمال القوه الجسدية للدعاية الى فكرة ما [١] ونرى أن الاشارة الى أن مبادىء الثورة الفرنسية لم تثمر ثمرتها لما تضمنته من فلسفة جديدة فى صدد سيادة الشعب وإنما لأنها وجدت جيشاً من المهيجين يقودهم مشعوزون شعبيون من طراز عظيم [٢] مغالطة مكشوفة وقياس مع الفارق فلم تكن الحياة النيابية موجودة فى فرنسا عندما قامت تلك الثورة . ولم تكن للصحافة الفرنسية حريتها التى تمكنها من اعلان رأيها . أما مصر فلها حياتها النيابية . وللشعب فيها أن يحبذ برنامجاً حزبياً معينا بعد الاقتناع به فيعهد الى أصحابه بشرف خدمته وصحافتها حرة لها أن تروج لرأى دون آخر . وأن تنتقد مادام نقدها فى سبيل المصلحة العامة . كما أن لرئيس الدولة حقا دستوريا ساميا فى أن يوازن بين مختلف الاتجاهات السياسية ويتبين مافيه مصلحة الشعب فيوليه ثقته الكريمة .

ونحن لانكتفى بانكار الالتجاء الى وسائل الشغب والاثارة لنشر برنامجنا بل نؤمن — مع جوته — بأن أضمن وسيلة للقضاء على أية روح ثورية هى اجابة مطالب الشعب المعقولة [٣] كما نؤمن بأن هذا الشعب وان أخطأ في تفاصيل الحكم على الأمور فانه محق دائما فى الحكم على مجموعها [٤]

---

(١) Adolf Hitler : P. 456

(٢) المرجع السابق ص ٤١٠

(٣) Emile Ludving-Genius and Character من دراسته للمفكر الالمانى « شتاين » Stein

(٤) المرجع السابق . من دراسته للمفكر الالمانى Rathenau ص ١٣٠

أما برنامج « العمل لمصر » الذى تتضمن هذه الدراسات شرحاً وافياً له مستندا إلى الحقائق التاريخية المسلم بها . ومدعماً بالآراء العلمية الثابتة . وقائما على الاحصاءات الرسمية التى لاشك فيها فهو :

(١) **إحداث انقلاب فى نظم التعليم بمصر** يقوم على أساس الحقيقة التاريخية الثابتة التى تقرر أن مصر هى مهد الحضارة . وعلى أن مناعتها قد أفنت فى قوميتها كل الشعوب التى فكرت فى غزوها فظلت مدى التاريخ محتفظة بسيادتها كاملة .

(٢) **تكوين اتحاد Federatian يعيد مصر العظمى إلى حدودها التاريخية** وهى تضم السودان ومديرية خط الاستواء المعروفة بأوغندة واريتريه وزيلع وبربرة والاقطار العربية المجاورة لمصر وهو الاتحاد الذى أعلنت مصر تكوينه عام ١٨٣٢ ويحد شمالا بجبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط وشرقا بنهر الفرات وحدود نجد الغربية وولاية حضرموت والحبشة ومستعمرة كينيا وجنوبا بخليج عدن وبوغاز باب المندب وبحيرة البرت نيانزا وغربا بطرابلس ومستعمرة الكونجو البلجيكية . ويشمل مصر وسوريا المعروفة بفلسطين وسوريا ولبنان والحجاز واليمن .

وللاتحاد برلمانه الاتحادى وللاتحاد — لا للاعضاء — جيشه . وله — لا للاعضاء — ممثلوه السياسيون والقنصليون فى الخارج وحكومة الاتحاد فى القاهرة هى التى تبرم المعاهدات الخاصة به وهى التى تمثله فى جميع الاتفاقات الدولية . ولكن لكل عضو فى الاتحاد برلمانه الخاص يسن له التشريعات المحلية الملائمة له . كما أن له حكومته المحلية التى تدير شؤونه فى الحدود التى يرسمها دستور الاتحاد . ومن شأن هذا الاتحاد أن

يجعل البحر الأحمر بحيرة مصرية عربية فيتحقق الشرط التاريخي الأول لسلامة الشرق الأدنى .

(٣) **أفريقيا للأفريقيين** : وهو مبدأ يجب أن تحمل مصر العظمى رسالة الدفاع عنه أمام العالم على ضوء الاتجاه الدولي الجديد الذى نشأ عقب الحرب العالمية الحالية من وجوب تقسيم العالم الى جماعات متجانسة فى اللغة والخلق والجنس . فالحقيقة التاريخية والجغرافية تثبت أن مساحة أفريقيا ١١ر٤٩٨ر٠٠٠ ميل مربع تقطن منها الشعوب السامية والحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام أكثر من النصف . بينما الجزء الآخر تقطنه الشعوب الآرية . التى تتكلم لغات أوروبية وتدين غالبيتها بالمسيحية فالتعاون بين مصر — كزعيمة للمجموعة الأولى — واتحاد جنوب افريقيا — كزعيم للمجموعة الثانية — كفيل برفع العار الذى لا يزال يصم هذه القارة بتقسيمها الى مستعمرات تملكها بعض دول أوروبا وهى القارة التى لا تزيد مساحتها عن ربع مساحة أفريقيا .

(٤) استعمار مصر استعمارا داخليا بواسطة المصريين :

١ — ففى **الزراعة** يجب القضاء على خرافة عدم امكان زراعة أكثر من ثمانية ملايين من الأفدنة وهى الداخلة فى الزمام . منها نحو خمسة ملايين مزروعة فعلا ونحو ثلاثة ملايين من الأفدنة البور تحت الاصلاح إذ أن مساحة مصر تبلغ مائتين وأربعين مليونا من الأفدنة . يمكن أن يصل المزروع منها الى عشرين مليونا من الأفدنة فى خلال عشرة أعوام وذلك بتنفيذ مشروع تخزين مياه النيل فى وادى الريان جنوب مديرية الفيوم وغرب مديرية بنى سويف . وبوصل النيل بالبحر الأحمر بقناة تخترق الصحراء الشرقية وتحمل الماء العذب الى مناطق المناجم المصرية وإنشاء

شبكة من الآلات الرافعة للمياه الجوفية أى المياه التى تجرى تحت سطح الأرض التى فى مناطق يتعذر وصول ماء النيل إليها وزراعة مناطق غابات حول منطقة وادى الريان وصول الترعة المقترح شقها على نطاق واسع ، وبتنمية الثروة الحيوانية وإنشاء مزارع على أحدث الطرق العصرية .

ب — وفى **الصناعة** يجب القضاء على خرافة أن مصر قطر زراعى ولا يمكن أن يكون صناعياً لإفتقاره إلى المعادن والمواد الخام . فآبار البترول براس غارب فى منطقة البحر الأحمر وحدها تكفى حاجة مصر إلى هذا الزيت . ومعادن التونجستين والكروم والقصدير والأمينت والفوسفات والحديد موجوده بكميات وافرة وفى الامكان مضاعفة الكميات المستخرجة من هذه المعادن بعد إيصال مياه النيل إلى منطقة البحر الأحمر . وإنشاء صناعات محلية بجانب منطقة المناجم المصرية بعد تعميرها . ويجب إزالة الاهمال الشائن فى استغلال الشواطىء المصرية التى يبلغ طولها ألفين من الكيلومترات ومع ذلك فهى لاتغل إلا عشرة آلاف طن من الأسماك سنوياً من مجموع أربعين ألف طن من الأسماك تنتجها البحيرات المصرية ومياه النيل مع أن فى الامكان السهل الوصول الى إنتاج خمسة أضعاف هذه الكمية . وإنشاء صناعات أسماك محلية الى جانب المصائد والتدرج بالشعب الى قبول الأسماك ومنتجاتها كأحد الأطعمة الرئيسية شأن كل الأقطار الواقعة على البحار .

ج — وفى **التجارة** يجب العمل على تعديل الميزان التجارى بحيث يصبح فى صالح مصر . فبعد تنفيذ الشطرين ا و ب من البند الثالث من هذا البرنامج تصبح مصر قادرة — الى أكبر حد — على أن تكفى نفسها بنفسها ويتطور ميزانها التجارى الى مصلحتها فبعد أن كانت تستورد

فى عام ١٩٤٠ بما قيمته ٣١٫٣٧٨٫٠٠٠ جنيهاً ولا تصدر إلا بما قيمته ٢٧٫٨١٢٫٠٠٠ جنيهاً تصبح قادرة على أن تصدر بما تزيد قيمته كثيراً عما تستورده .

(٥) زيادة الإيراد الأهلي

فى الامكان رفع هذا الايراد من ١٨٥ مليوناً من الجنيهات كما كان مقدراً فى عام ١٩٣٥ الى خمسمائة مليوناً فى مدة عشر سنوات بعد تنفيذ البند الرابع من هذا البرنامج و بذلك يرتفع متوسط ما يخص كل مصرى من اثنى عشر جنيهاً فى العام الى نحو ثلاثين جنيهاً فى العام وهى نسبة تمكنه من أن يعيش حياة كريمة . وللوصول الى تحقيق هذه الحياة الكريمة لكل مصرى يجب اتخاذ ثلاثة اجراءات حاسمة .

ا — وضع حد أعلى لتملك الأراضى الزراعية بحيث لا يزيد مايملكه الفرد الواحد عن خمسمائة فدان . وما تملكه الأسرة الواحدة عن ألف فدان

ب — تحريم تملك الأراضى الزراعية على غير المصريين .

ج — إعطاء الدولة حق نزع ملكية الأراضي الزراعية التى يثبت أن أصحابها قد أهملوا صيانتها أو العناية بها . أو استغلالها بحيث لم تنتج الغلة التى أنتجتها مثيلاتها فى الموقع والجودة فتخلفت بذلك عن المساهمة بواجبها فى الإقتصاد الوطني .

(٦) توفير ضروريات الحياة الصحية الأولية للقرى الأربعة آلاف التى يتكون منها الريف المصرى بتنفيذ مشروع إدخال للماء الجارى والمجارى العمومية إلى تلك القرى وهو يكفل انقاذ أربعة عشر مليوناً من المصريين من مرض التراكوفا واثنى عشر مليونا من مرضى البلهارسيا

وثمانية ملايين من الإنكلستوما كما يكفل وقاية تكاد تامة من حميات التيفوس والملاريا والتيفوئيد . وهذا المشروع تبلغ نفقاته سبعين مليوناً من الجنيهات يمكن الحصول عليها فوراً من بيع أراضى الحكومة التى تقدر قيمتها بنحو مائة مليون جنيه .

(٧) **تنظيم الاداة الحكومية** على أساس إلغاء جميع الإستثناءات التى أوجدتها تقلبات الحكومات الحزبية بعد قيام النظام النيابى فى مصر منذ عام ١٩٢٤ وذلك باصدار تشريع ذى أثر رجعى يقضى بتحديد مرتب حملة الشهادات العليا الذين تخرجوا عام ١٩٢٤ عند صدور التشريع المطلوب وأن يكون تحديد الرقم متفقا مع مستلزمات الحياة . وما تقرره المدة التى قضاها الموظف فى خدمة الحكومة من حق فى مرتب يفى بحاجاته وحاجات أسرته و يحدد التشريع مرتب حملة تلك الشهادات العليا من خريجى عام ١٩٢٥ عند صدوره ثم مرتب حملتها من خريجى عام ١٩٢٦ وهكذا . فاذا قدر التشريع عند صدوره مرتب حملة الشهادات العليا الذين تخرجوا عام ١٩٢٤ بستين جنيها مثلا فان مرتب الذين تخرجوا عام ١٩٢٥ يكون خمسة وخمسين جنيهاً والذين تخرجوا عام ١٩٢٦ يكون خمسين جنيهاً دون فرق بين المتخرجين من كلية الطب أو الحقوق أو الصيدلة أو الهندسة فكلهم سواء ودون فرق بين الطبقات الاجتماعية التى ينتسبون اليها . أو الأديان التى يعتنقونها فاذا وجد بين موظفى الدولة عند صدور التشريع من تلك الطوائف من يزيد مرتبه عما حدده التشريع هبط إلى ذلك الحد . و إذا وجد من يقل مرتبه عما حدده التشريع ارتفع إلى ذلك الحد على أن توضع حدود أخرى لحملة الشهادات المتوسطة وغيرها على ضوء نفس الفكرة التى تنكر التفريق بين الموظفين بسبب انتمائهم إلى أصحاب النفوذ أو تأييدهم لمختلف الأحزاب.

ب — إنصاف هؤلاء الموظفين فى الترقيات والعلاوات والتنقلات بان يعطى كل موظف إلى الدرجة الرابعة الحق فى أن يشكو من أى غبن وقع عليه إلى إحدى دوائر المحكمة الإبتدائية التى يعمل فى دائرتها ؛ ولكل موظف من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الأولى الحق فى أن يشكو إلى إحدى دوائر محكمة الاستئناف التى يعمل فى دائرتها . ولكل موظف من درجة مدير عام فصاعداً إلى وكيل وزارة أن يشكو إلى محكمة النقض والإبرام على أن يكون لهذه الجهات القضائية الحق فى رفع الغبن الواقع على الموظف وفى توقيع الجزاء على الموظفين الذين يثبت أنهم يتخذون عن عمد تلك الشكاوى وسيلة لمشاغبة رؤسائهم فيتحقق التوازن بين الرئيس والمرءوس

ج — الهبوط بميزانية الموظفين إلى الحد المعقول الذى يتفق مع إنتاجهم ومع حاجة العمل وإلغاء المرتبات الاضافية والنفقات المظهرية لتمكين الدولة من تنفيذ البرنامج الذى يحقق مشاريع الاصلاح الكبرى

(٨) **الدولة هى التى تقوم بالاشراف على الشركات التى تتولى الخدمات العامة** services publics كالنقل بأنواعه والنور والمياه وليس للشركات ولا للافراد الذين يتولون هذه المرافق الآن أن يعترضوا بحجة الحق المكتسب لأنه لا حق ضد مصلحة الدولة العليا

٩ — **نشر التربية العسكرية** لتكوين جيل يمتاز برجولته . ويعتز بوطنه ويفنى من أجل علمه وملكه وإعادة إنشاء الصناعات اللازمة لتكوين جيش وسلاح طيران وبحرية حربية وتجارية يجب أن تبلغ فى خمس سنوات

ا — نصف مليون جندى فى وقت السلم يصلون فى وقت الحرب إلى مليون

ب — ثلاثة آلاف طائرة حربية من طائرات التمرين والاستكشاف والتعاون مع الجيش والمقاتلات وقاذفات القنابل

ج — بحرية حربية مكونة من لاقطات ألغام ومدمرات خفيفة وطوافات مراقبة مجموع حمولتها خمسون ألف طن

د — بحرية تجارية ـ يمكن أن تستخدم فى وقت الحرب للأغراض الحربية ـ يجب أن يصل مجموع حمولتها فى عشر سنوات إلى مائتى ألف طن . للقيام بنقل البضائع والركاب من والى الموانىء المصرية

ه — أسطول هوائى تجارى ـ يمكن أن يستخدم فى وقت الحرب للأغراض الحربية ـ لمسايرة نهضة الطيران التى أعقبت الحرب الحالية والمساهمة مع الشركات والحكومات الأجنبية التى تشرف على النقل الجوى خارج مصر فى استكمال شبكة الخطوط الهوائية العالمية

(١٠) **تعديل الدستور** الصادر به الأمر الملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣ وقانون الإنتخاب الصادر به المرسوم بقانون رقم ١٤٨ لسنة ١٩٣٥ على الوجه الآتى :

ا — المادة ٣ من الدستور يضاف اليها النص على أن الوظائف العامة مدنية كانت أو عسكرية لا يعهد بها إلا إلى المصرى ابن المصرى

ب — المادة ٥٨ من الدستور التى تقرر أنه « لا يلى الوزارة إلا مصرى » يضاف اليها النص على أنه « لا يكون قد تولى عضوية مجلس إدارة شركة من الشركات خلال الأعوام الخمسة السابقة على اختياره للوزارة » .

ج — المادة ٨٥ من الدستور التى تكتفى بان تشترط فى النائب ـ زيادة على الشروط المقررة فى قانون الإنتخاب ـ أن يكون بالغاً من السن

ثلاثين سنة يضاف اليها النص على وجوب إتمام المرشح للدراسة العالية ، ولا يعفى من هذا الشرط إلا إذا حصل على أكثر من ثلاثة أرباع أصوات الناخبين الذين اشتركوا فعلا فى عملية انتخابه بالدائرة التى رشح فيها .

ء — المادة الأولى من قانون الانتخاب تعدل بحيث لا يعطى حق انتخاب أعضاء البرلمان إلا للمصريين والمصريات الذين أتموا الدراسة الابتدائية أو الالزامية أو ما يماثلها من الدراسات الصناعية أو الذين يدفعون للدولة ضريبة سنوية لا تقل عن ثلاثة جنيهات أو الذين يدفعون إيجاراً شهرياً لا يقل عن ثلاثة جنيهات .

هذه هى الخطوط الرئيسية الخارجية لبرنامج « العمل لمصر العظمى » وفى الأبحاث التالية شرح لكل بند من بنود هذا البرنامج .

وأنى لمؤمن أشد إيمان بأن فى الإمكان تنفيذ الجزء الأكبر خلال الأعوام الخمسة القادمة . وإنجاز باقيه فى الأعوام الخمس التالية . فتحتل مصر مكانتها الدولية التى يؤهلها لها تاريخها الطويل الحافل بمواقف المجد، والتى تتفق مع زعامتها التاريخية لحضارة العالم . وتصبح لمصر العظمى كلمتها فى أسرة الدول كما أنى مؤمن أشد إيمان بأن مصر لو استردت قوتها ـ قوتها الإقتصادية والاجتماعية ـ طبقاً لما جاء فى هذا البرنامج فانها ستؤدى إلى السلم العالمى بعد الحرب الأخيرة خير خدمة ترجى من دولة تدين لها كافة الأقطار التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالإسلام بالزعامة . . فيجب أن نبدأ بأن نكون أقوياء وعظماء ... وبعد ذلك يسهل أى أمر فى دنيا يسودها السلام، فسر السلام وسر الانسانية والحرية والاحسان هى القوة فاذا كان الفرد محسناً وخيراً ولكنه مشلول فإن إحسانه لا نفع فيه [(١)] وإنى أعتمد فى

---

(١) Robert Brasillach — جريدة Je suis partout الباريسية

تحقيق رسالة « العمل لمصر العظمى » على شباب مصر . على جيلها الجديد الذى لم يتلوث بما تلوث به الجيل الماضى ، فلم يرتعد أمام رئيس أجنبى وهو يستدعيه إلى مكتبه . ولم يرق ماء وجهه ولم يش بزميل لكى ينال ترقية أو علاوة ، وأنى فى اعتمادى على الشباب أرى مع بول كلوديل[1] أن الشباب هو سن البطولة لا سن اللذة كما يزعمون واعتمادى على هذا الشباب هو الذى جعلنى أعلن فى هذه المقدمة أننى لن ألجأ إلا إلى الإقناع فى الدعاية لهذا البرنامج . وفى العمل على تنفيذه . فالدعوة مثلا إلى بث الروح العسكرية وزيادة الجيش المصرى و إنشاء البحرية الحربية والطيران ليس معناها التأهب للحرب . . . فالحروب لا تشنها الأحزاب التى تعتمد على تأييد الشباب لأن الآباء هم الذين يدفنون الأبناء فى كل حرب . بدلا من أن يدفن الأبناء آباءهم فى أوقات السلم العادية[2] ولا شك أن أدنأ غدر عرفه التاريخ هو ما اقترفته الأحزاب الفاشية التى أوصلها الشبان إلى كراسى الحكم فى برلين وروما فكان جزاء أولئك الشبان أن أرسلهم زعماء تلك الأحزاب إلى ميادين القتال لتحصدهم نيران المدافع وهم فى زهرة العمر . .

أما بعد فاذا استطعنا أن ننفذ هذا البرنامج الضخم ـ ونحن مؤمنون بأن فى الامكان تنفيذه ـ فاننا نكون قد أدينا لوطننا أعظم خدمة أديت اليه فى تاريخه الحديث منذ أعلن ابراهيم باشا تأليف «اتحاد مصر العظمى» فى عام ١٨٣٢ عقب وصوله إلى جبال طوروس ونحن فى تنفيذ هذا البرنامج نعتقد أن تجارب الحرب العالمية الأخيرة قد صهرت الصداقة بين مصر

(١) Henri Massis : Chefs P. 53 والرأى للمفكر Paul Claudel

(٢) Hérodote

وبريطانيا ـ وهى الصداقة التى ندعو اليها ونؤيدها ـ وأثبتت بالدليل العملى ان مصر الحديثة الوفية لقضية الديمقراطية تستطيع أن تؤدى لحليفتها أكبر خدمة وأن يكون وفاؤها نقطة التحول فى تلك الحرب الضروس وأن السياسة الانجليزية الخارجية قد تأثرت بعظات تلك الحرب وتحررت من الاعتبارات الرجعية القديمة وأصبحت أكثر استعداداً لترك هذه المنطقة من الشرق الأدنى تستعيد مكانتها التاريخية لتمكينها من المساهمة مساهمة فعاله فى إقرار السلم على قدم المساواة مع غيرها من أعضاء أسرة الدول ..

ونحن فى تنفيذ هذا البرنامج نضع نصب أعيننا كلمة فولتير التى يقول فيها « إن عظماء الرجال يجيئون عندى فى المرتبة الأولى والأبطال العسكريين فى المرتبة الثانية . وأولئك الذين أسميهم عظماء هم الذين يميزون أنفسهم باجراء نافع أو بعمل من أعمال البناء أما الآخرون الذين يغيرون على المدن ويدكونها فليسوا الا مجرد أبطال » .

مِصْرُ : مَقبَرةُ الغُزاة

المراجع الاجنبية

Pierre Jouguet : Précis d' Histoire d' Egypte
Bogumil Goltz : Provincial en Egypte
A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire.
James Breasted : The Origins of Civilisation
J. de Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte.
A. Moret : Le Nil et la Civilisation Egyptienne
Gordon Childe : L'Orient Prèhistorique
André Maurois : Histoire d'Angleterre
Lavisse : Histoire de France
Alexandre Moret : L'Egypte Pharaonique
Gabriel Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne
Pierre Jouguet : L'Egypte Alexandrine
Victor Chapot : L'Egypte Roumaine
John Knox : The First Blast of the Trumpet against the Monstruous Regiment of Women
Charles Roux : Bonaparte Governer of Egypt
Berthier : Relation des Compagnes du General Bonaparte en Egypte et en Syrie
De la Jonquière : L'Expedi ion d'Egypte
Ninet : Orabi Pacha
Broadly : How We defended Orabi

والمراجع المشار اليها فى باب « أهداف العمل لمصر »

المراجع العربية

عبد القادر حمزة : على هامش التاريخ المصرى
هند اسكندر عمون : تاريخ مصر
عزيز خانكى : اسكندر الأكبر
ابراهيم سيف الدين : مصر فى العصور القديمة
الجبرتى

فى مصر خرافة أثيمة تزعم أن المصريين قد استعمرتهم شعوب عديدة غزوا مصر من الشرق والغرب والجنوب . وأن مصر قد ظلت منذ فجر التاريخ « مستعمرة » لتلك الشعوب التى غزتها على التوالى . . . !

وهذه الخرافة — التى سنثبت الآن أنها لا سند لها من التاريخ بل أن التاريخ ينطق باختلاقها — قد روجها فى مصر نفر من ضعاف النفوس الذين تلقوا بعض فتات المستعمرين الأوروبيين فى القرن الماضى والقرن الذى نعيش فيه ، ولا شك أنها ذاعت فى فترة الضعف التى عانتها مصر فى عهد الخديوى توفيق وأوائل عهد عباس لأنه لا يعقل أن تذيع مثل هذه الخرافة فى عهد كعهد محمد على كانت ترتعد أثناءه أوروبا فرقا من انتصارات الجيش المصرى . الذى كان عماده الفلاح المصرى الصميم .

وهذه الخرافة التى تزعم أن هذا الفلاح المصرى قد قبل — دائماً — الضيم ورضى بذل الاستعمار كانت تظهر فى العهود التى تصاب أثناءها مصر بضعف طارىء . فقد قيل فى خطاب خاص أرسل فى القرن الثالث قبل الميلاد « لا تظن أننى فلاح مصرى » (١) .

ولا يزال بعض الجهلاء بتاريخ مصر . وبحقيقة قيمة هذا الفلاح المصرى يعتبرون أن الانتساب اليه سبة ! بعد أن نجحت سياسة الاستعمار فى إيجاد طبقة « بيروقراطية » بين الموظفين الذين يقيمون فى المدن ويتناولون مرتباتهم من كد ذلك الفلاح ويخيل إلى بعضهم — لجهلهم — أن القيام بعلاجه كأطباء أو تصميم الترع التى تروى أرضه كمهندسين . أو تعليم أبنائه كمدرسين . أو التحقيق معه عند اتهامه كضباط إنما هو منة وفضل وليس أول واجب من واجباتهم كخدام لذلك الفلاح ، الخلية

(١) Pierre Jouguet Prècls d' Histoire d' Egypte P. 393

الأولى للشعب المصرى ، وبعد أن نجحت نفس السياسة فى إيجاد طبقة « بورجوازيه » من الأجانب المتمصرين . أو المصريين الوصوليين تعيش هى الأخرى فى المدن كالطفيليات . تحميها التشريعات المختلفة التى لاتحسب حساباً لمرض ذلك الفلاح . أو شيخوخته ، أو اشفائه . فيشقى هو لكى تسعد تلك الفئات الكسلى .

وقيل مثل هذا الكلام الأثيم عن المصرى بعد ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر . وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٥٣ فى كتاب نشره رحالة ألمانى زار مصر إذ ذاك فزعم « أن المصرى همجى ونصف متوحش ، وعنيد ويجب لترويضه وتمدينه استخدام سوط من حديد »(١) .

ورغم هذا الافتراء الذى نسب إلى المصرى فقد أثبت على مدى التاريخ أنه أول معلم ألقى على العالم دروس الحضارة الأولى . وأول واضع لأسس الأخلاق التى لاتزال أرقى شعوب العالم الحالى تعتبرها مثلا عليا تنشدها فيصعب تحقيقها ، وأنه لم يمكن غازيا لوطنه. من أن يفرض ارادته عليه . أو يسلبه حريته وسيادته بل أفنى جميع الغزاة الذين مروا به فى مصريته التى اعتز بها دائماً .

١ — أن مصر — دون سائر دول العالم التى تعتبر متمدينة فى العصر الحالى — قد نشأت فيها مدنية أصيلة قبل أن تنشأ فى غيرها ونمت تلك المدنية وازدهرت وانتشرت منها فى أرجاء العالم الأخرى التى كان الآدميون يتحركون أثناءها فى الغابات إلى جانب الحيوانات وهم على الفطرة . هذا أمر أجمع عليه كافة المؤرخين الذين توفروا على دراسة تاريخ

---

(١) Bogumil Goltz : Provincial d'Egypte من تلخص لجريدة Le Progrès Egyptien الصادرة فى ١١ ابريل سنة ١٩٤٣

مصر القديم فلا شك أن المصريين هم شعب له كيانه الخاص . ومقوماته «الأثنولوجيـة» المميزة له دون سائر الشعوب الأخرى التى مرت مثله فى عصور ماقبل التاريخ ، أى العصور السابقة على اسـتخدام الانسان للمعادن . وهى عصر الحجر غير المصقول . وعصر الحجر المصقول وعصر الانتقال من استخدام الحجر إلى استخدام المعدن . والشعوب التى مرت مثله — ومعه — فى تلك العصور هى الشعب الـكلدانى الذى كان يقطن وادى دجلة والفرات . والشعب الذى كان يقطن وادى نهر الهندوس فى الهند .

وقد دلت الآثار التى وجدت فى مصر من العصر الحجرى على فساد الزعم بأن الحضارة المصرية التى نشأت فى العصر الحجرى هى حضارة كلدانية انتقلت إلى مصر بغزو الـكلدانيين لها . كما دلت تلك الآثار أن المصريين قد انتقلوا من العصر الحجرى — أى عصر قبل التاريخ — إلى العصر المعدنى قبل غيرهم من شعوب العالم أجمع [١] .

ومن الثابت أن أول مدنيتين ازدهرتا فى التاريخ بين المصريين والـكلدانيين . ولـكن مصر تحتل مكان الصدارة بالنسبة لقدم المدنية المصرية وبالنسبة لعدد الآثار التى خلفتها وبجمالها . ففى مصر تبدو شخصية المصرى منذ أقدم عصور التاريخ ويمكن للمؤرخ أن يتتبع تطور جسمه وروحه وآثاره الإجتماعية والسياسية والعقلية والفنية تطوراً متسقاً متسلسلا بدون انقطاع إلى يومنا وهى ظاهرة لامثيل لها فى تاريخ أية مدنية أخرى . ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية

وقد ظهر الإنسان فى مصر وفى الأقطار المجاورة لها من شمال أفريقيا

(١) عبد القادر حمزه «على هامش التاريخ المصرى القديم» الجزء الأول ص٤٢

قبل أن يظهر فى غيرها من بقاع العالم . ففى الوقت الذى كان الثلج يغمر أوروبا كانت الصحراء الكبرى الحالية بقاعا تغمرها المياه وتغطيها الحشائش وتجوب فيها الحيوانات وقد وجدت حول الجزائر وفى جفصه على مقربة من تونس آثار عرف عمرها من عدد الطبقات التى تراكمت فوقها . وهذه الآثار عبارة عن أدوات وأسلحة لشعب من الصيادين الرحل كما أن صور الحيوانات التى كانوا يصطادونها وجدت محفورة على الجدران فى بعض جهات الجزائر والسودان المصرى . وقد وصلوا إلى حافة المنخفض الذى كان النيل يجاهد لكى يحفر لنفسه ممراً فيه ، وفى العصر الثلجى الأول لأوروبا تمكنت مياه أنهر وسط أفريقيا من أن تجد منفذاً بين أحجار الجرانيت فى النوبة وأن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى العصر الثلجى الثانى لأوروبا اجتذب وادى النيل صيادى المناطق المجاورة بمائه ونباتاته وحيواناته[1]

ومن الثابت أيضاً أن المصريين قد انتقلوا فجأة من العصر الحجرى الأول palæolithic إلى العصر الحجرى المهذب neolithic الذى يحسن أن يسمى العصر النحاسى Chalcolithic لأن النحاس كان قد بدأ استعماله أثناءه فلم يعثر على آثار تدل على أن المصريين قد تدرجوا مع العصر الحجرى بدرجاته المختلفة كما تدرجت شعوب أخرى . وقد اتضح من الحفائر العميقة فى فم الدلتا وجود أوانى خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة فى دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً . و بناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤن قد عاشوا هناك منذ ستة عشر ألف عام[2] ومن

(١) A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire p. 117, 118

(٢) James Breasted : The Origins of Civilisation (reprinted from the Scientific Monthly) November 1919 p. 307

المحتمل أنهم الشعب الذى عاش بين عصر رجال الصحراء الحجرى والعصر النحاسى الذى جاء بعده . وهو العصر الذى يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد [١]

ومن الثابت أيضاً أنه لا توجد آثار تدل على وجود الإنسان فى سوريا أو بين نهرى دجله والفرات تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفى ذلك التاريخ كان المصريون قد دخلوا باب تاريخهم الخاص وثبتت أقدامهم فيه ولذلك فمن الحكمة أن نعزو تقدم المصريين الأوائل إلى عبقريتهم الخاصة وإلى الظروف الإستثنائية التى أتاحها لهم وادى النيل ولا يوجد دليل على أن ذلك التقدم يعود الفضل فيه إلى أجانب عن أولئك المصريين كانوا أكثر منهم تقدما أو رقياً [٢].

ولما كانت بعض أجسام المصريين الذين عاشوا فى العصر النحاسي قد صانتها القبور من العطب فقد تبين من فحصها أن الجنس المصرى يتميز باعتدال القامة ونحافة البنية وطول الوجه وضيق الجمجمة وسواد العينين والشعر الناعم الملمس أى الذى ليس « أكرتاً » وليس هناك أى أثر للجنس الزنجى فى الجثث التى وجدت من ذلك العصر النحاسى بل على العكس كل شىء يدل على أن هناك وجه شبه شديد أو قرابة بين الجنس الذى يسكن جنوب أوروبا و بين أولئك المصريين وهو الجنس الذى يسميه العلامة سيرجى Sergi « الجنس الأبيض المتوسط »[٣]

ولعل أحسن رد على مازعمه بعضهم من أن بعض أوجه الشبه التى بين آثار الكلدانين التى من العصر الحجرى وآثار المصريين التى من نفس

(١) J. De Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte p. 100

(٢) A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire o. 122

(٣) James H. Breasted : The Origins of Civilisation p. 428

العصر تدل على أن مصر قد اقتبست من حضارة الكلدانيين هو ماذكره أحد كبار الثقاة فى التاريخ المصرى القديم من أن جميع المكتشفات والابتكارات الهامة مصرية صميمة وليس هناك ماينبيء بأن مصر مدينة لآسيا بتلك الحضارة بل من الممكن تفسير ذلك الشبه بين حضارة مصر وحضارة الكلدانيين بأنه وقت انتقال الحضارة المصرية الى الخارج [1]

فاذا قابلنا بين ما كانت عليه مصر فى عصر ماقبل التاريخ وما كانت عليه انجلترا لوجدنا أن الآثار التى تعود الى ذلك العصر والتى لاتزال موجوده بانجلترا تثبت أن مدنيتين مختلفتين قد أثرتا فى أهل انجلترا إحداهما مدنية « الايبيريين » التى نظن أنهم قدموا الى انجلتره من اسبانيا وهى مدنية فطرية . وسواء كانت تلك المدنية اسبانية أم لا فلا شك أنها صادره من البحر الأبيض المتوسط . فالمسافر القادم من جزيرة مالطة يدهشه عند وصوله الى مدينة «ستونهنج» الانجليزية عظم الشبه بين آثار عصر ماقبل التاريخ فى مالطة ومثيلاتها فى انجلترا . وهذه المدنية قد انتقلت الى انجلترا بواسطة المهاجرين الذين لم تنقطع صلتهم بالقارة الأوربية بسبب التجار الذين كانوا يحضرون الى انجلترا للحصول على المعادن ويدفعون ثمنها منتجات الشرق [2]

٢ — وقد انتهى العصر الحجرى فى مصر — وكان لايزال مستمراً فى غيرها كما قلنا — حوالى عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد المسيح وبدأ تاريخ الأسر المصرية التى توالت على حكم مصر ، وليس هنا محل الكلام على الانتصارات الحربية التى قام بها المصريون فى مجد تاريخهم ولا على

(١) Gordon Childe : L'Orient Prèhistorique

(٢) André Maurois : Histoire d'Anglettrre P. 17

انتباههم الى الحدود الطبيعية التى يجب أن تمتد الى مصر شمالا وشرقا وجنوباً . فمحل هذا باب آخر من أبواب هذا الكتاب وإنما أكتفى هنا للتدليل على مبلغ رقى المصرى فى بدء تاريخه ، وعلى ابتكاره قواعد الاخلاق الفاضلة وأسس المعاملات الكريمة قبل أن تخطر لشعب اخر أن أذكر فقرة منقولة عن كتاب « الموتى » التى كان يتضمن فلسفة المصريين الأوائل وطريقة محاسبة الموتى ، وهو كتاب ذاع بين عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة التى انتهت فى عام ١٠٨٥ قبل الميلاد . إذ جاء على لسان الميت وهو يخاطب قضاته الذين كانت تذهب العقيدة المصرية القديمة الى أنهم سيتولون محاسبته على شكل محكمة .

«إننى لم أقارف الشر ولم أعتد ، ولم أسرق ، ولم أقتل غدراً ولم أكذب ولم أسل دموع أحد ، ولم أتدنس ، ولم أتلف أرضاً مزروعة ، ولم أقذف ، ولم أترك الغضب يخرجنى إلى غير الحق ، ولم أزن ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ولم أسىء الظن بالملك ولا بأبى ولم ألوث الماء ولم أحمل سيداً على أن يسىء إلى عبده ، ولم أحلف كاذباً ، ولم أغش فى الميزان ، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع . ولم أرد ماء حين الحاجة إليه ، ولم أسد قناة رى على غيرى ، ولم أطفىء ناراً يجب أن تشعل .» (١)

وفى نفس « كتاب الموتى » فقرة أخرى يتوجه بها الميت إلى قضاته يقول فيها .

«لقد عشت بالعدل ، وتغذيت بالعدل ونشرت الافراح فى كل صوب

---

(١) Moret: Le Nil et la Civilisation ترجمة عبد القادر حمزه باشا فى كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » الجزء الأول ص ١٠٣

وأطعمت الجياع ، وسقيت العطاش ، وكسوت العراة ، ومددت للغرقى يد النجاة » [1]

وهذا الفهم النبيل لقواعد الاخلاق . وهذا التحديد الرائع لأسس المعاملات . يقطعان فى الدلالة على ماوصل إليه المصريون الأوائل من رقى ، وعلى ماامتازوا به من سمو على باقى شعوب الأرض فى ابتكار المقدمات الصحيحة للحضارة الانسانية الأولى ، ويكفى هنا للرد على الذين يفترون على المصريين ، ويشوهون تاريخهم وينكرون فضلهم ، أن أذكر كلمة العلامة المؤرخ « لافيس » عضو الأكاديمى الفرنسية إذ قرر بصريح العبارة « ان مصر كانت المعلمة الأولى للانسانية » [2]

٣ — وأول غزو أجنبى امتحنت فيه مناعة المصريين ومدى اعتزازهم باستقلالهم هو غزو « الهكسوس » و « هك » فى اللغة المصرية القديمة تعنى « حاكم » و « سوس » تعنى البلاد الأجنبية فالهكسوس هم الحكام الذين من البلاد الأجنبية . وهم ينتمون إلى جنس سامى زحفت عليهم الشعوب الآرية من شرق بحر قزوين فاندفع نحو مصر . وقد فنوا فى القوميــة المصرية فقلدوا ملوك مصر الفراعنة فى أسمائهم وعاداتهم ولغاتهم وديانتهم وأطلقوا على أنفسهم اسم « أبناء رع » . ورغم ذلك كله ظل المصريون يكرهونهم ويذكرون دائماً أنهم غزاة لوطنهم فكانوا يصفونهم بالقذرين وانتهز أمراء طيبة وعلى رأسهم أحمس الأول أول فرصة سانحة فطردوهم من مصر وثأروا منهم فدمروا ومحوا آثارهم لكى لا تبقى شاهدة بهذا المساس الطارىء بسيادة مصر

---

(١) هند اسكندر عمون — « تاريخ مصر » ص ٦٤

(٢) Lavisse : Histoire de France P. 19

وسرعان ما استردت مصر عظمتها عقب ذلك مباشرة فنشأت الدولة الحديثة (١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ قبل الميلاد) وفيها قام تحوتمس الثالث بتأسيس أول امبراطورية عرفها التاريخ فوصل إلى جبل طوروس شمالا ونهر الفرات شرقا والشلال الخامس جنوبا . كما أدخل ليبيا فى الحدود المصرية الغربية وفى خلال حكم الأسر الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين لعبت «طيبة» دور عاصمة العالم (١)

٤ — وثانى غزو امتحنت فيه مناعة المصريين هو غزو الليبيين لمصر . فقد بقوا فى مصر قرنين ولكنهم لم يؤثروا أدنى تأثير فى قومية المصريين واعتزازهم بمصريتهم . بل حدث أنهم تطبعوا بطباع المصريين وحافظوا على العادات والألقاب الفرعونية . وعبدوا آلهـــة المصريين وقدموا لها القرابين

٥ — وغزا الأشوريون مصر . ولكن بسمتيك الأول وهو ابن أحد أمراء الأشوريين كان قد فنى فى القومية المصرية إلى حد أنه انتقض على الأشوريين وأحيي الآداب المصرية القديمة و بنى المعابد على طراز معابد الدولة القديمة . وذلك أثناء حكم الأسرة السادسة والعشرين .

٦ ـــ وظهرت مناعة المصريين ضد كل حكم أجنبى عند غزو الفرس بقيادة قمبيز لمصر فقد قاومه بسمتيك الثالث مقاومة شديدة ورغم أن قمبيز تغلب عليه فقد ولاه على مصر من قبله ولكن بسمتيك تآمر على قمبيز فأعدمه . وقد فنى الفرس ـ كما فنى الهكسوس والليبيون والأشيريون ـ فى القومية المصرية فتلقبوا بألقاب المصريين وعبدوا الآلهة المصرية ولكن رغم ذلك كله لم يكسبوا قلوب المصريين فقاموا بعدة ثورات محاولين

(١) Gabriel Hanotaux : Histoire de la nation Egyptienne

إخراج الفرس من مصر وتطهير أرض الوطن من الغزاة إلى أن وفقوا فى طرد الفرس أثناء حكم العاهل الفارسى دارا الثانى

فاذا قابلنا بين ما فعلته مصر أثناء ذلك العصر ـ بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد ـ و بين ما فعلته انجلترا لوجدنا الفرق شاسعاً . فقد ظلت انجلترا خلال ذينك القرنين تتلقى موجات متتابعة من قبائل رعاة الأغنام الذين كانوا يهوون الحروب والغزوات فحلوا فى انجلترا محل « الإيبيريين » وتلك القبائل كانت تنتمى إلى شعب «سيلتى» كان يحتل مساحات واسعة من وادى الدانوب وشمال الألب . وقد فرق المؤرخون بين موجتين رئيستين من موجات ذلك الغزو البطىء لانجلتره . أولاهما غزوة ال «جواديل» Goidels أو «الجيل» Gaels الذين أعطوا لغتهم « الجيلية » لأهل أرلنده وأهالى المناطق العليا فى « اسكتلنده » والثانية غزوه « البريتون » Bretons الذين أصبحت لغتهم فيما بعد لغة الجاليين والبريتونيين فى فرنسا . أما فى انجلتره فقد محا الغزو الألمانى لها فيما بعد اللغة السيلتية ولم تبق إلا بضع كلمات تستخدم فى الحياة المنزلية احتفظت بها النساء السيلتيات اللاتى تزوجن من الغزاة الالمان ومنها اسم « لندن » الذى يقابله فى اللاتينية Lundinium و يبدو أنه اسم «سيلتى» يشبه اسم القرية الفرنسية « لوندونيير » وقد ثبت ان أول قطعة نقود سكت فى انجلتره نقش عليها رأس «ابولون» مما يرمز الى أن مصدر المدنية التى ظهرت فى انجلتره خلال ذينك القرنين من البحر الأبيض المتوسط .

والباحث فى المدنية «السيلتية» يتبين أوجه الشبه العظيمة بينها و بين مدنية «البراهما» فى الهند . فرجال الدين والكهنة يكونون أشرف طبقة فى

الهيئة الاجتماعية . وكثير من المعتقدات الدينية السيلتية تذكر الباحث بالشرق . فالاضراب عن تناول الطعام مددا طويلة الذى لايزال شائعا فى أرلنده هو نفس ما يزاوله الهندوس ويسمونه « دارنا » dharna ويقضى بأن يصوم البراهمى وهو واقف أمام باب خصمه حتى يحصل على الترضية التى يطلبها .

ولاتزال آثار العهد السيلتى بادية فى تكوين انجلتره العصرية الى اليوم ففى القرن العشرين نجد أن مجالس الوزراء والجيوش يرأسها ويقودها « سيلتيون » من اسكتلنده أو ارلنده [1]

٧ — وعادت القومية المصرية تؤثر فى غاز من أكبر غزاة التاريخ هو اسكندر الأكبر المقدونى . فقد زار واحة سيوه عقب دخوله الى مصر وأبى كبير الكهنة إلا أن يحييه باسم « ابن آمون » فقبل اسكندر هذا الاسم واستبشر به الى حد أنه أوصى أن يدفن بعد موته فى واحة سيوه الى جانب أبيه المعبود آمون . وبلغ من تأثر اسكندر بعظمة مصر أن فكر فى نقل عاصمة ملكه من مدينة بيللا بمقدونيا الى الاسكندرية ولم يعقه عن تنفيذ تلك الفكرة إلا اضطراره الى مغادرة مصر لمحاربة الفرس وعدم اتمام بناء الاسكندرية [2]

ولما تولى البطالمة حكم مصر بعد اسكندر بدأوا بالابتعاد عن المصريين وعلموا أبناءهم تعليما يونانياً ولكن سرعان ماأثرت البيئة المصرية فيهم . ففنوا ، كمن سبقهم من الغزاة ، فى القومية المصرية وكثر التزاوج بينهم و بين المصريين وأخذ البطالمة يبالغون فى التقرب الى المصريين ومع ذلك فان

(١) Mauroise: Histoire d'Angleterre P.19—24

(٢) عزيز خانكى: « اسكندر الاكبر » ص ٣٤ و ٣٥ وابراهيم سيف الدين « مصر فى العصور القديمة » ص ٢٠٦

المصريين لم ينفكوا يحقدون على المغتصبين اليونانيين فثاروا عليهم وقد ترتب على موقف المصريين العنيد من البطالمة خلال القرن الثانى قبل الميلاد واثناء حكم بطليموس الرابع و بطليموس الخامس تداعى الامبراطورية التي أسسها اسكندر الاكبر (١)

٨ — فى كل هذه المراحل التاريخية السابقة التى استغرقت أكثر من ثلاثين قرنا لم يتمكن مستعمر أوغاز من أن يقهر الروح المصرية أو يمس بصميم القومية المصرية . الى أن غزا الرومان مصر فى عهد اكتافيوس بعد أن انتصر على انطونيوس فى معركة اكتيوم البحرية و بعد أن تغلب على كليو باتره آخر ملوك البطالمة برأفى مصر نفسها . فمن ذلك التاريخ ـ عام ٣٠ قبل الميلاد — فقدت مصر سيادتها وأصبحت جزءاً من الامبراطورية الرومانية ومركزا من أغنى المراكز الاقتصادية وأنشطها . ومن أخصب المراكز الثقافية وأكثرها حيوية فى تلك الامبراطورية (٢)

ومع ذلك فاذا كان الرومان قد غزوا مصر عام ٣٠ قبل الميلاد فأفقدوها سيادتها التى احتفظت بها على مدى عصور التاريخ السابقة فقد غزوا انجلتره فى نفس ذلك الوقت . وعلى وجه الدقة فى عام ٥٥ قبل الميلاد فى أيام حكم قيصر فلما لم يوفق فى ذلك العام التوفيق الذى كان يرجوه عاد فى العام التالى أى فى عام ٥٤ قبل الميلاد واستعدى بعض القبائل السيلتية على البعض الآخر و بذلك توصل إلى غزو انجلتره وفرض عليها الضريبة المستحقة لروما وتأثرت بلاد «الجول» بانجلتره بالروح الرومانية . وتدوولت العملة الرومانية

---

(١) Pierre Jouguet : L'Egypte Alexandrine الجزء الثالث من سلسلة Histoire de la nation Egyptienne لجبريل هانوتو

(٢) Victor Chapot : L'Egypte Roumaine من السلسلة المشار اليها فى المرجع السابق

فى انجلتره . وكثر عدد القراء الذين كانوا يقرأون الشعر الرومانى . ولايزال أثر العصر الرومانى ظاهراً الى اليوم فى انجلتره فمعظم المدن الانجليزية التى تنتهى أسماؤها بـ «شستر» Chester أو «سستر» Cester كانت أثناء الغزو الرومانى ثكنات رومانية Castra . ولم ينقض طويل وقت على الغزو الرومانى حتى انتشرت المنازل المبنية على الطراز الرومانى فى جنوب انجلتره وانتشر معها النقش الرومانى على الجدران ، والأرض المنقوشة برموز تشير الى التاريخ الرومانى و بلغ الأمر الى حد أن الرومان بنوا فى «باث» مدينة رومانية بحتة من مدن المياه . وقد تعود « السيلتيون » على تلك الحياة الرومانية . أوعلى الأقل تعودعليها جانب منهم . وقد يعود السبب فى ذلك الى أن الرومانيين لم يكرهوا الشعب الإنجليزى على تقليدهم بل أن الفرد الانجليزى كان يقبل مختاراً على التأثر بالمدنية الرومانية لما كانت تمتاز على مدنيته الخاصة [١] .

٩ — وقد ظلت مصر ولاية رومانية ستمائة وسبعين عاماً . انتهت بغزو العرب لمصر فى عام ٦٤٠ ميلادية . فعاد المصريون يثبتون مناعتهم التاريخية ويفنون الغزاة الجدد فى قوميتهم . إذ ظلت اللغة القبطية رغم الغزو العربى لغة الدواوين الى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الملقب بأبى العباس أى أنها ظلت كذلك خمسة وأربعين عاما وتكررت ثورات المصريين فى خلال حكم العرب فكان الخلفاء يحترمون ارادتهم وينفذونها

ا — فقد شكوا أسامة بن يزيد . عامل الخراج فى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠ م) فعزله ولم يكتف بذلك بل أمر بارساله الى

(١) A. Maurois : Histoire d'Angleterre P. 29

دمشق مكبلا بالحديد . مسمرة يداه وقدماه بأطواق من خشب ولكن أسامه مات فى الطريق .

ب — وثار المصريون فى عهد خلافة يزيد الثانى بن عبد الملك (٧٢٠ — ٧٢٤) الذى ولّى على مصر حنظلة بن صفوان . وكان سبب الثورة أنه حطم الآثار المصرية . وامتدت الثورة بين بلبيس ودمياط .

ج — وعادوا الى الثورة فى عهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٣) بسبب نفس الوالى حنظلة بن صفوان واستجاب الخليفة لمطالبهم فعزله وولّى مكانه حفص بن الوليد .

د — وعادوا الى الثورة فى عهد مروان الثانى بن محمد (٧٤٤ ـ ٧٥٠) لأنه ولّى حسان بن عتاهية على مصر وطالبوا بعودة حفص وركبوا الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحصروا حسانا الوالى فى داره ثم طردوه من مصر وولّوا حفصا للمرة الثالثة وعاد فى تلك الأثناء حنظلة بن صفوان من افريقيا ونزل الجيزة فكتب مروان الى مصر يأمر بتوليته وعندئذ منعه المصريون من الاقامة فى الفسطاط .

(ه) وثاروا بعد إنشاء الدولة العباسية فى عهد خلافة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ١٧٥) فجمعوا جموعهم فى سخا وتغلبوا مرتين على الجيش الذى وجهه لاخضاعهم والى مصر إذ ذاك يزيد بن حاتم وظلت ثورتهم تخبو وتتقد حتى بعد أن عين موسى بن على والياً على مصر

(و) وفى عهد خلافة المهدى بن المنصور (٧٧٥ ـ ٧٨٥) انتهز المصريون فرصة ثورة دحية بن المصعب الأموى على العباسيين فانضموا إلى دحية

ولما توجه موسى بن مصعب والى مصر إذ ذاك إلى الصعيد لاخضاعهم تغلبوا عليه وقتلوه .

(ز) ظلت مصر مسيحية . وظل المصريون يرفضون أن يجعلوا دين الغزاة العرب ديناً لهم إلى عهد عبد الله المأمون الرشيد (٨١٣ – ٨٣٣) وقد زار الخليفة مصر فكان أول خليفة عباسي يزورها . وأصبحت مصر بعدئذ إسلامية .

فاذا قارنا بين موقف مصر فى ذلك العهد من غزاتها وبين موقف انجلترة لوجدنا أن الغزاة « الانجلو ساكسون » والدانمركيين قد تتالوا على انجلترة . فلم يقابلوا بمقاومة كالمقاومة العنيدة الجبارة التى أبداها المصريون إلى حد أنه عندما وصلت السفن التى تقل الدانمركيين إلى نقطة من شاطىء انجلترة عام ٧٨٧ ميلادية ذهب عمدة أقرب قرية إلى تلك النقطة لاستقبالها وتقدم الدانمركيين ممتطياً صهوة جواده كأنه يؤدى واجباً وهو يجهل أنهم غزاة لبلاده . فقتلوه ![1].

١٠ – وعادت مناعة المصريين تظهر فى عهود الدولة الطولونية (٨٧٠ – ٩٠٥) والدولة الاخشيدية (٩٣٥ – ٩٦٩) والدولة الفاطمية (٩٦٩ – ١١٧١) والدولة الايوبية (١١٧١ – ١٢٥٠) ودولة المماليك البحرية (١٢٥٠ – ١٣٨٢) ودولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢–١٥١٧) فامتدت حدود مصر المستقلة ذات السيادة الكاملة إلى مداها الطبيعى أى جبال طوروس شمالا ونهر الفرات شرقا وقد حدث أثناء عهد دولة المماليك البحرية أن ثارت قبائل الاسماعيليين على الحكم المصرى وعمد الصليبيون إلى محالفتها فرأى الظاهر بيبرس أن يستدعيهم للاقامة بمصر وكأنه كان واثقا

---

(١) A. Maurois : Histoire d' Angleterre P.63

من المناعة التاريخية العتيدة التى اختص بها الشعب المصرى وهى مناعة الاحتفاظ دائماً بالقومية المصرية والقدرة على إفناء كل دخيل فيها . إذ أن تلك القبائل لم تلبث أن امتزجت بالمصريين وضاع خبرها [١] .

وقد رأى الأدب العربى عصراً من أزهى عصوره فى دولتى المماليك البحرية والجراكسة بل أن التاريخ يشهد بأن مصر قد حمت ذلك الأدب العربى من الفناء بايواء المضطهدين من المشتغلين به الذين لجأوا اليها من العراق وسوريا وغيرهما . ويكفى للدلالة على أن قومية المصريين قد أفنت فيها عناصر المماليك الدخيلة أن امراء أولئك المماليك — وهم من أصل تركى — قد شجعوا الأدب العربى والعلماء المصريين . ففى تينك الدولتين عاش بمصر وأنتج عشرات من أئمة الأدب العربى . كالبوصيرى صاحب « البرده » والقلقشندى صاحب «صبح الأعشى» وشمس الدين السخاوى صاحب « الضوء اللامع » وابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » والمقريزى صاحب « الخطط » وأبى الفداء صاحب « تقويم البلدان » والدميرى صاحب « حياة الحيوان »

وقد لجأ إلى مصر فى عهدى تينك الدولتين الامام ابن تيميه وابن قيم الجوزية . وابن خلدون [٢]

فاذا قارنا بين ما جرى بمصر فى تلك الفتره وما جرى بانجلتره لوجدنا أن الدانمركيين الذين غزوا شرق انجيليا فى الجزائر البريطانية وجدوا حضارة

---

(١) هنــد اسكندر عمون — « تاريخ مصر » ص ١٠٤

(٢) عبد الرحمن الرافعى — « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » الجزء الأول ص ٤٥

انتقلت إلى تلك الجزائر من القارة الأوروبية لم تنبت نباتاً طيباً فأثروا فيها تأثيراً كبيراً . بينما الدانمركيون الذين ظلوا فى نورمانديا بفرنسا عندماوجدوا روما على مرأى من فرنسا تأثروا بالروح اللاتينية . فلما تولى جويوم ابن السفاح دوقية نورماندى فكر فى غزو انجلترا . وكان صاحب الحق فى ذلك التاج الملك ادوارد المعروف بادوارد الساذج والوريث الوحيد له هو هارولد فلما مات ادوارد انتخب هارولد ملكا لانجلتره وطالب جويوم بالتاج الانجليزى فأيده البابا وأخذ النورمانديون يستعدون لغزو انجلتره ولم يستدع الأمر أكثر من معركة واحدة فى الطريق بين لندن وهاستنجز تفوق فيها الانجليز بادىء الأمر فحارب جويوم وهو يتقهقر ثم تغلب عليهم وقتل هارولد وحاصر جويوم لندن و بدلا من أن يعلن نفسه ملكا انتظر إلى أن عرض عليه التاج فتظاهر بالتردد وفى عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ توج الدوق النورماندى الغازى ملكا على انجلتره فى كنيسة وستمنستر !

وقد طبع النورمانديون الفرنسيون بطابعهم الخاص معظم المؤسسات التى تمتاز بها انجلتره إلى اليوم [(١)]

١١ — وعادت مناعة المصريين وقوة مقاومتهم للغزاه تظهر بعد فتح العثمانيين لمصر فقد ثاروا فى عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) عندما أمر السلطان بتعيين على باشا والياً على مصر بدلا من مصطفى باشا الذى كان المصريون يحبونه وأرغموا على باشا على العودة إلى الإستانة . ولم يمكنوه من دخول القاهره . فلم يجد السلطان بدأ من النزول على إرادة المصريين و إبقاء مصطفى باشا

(١) A. Maurois : Histoire d'Angleterre P. 80—90

فاذا قارنا بين هذه الرجولة التى كانت تبدو فى موقف المصريين خلال ذلك العصر وبين ما كان يحدث فى أرقى الدول الأوروبية الحالية كانجلتره لوجدنا أنه منذ الغزو النورماندى لانجلتره عام ١٠٦٦ لم يتوج على انجلتره ملك واحد يجرى فى عروقه دم انجليزى صميم حتى وليت الملكة اليزابيث عام ١٥٨٨ أى أن انجلتره ظلت محكومة بملوك أجانب خلال خمسمائة عام وليس هذا الكتاب مجالا للاسهاب فى شرح الاضطراب السياسى والتعصب الدينى والفوضى التى كانت سائدة فى أنظمة الحكم بانجلتره وقتئذ ولكن يكفى أن أسوق دليلا واحداً على الفرق بين نظام الحكم فى مصر ونظامه فى انجلتره فى عصر واحد هو عصر تولى الملكة اليزابيث حكم انجلترة وتولى الملكة مارى ستيورات حكم اسكتلنده. فقد تلقت مارى ستيورات تعليمها بفرنسا لأن أمها هى إحدى أميرات بيت « جيز » الفرنسى فلما تولت حكم اسكتلنده ـ وكانت كاثوليكية ـ بدأت الثورات تنشب من المنتمين إلى المذهب البروتستانتى وكانت هذه الثورات تؤيدها اليزابيث ملكة انجلتره وقد بلغ تعصب رجال المذهب البروتستانتى ضد الملكة الكاثوليكية إلى حد أن أحد زعمائهم وهو ـ جون نوكس ـ نشر كتاباً أسماه « أول دقة على الطبلة ضد حكومة النساء الشيطانية »[1] فكانت الخلافات السياسية بين الملكتين توحى بها وتؤثر عليها عواطف الغيرة بينهما ، وبلغ من الفساد فى بلاط الملكة مارى ستيورات أنها رغم زواجها من الأمير Darnley أحد سلالة آل تيودور مثلها تدلهت حباً فى موسيقار إيطالى يدعى David Rizzio فتآمر

---

(١) John Knox : The First Blast of the Trumpet against the monstruous Regiment of Women.

نبلاء البلاط مع دارنلى على قتل ذلك الايطالى وهو يتناول العشاء مع الملكة و بعد ذلك بثلاثة أشهر رزقت بطفل أصبح فيما بعد جاك السادس ملك اسكتلنده وجاك الأول ملك انجلتره وقيل إنه ابن ريزيو ثم تآمرت مارى على قتل زوجها فثار الشعب وقبض عليها وزج بها إلى السجن فى ادنبره والجنود يصيحون « احرقوا العاهرة ! » و بعد أن حوكمت قضى عليها بالاعدام فقال ابنها جاك ـ الذى لم ينس أن تنفيذ حكم الاعدام فيها سيجلسه على عرش انجلتره ـ « إن دينى كان يدفعنى دائماً إلى كره سلوكها » وقد نفذ حكم الاعدام فعلا فى ٨ فبراير عام ١٥٨٧

وما حدث فى بلاط ملكة اسكتلنده كان يحدث مثيله فى بلاط اليزابيث ملكة انجلتره فانها اصطفت كونت ايسيكس لرشاقته وتدلهت فى حبه . فكان يقسو عليها و يعاملها معاملة جافة . وطلب منها أن تعينه قائداً للحملة التى أرسلت لاخضاع الثورة الأرلندية عام ١٥٩٤ فخان واجبه كقائد وفكر فى أن يعود بجنوده لخلع الملكة (١) .

١٢ — وتجلت مناعة المصريين وقدرتهم على إفناء كل شعب دخيل فى قوميتهم فى أواخر عهد العثمانيين بمصر . فان أهم الفرق العسكرية التى كان الاحتلال العثمانى يعتمد عليها كانت فرقة الانكشارية . فكان قائد هذه الفرقة هو قائد عام الحامية العسكرية العثمانية بمصر ومع ذلك فان تلك الفرقة ـ كغيرها من الفرق العثمانية ـ قد انتظم فيها كثيرون من المصريين فصارت لها صبغة مصرية . وسد المصريون مع مرور الزمن الفراغ الذى حدث فى الفرق العثمانية . أما الباقون فى تلك الفرق من

---

(١) Maurois : Histoire d'Angleterre p. 361—37

العثمانيين فقد اندمجت سلالتهم فى أهل مصر [1]

ولعل الدليل القاطع على فناء تلك العناصر التى تنتمى إلى أصل تركى فى القومية المصرية هو موقف على بك الكبير — وهو مملوك — من الدولة العثمانية عام ١٧٦٨ عندما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا فقد أعلن استقلال مصر وعزل الوالى التركى وامتنع عن دفع الخراج ولم يكن ما فعله على بك الكبير بدعة فقد كان العثمانيون منذ دخولهم يشعرون بتفوق المصريين عليهم فى كثير من مظاهر الحضارة حتى أن السلطان سليم — بعد أن تم له غزو مصر — جمع رؤساء الصناعات المصريين ونقلهم إلى الاستانة ليعلموا الأتراك الحرف التى نبغوا فيها بمصر [2]

والمؤرخون الذين توفروا على دراسة تاريخ ذلك العصر مجمعون على أن مصر ، وإن اعتبرت من وجهة النظر القانونية ولاية تابعة للامبراطورية التركية ، إلا أنها فى الواقع كانت مستقلة يحكمها نفر من مغتصبى السلطة [3]

١٣ — وقد بدأت مقاومة المصريين للغزاة . وبدأ اصرارهم على الاحتفاظ بسيادتهم يتخذان شكلا عصرياً منذ غزو فرنسا بقيادة نابوليون بونابارت لمصر عام ١٧٩٨ . وموقف المصريين من الحملة الفرنسية هو بدء الصراع الوطنى الحالى لاستكمال استقلال مصر وهو وثيق الصلة بالتطورات التى مرت بها الحركة الوطنية المصرية بعد ذلك .

وقد فطن بونابارت الى ماسوف تصادفه قواته من مقاومة المصريين فأصدر بمجرد وصوله الى الاسكندرية منشوراً كان قد طبعه على ظهر الباخرة

(١) عبد الرحمن الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » الجزء الأول — ص ١٤

(٢) المرجع السابق ص ٤٣

(٣) Roux, . Charles Roux : Bonaparte Governer of Egypt P. 18
هو اكبر ثقة فى تاريخ نابوليون

Orient احدى بواخر الغزو باللغة العربية ذكر فيه :

«أيها المشائخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى روما وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين »[1] .

ورغم هذا التملق الظاهر للمصريين فان الفرنسيين قد قوبلوا منذ وطئت أقدامهم أرض مصر بمقاومة شديدة .

فقد بدأ نزول القوات الفرنسية الى البر بجهة العجمى غرب الاسكندرية فى مساء ٢ يوليو عام ١٧٩٨ ولكن المصريين استعدوا لمقاومة الغزاة قبل نزولهم فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود المتطوعين للقتال ويجمعون جيشاً من العرب

وقد ظل السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية يدافع عنها بعد دخول الفرنسيين الى المدينة معتصما بطابية قايتباى ومعه فريق من الجند الى أن خارت قواه ورأى المقاومة عبثاً فسلم القلعة [1]

وقد اعترف الفرنسيون بمقاومة المصريين فقرروا أن أهالى الاسكندرية دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال «مينو» بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة وأصيب الادجودان جنرال

---

(١) Charles Roux : Bonaparte Governer of Egypt P. 26. — والنص العربى منشور بالجبرتى وقد استبعدنا منه بعض الالفاظ التى ليست عربية

(٢) عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق ص ١٧٥ و ١٧٩

ايسكال Escale بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى وقتل الجنرال ماس Mas وخمسة ضباط آخرون [(١)]

وقد دارت أول معركة بين الفرنسيين والمصريين بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يوليو وكان المصريون بقيادة مراد بك فلما انهزم تراجع الى القاهرة

ولكن مقاومة المصريين للغزاة ظلت على حدتها خلف الخطوط الفرنسية . فقد حدث ان كانت إحدى الكتائب الفرنسية بقيادة الجنرال «ديموى» Dumuy مارة بمركز كفر الدوار فهاجمها المصريون وتغلبوا عليها . وتبين ديموى روح العداء التى كان يبديها المصريون فكتب فى تقريره « إنى آسف كثيراً لأنى لم أجد فى جولتى هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة الفرنسية » [(٢)]

وعاد المصريون بقيادة مراد بك فالتقوا بالفرنسيين فى مركز امبابه يوم ٢١ يوليو فلما انهزم جيش مراد بك فر الى الجيزة وترك أمر المقاومة بين يدى العناصر المصرية الصميمة التى كانت بالقاهرة . أى فى الشاطىء الشرقى للنيل

وفى نفس اليوم الذى دارت فيه معركة امبابه أصدر الجنرال كايبر الذى تركه بونابارت لقيادة الفرنسيين بالاسكندرية أمراً بالقبض على محمد كريم حاكمها الوطنى ثم أعدم يوم ٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ بعد أن رفض دفع الغرامة التى فرضها عليه الغزاة فمات شهيد بطولته . ولا شك أنه كان منظم مقاومة الغزاه وقد حملوا رأسه بعد قطعها وطافوا

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٩ من رسالة الجنرال Berthier الى وزارة الحربية الفرنسية فى ٦ يوليو سنة ١٧٩٨

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩

بها شوارع القاهره ومعها هذه الـكلمات «كريم حاكم الاسكندرية الذى أدين لأنه حنث بيمين الولاء للجمهورية الفرنسية . وهكذا سيعاقب جميع الخونة »[١]

أما فى القاهره فقد استعد أهلها لصراع الغزاه ابتداء من يوم ١٧ يوليو وبذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشىء يملكه واتجهوا جميعاً إلى بولاق فلم يبق فى القاهرة رجل لم ينتقل إلى بولاق[٢] وكان منظم المقاومة هو السيد عمر مكرم .

وقد اعترف الفرنسيون بأن نصف عدد الجيش المصرى الذى قاتلهم فى امبابه كان من الفلاحين وأنهم دافعوا دفاع الأبطال ورفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقاً[٣] مما يقطع فى الدلالة على مدى مساهمة العنصر المصرى الصميم فى المقاومة على شاطىء النيل

ولم يهدأ للفرنسيين بعد ذلك بال بل استمرت مقاومة المصريين لهم مستعرة متأججة ففى ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨ خرج فرسان قبيلة العائذ بالشرقية وهاجموا الـكتيبة التى كان يقودها الجنرال رينيه وظلت مقاومة مديرية الشرقية مستمرة الى آخر ذلك العام[٤] فاضطر نابوليون الى القبض على عبد الرحمن أباظه أخ سليمان أباظه زعيم عرب العبايدة .

ورغم تلك المقاومة العنيدة فان نابليون ظل يتملق المصريين فدعا

---

(١) Roux : Bonaparte Governer of Egypt. P. 28 et 50

(٢) الجبرتى — الجزء الثالث

(٣) Berthier : Relation des Campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie

(٤) Roux — المرجع السابق ، ص ٤٨

الى إنشاء الديوان العــام . ورأى تأليفه من ثلاثة من العلمــاء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى عن كل مديرية ومحافظة وقد اجتمع ذلك الديوان يوم ٥ أكتوبر عام ١٧٩٨ وافتتحه نابوليون بخطاب قال فيه

« ان مصر بلاد لانظير لها وهى أخصب البلاد . وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخــذت عن أجداد مصر الأول »[١]. وقد أختير الشيخ الشرقاوى بالانتخاب السرى رئيساً للديوان ولــكنه ظل مواليا لحركة المقاومة التى نظمها المصريون ضد الغزاة . إلى حد أن نابوليون استدعاه يوم أول سبتمبر عام ١٧٩٨ ووضع بيــده وساماً فرنسيا على كتفه فلم يكن من الشيخ الشرقاوى إلا أن ألقى به إلى الأرض واستقال من رئاسة الديوان العام رافضاً الوسام الفرنسى وآبياً التعاون مع الغاصب[٢] مما اضطر نابليون إلى إلغاء الأمر الصادر بوجوب وضع ذلك الوسام

وثارت القاهرة فى يوم ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ — وهو نفس اليوم الذى هاجم فيه أهل مديرية الشرقية قوات الجنرال رينييه ممـا يدل على تنظيم حركة المقــاومة — وكانت الدعوة الى الثورة تختلط علناً بآذان المؤذنين فى المساجد فيدعون إلى الله والى الثورة على المــآذن صباح مساء »[٣]

(١) عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق . ص ١٠٦ و ١٠٧

(٢) وافق Roux فى كتابه Bonaparte : Governer of Egypt على هذه الرواية وان ذكر أن الجبرتى أضفى طابعاً مسرحيا عليها وأضاف Roux إليها أن الشيخ السادات قبل الوسام من نابليون وألقاه بعد خروجه — ص ٦٦

(٣) De la Jonquière : L'Expédition d'Egypte

وكان الجامع الأزهر هو مركز الثوره فهاجم المصريون الفرنسيين و وضعوا المتاريس فى الطرق وعينوا حراساً على بابى المدينة الرئيسيين وهما باب الفتوح و باب النصر وحاولوا قطع المواصلات بين النقط المحصنة التى يحتلها الفرنسيون . وقد قتل فى اليوم الأول الجنرال Dupuy قائد حامية القاهره وقتل فى اليوم الثانى — أى يوم ٢٢ اكتوبر — الكولونيل Sulkowski ياور نابوليون الخاص (١)

ولما استعمل الفرنسيون منتهى العنف قمعت ثوره القاهرة وقبض على المشائخ اسماعيل البراوى و يوسف المصيلحى وعبد الوهاب الشبراوى وسليمان الجوسقى وحكم باعدامهم ونفذحكم الاعدام يوم ٤ نوفمبر عام ١٧٩٨

وظلت مقاومة المصريين مستمرة رغم قمع ثوره القاهره . فقد كتب نابوليون فى ١٣ ديسمبر عام ١٧٩٨ يقول إنه اعتقل الشيخ سليمان الشوار بى لأنه اتهمه بأنه كان يحرض أهالى مديرية القليوبية على الثوره أثناء تأججها فى القاهره وقد أعدم فعلا فى ميدان الرميلة

وامتدت الثورة الى مديرية المنوفية فهجم الأهالى على الضابط Julien ياور نابوليون فقتلوه وقتلوا معه خمسة عشر جنديا فرنسيا فكان عقاب القرية إحراقها حتى لم يبق فيها بيت قائم (٢)

وهاجم أهل المنوفية الجنرال Fugières فلم يستطع أن يخمد الثوره إلا بعد عناء شديد . وقد اشتركت النساء المصريات فى ثوره المنوفية وكن يهاجمن الجنود الفرنسيين بكل شجاعة

---

(١) Roux — المرجع السابق — ص ١٨٥

(٢) Roux — المرجع السابق — ص ٤٧ وقد ذكر عبد الرحمن بك الرفاعى فى كتابه أن قتل هذا الضابط حدث فى ناحية « علقام » بمركز كوم حماده استناداً إلى مراجع أخرى

وقد ظهرت أثناء تلك الثوره شخصية الزعيم « أبو شعير » الذى كان يقطن قرية « عشما » بمركز شبين الكوم والذى قاوم الجنرال لانوس Lanusse مقاومة عنيفة لم تتوقف إلا بعد قتله شهيد بطولته يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٧٩٨ . وقد اعتبر الجنرال لانوس موته نصراً باهراً واعترف فى رسالة إلى بونابرت بالخسائر التى تكبدها الفرنسيون منه .

وقامت مديرية الغربية بنصيبها فى الثورة المصرية العامة التى نشبت لطرد الفرنسيين من مصر . ففى يوم ٩ أكتوبر عام ١٧٩٨ هاجم أهلها الكتيبة التى كان يقودها الكولونيل لوفيفر وظلت المعركة دائرة بين الفريقين أربع ساعات . وقد خشى بونابارت أن يجيب طلب قواده وهو إنزال العقاب بأهل المدينة لما لها من حرمة لدى المسلمين .

واشتركت مديرية الدقهلية فى الثوره فهاجموا الفرنسيين فى يوم ١٠ أغسطس عام ١٧٩٨ . وكان عدد الجنود الفرنسيين مائة وعشرين فلم يبق منهم حياً إلا جندى واحد

وتزعم حسن طوبار شيخ بلدة المنزلة حركة المقاومة فى دمياط وكان نفوذه يعود إلى سيطرته على صيادى الأسماك فى تلك المنطقة الذين كانوا يملكون نحو خمسمائة مركب . وقد هاجم الحامية الفرنسية بهذا الأسطول ليلة ١٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ فرسا فى « غيط النصارى » شرق دمياط . وقد بلغ من شدة هذا الهجوم المصرى وتنظيمه أن الجنرال Andreossi كتب إلى بونابارت يقول إن نظام المصريين العسكرى يجعله يميل إلى تصديق ما كان قد ذاع من قبل عن قرب وصول مدد من سوريا إلى حسن طوبار .

وما حدث فى الوجه البحرى — وسقناه على سبيل المثال على مقاومة

المصريين العنيـدة للفرنسيين — حدث مثله فى كل مديرية . وفى كل مركز . بل فى كل قرية من قرى الوجه القبلى من الجيزة إلى أسوان . حتى ذكر المؤرخون الفرنسيون أن المصريين من كل طبقة وكل لون قد دافعوا عن أرض مصر ضد الغازى ولم يكونوا يسلمون فى أى شبر من تلك الأرض إلا أمام القوة المتفوقة (١)

من هذا كله يتضح بجلاء أن سيادة مصر لم تتأثر بالغزو الفرنسى . لأن مقاومة المصريين لم تقف منذ نزل الفرنسيون أرض مصر . كما أن الظاهرة التاريخية التى بدت فى فناء الغزاة لمصر فى القومية المصرية بدت أيضاً فى فناء بونابارت فى هذه القومية . وفى اعتزامه الأخذ بالمظاهر المصرية . ففى أثناء اتصالاته اليومية بالمصريين كان يحافظ على العادات المصرية ويتبع الطريقة التى يتبعها المصريون فى حياتهم وكان يقابل زواره محافظا على قواعد السلوك المصرية فيجلس وسطهم ويتابع مناقشاتهم متغلباً على ما كان معروفا عنه من نفاد الصبر وكان يتحدث اليهم فى أسلوب مشابه لأسلوبهم . مستعيراً من لغتهم التعبيرات المميزة لهذه اللغة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن نابوليون فـكر فى أن يرتدى الثياب التى كان يرتديها المصريون إذ ذاك . وقد ارتداها فعـلا بمناسبة اعتزامه استقبال أعضاء الديوان ولـكنه عدل عن ارتدائها فيما بعد بناء على نصيحة Tallien مما يرمز إلى ميله نحو التطبع بالطابع الشرقى والتأقلم مع الجـو المصرى (٢)

---

(١) Charles Roux - P. 24 .

(٢) Roux — المرجع السابق — ص ٦٤ ، ٦٥ . وقد ذكر المؤلف أن بونابارت كان يستشير فى هذا الشأن اثنين من المستشرقين الفرنسيين هما ماجالون Magallon =

وأكثر من هذا وذاك . فقد ثبت أن بونابارت قد فكر فى اعتناق الاسلام تفكيراً جدياً . فكان يحمل معه أثناء غزوه لمصر ترجمة فرنسية للقرآن . وقد صرح بأنه لو اعتنق الدين الاسلامى فان جيشه سوف يتبعه فى اعتناق دين المصريين . وأنه لم يعقه عن تنفيذ تلك الفكرة إلا اعتراضان اثنان فقط . هما ما يحتمه الدين الاسلامى من ختان الرجال ومن تحريم شرب النبيذ . وقد بلغ اعتقاده بسمو دين المصريين إلى حد أنه وعد ببناء جامع شاسع الأرجاء بحيث يسع جميع رجال جيشه (١)

ولكن رغم هذا كله ثار المصريون على بونابارت لأنه أجنبى . وصحت نبوءة الكاتب الفرنسى فولنى Volney الذى كتب فى عام ١٧٨٨ — أى قبل الحملة الفرنسية بعشرة أعوام — يقول « لكى يستقر قرارنا فى مصر يجب أن نشن ثلاثة حروب . الأولى ضد انجلترا . والثانية ضد الباب العالى والثالثة — وهى أشد هذه الحروب الثلاثة وأصعبها — ضد المصريين من سكان مصر » واقتنع بونابارت بصحة هذا الرأى بعد أن تم له غزو مصر فكتب يقول « أن نبوءة فولنى كانت حقة فقد تطور موقفنا فى مصر إلى مشكلة عويصة . فاما أن نجلو وإما أن نسالم الآراء الدينية السائدة فى مصر لئلا نوضع بين أعداء الاسلام . والتجربة قد أثبتت أنه لكى نوضع بين أصدقاء الاسلام فانه لا يكفى أن نعلن من جانبنا صداقتنا له » (٢)

وقد ثبتت حيوية الشعب المصرى ثبوتا قاطعاً بإصراره على المقاومة رغم تغلب الفرنسيين على المصريين و إخمادهم الثورات التى قامت خلال

= وفانتور ده بارادى Venture de Paradis, كما ذكر أن واقعة ارتداء بونابارت للثياب المصرية رواها الضابط Detroye من سلاح المهندسين الملحق بقيادة الجنرال Caffarelli

(١) المرجع السابق — ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) المرجع السابق — ص٧٠ و ٧٣ .

النصف الأخير من عام ١٧٩٨ . إذ أن المصريين عادوا إلى المقاومة فى العام التالى فثارت بلدة بردين بمديرية الشرقية فى أول مارس سنة ١٧٩٩ والتحم أهلها بكتيبة من الجيش الفرنسي . وثارت بلده كفور نجم وانضمت إلى أمير الحج مصطفى بك فذهب مع أهلها إلى ميت غمر وهاجموا سفن الفرنسيين يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ . وأراد الفرنسيون الثأر من بلدة كفور نجم فالتحموا بأهلها يوم ٥ يونية سنة ١٧٩٩ ولكن المصريين انتصروا على الفرنسيين فى هذه الموقعة . والتحم المصريون بالفرنسيين فى دمنهور يوم ٢٤ أبريل سنة ١٧٩٩ فقتل المصريون جميع رجال الحامية الفرنسية وأراد الفرنسيون أن يثأروا فدارت موقعة ببلدة سنهور بمديرية البحيرة يوم ٣ مايو سنة ١٧٩٩ انتهت بانتصار المصريين .

ولم تقف مقاومة المصريين عند حد إلا بسبب توقيع معاهدة العريش فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ التى تعهد فيها الفرنسيون بالجلاء عن مصر فلما نقضوا شروط تلك المعاهدة عادت مقاومة المصريين فثارت القاهرة للمرة الثانية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ثورة امتدت إلى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ . وكان يتزعم هذه الثورة مصطفى البشتيلي . و بلغ عدد الثوار خمسين ألفاً . قاموا بالمعجزات أثناء تلك الثورة الى حد أنهم «صنعوا القنابل من حديد المساجد وفعلوا ما يصعب تصديقه ، ذلك أنهم صنعوا المدافع »[١]

و بعد هذه المقاومة العنيدة اضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن مصر نهائياً بمقتضي الاتفاقية المحررة فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١

واستقرت الحالة فى مصر بعد أن ولّى المصريون عليهم محمد على

---

(١) Martin « تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر » — وعبد الرحمن الرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » الجزء الثانى ص ١٥٦ .

والياً بإرادتهم . فاستردوا بذلك سيادتهم . رغم إرادة الدولة التى كانت — من الوجهـة النظرية — تعتبر مصر ولاية تابعة لهـا وهى الدولة العلية . ولـكنهم عادوا إلى المقاومة عندما هددت تلك السيادة بالخطر . وذلك لما اتفقت الحـكومة التركية مع الحـكومة الانجليزية على عزل محمد على باشا الذى اختاره الشعب المصرى . وكان من آثار ذلك الاتفاق تأليف جيش بقيادة محمد بك الألفى ـ أحد أمراء المماليك ـ لمحاربة محمدعلى . وقد وصل ذلك الجيش إلى دمنهور فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٦ فهب المصريون للدفاع عن سيادتهم . وحاصر جيش محمدالألفى دمنهور فأبدى أهلها أقصى ضروب الشهامة والجلد وكان دفاع أهلها وثباتهم من أهم الأسباب التى أحبطت اتفاق انجلترا وتركيا على خلع محمد على (١)

وعاد المصريون إلى المقاومة بعد فترة وجيزة بمجرد أن تبينوا أن سيادتهم معرضة للخطر . فقد حاولت انجلتره غزو مصر فاتفقت مع محمد الألفى . ونزلت الجيوش الانجليزية فى الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر ثم زحفت إلى رشيدوكان محافظها إذ ذاك على بك السلانكلى . وأسرع محمد على باشا فأرسل اليه و إلى غيره من حكام الموانى المصرية يعرض استعداده لارسال المدد ولـكن أهالى رشيد أكدوا أنهم قادرون وحدهم على ضدالغزاة وقد تغلبوا فعلا على الجيش الانجليزى الزاحف فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ فكان ذلك النصر المصرى إيذانا بفشل الحملة الانجليزية

وعاد الانجليز يحاولون التغلب على مقاومة المصريين فالتقوا بهم فى الحماد يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٠٧ وكان الانجليز بقيادة الجنرال ستيوارت

---

(١) De Vaulabelle — « مصر الحديثة » وعبد الرحمن الرافعى » : تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث ص ٣٣ .

ولكن المصريين تغلبوا فى الحماد كما تغلبوا فى رشيد . واضطر الانجليز إلى توقيع الاتفاق الذى تحرر بين الجنرال Scherbrook و بين محمد على فى دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وهو الذى تعهدوا فيه بالجلاء عن مصر .

٦ — وعاد المصريون يقاومون مقاومتهم التقليدية العنيفة لكل اعتداء على سيادتهم عندما ضرب الأسطول الانجليزى ميناء الاسكندرية بقنابله يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ و يكفى للدلالة على مبلغ استماتتهم فى هذه المقاومة ملاحظة تفوق القوات الانجليزية الغازية على قوات الجيش المصرى إذ ذاك وهى تكاد لا تقارن بالمعدات الانجليزية العصرية التى أقبل بها الأميرال بوشان سيمور ومع ذلك فان الجنود المصريين الذين كانوا مكلفين باطلاق مدافع قلاع الاسكندرية كانوا يؤدون واجبهم فى العراء دون تفكير فى الموت الذى كان يهددهم فى كل لحظة إذ لم تكن تحميهم دروع أو متاريس ومع ذلك فانهم كانوا يستمرون فى أداء واجبهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح أبطال سقطوا فى ساحة الشرف ثم بعثوا مرة أخرى ليكافحوا العدو وقد أدوا جميعاً واجبهم من جنود ورجال ونساء على أتم وجه ولم تكن تستحثهم إلا عاطفة الوطنية و إلا الحماسة التى تتأجج فى صدورهم مع أن أحداً لم يفكر فى آلامهم من قبل [1] ولعل من أروع ما تميزت به مقاومة المصريين للغزاة عام ١٨٨٢ اشتراك النساء المصريات اشتراكا فعالا فى تلك المقاومة إلى حد جعل الأجانب — وفى مقدمتهم المحامون الانجليز الذين دافعوا عن احمد عرابى باشا — يقررون أن عرابى وجد فى سيدات مصر أكبر معين على ثورته فقد ساعدنه منذ

---

(١) John Ninet : Orabi وعبد الرحمن الرافعى « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٣٦٢ .

الخطوات الأولى مساعدات قيمة وظللن يقدمن تلك المساعدة حتى بعد أن فقد آخر أمل فى انتصاره بل إن أميرات الأسرة الخديوية كن يعطفن عطفاً كبيراً على عرابى . ففى غداة يوم ضرب الاسكندرية بالقنابل أعلن فى الوقائع المصرية أن والدة الخديوى وابنته الأميرة جميلة قد تبرعتا بكثير من الجياد والعتاد والهدايا إلى جيش عرابى وتألفت عقب ذلك عدة جمعيات من السيدات المصريات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى الذين أصيبوا فى موقعة كفر الدوار والاستعداد لمواجهة المواقع التالية إلى حد الاشتراك فى الصفوف ذاتها (١)

وقد أدهشت مقاومة المصريين للغزو الانجليزى جميع الذين اتصلوا بذلك العصر عن كثب إلى حد أن أحدهم قرر أن من الصعب على الرجل الانجليزى أن يفهم كيف أن العقلية المصرية تصبح جبارة ومنتجة فى ظل الارهاب وتحت سوط العذاب أكثر من أى وقت آخر (٢)

وأخيراً عادت مقاومة المصريين تتجلى عقب إعلان الهدنة التى أعقبت الحرب العالمية الماضية عندما تبينوا أن الوعود التى قطعها ساسة الدول التى كسبت تلك الحرب بشأن حق الأمم الصغيرة فى تقرير مصيرها لن تنفذ فثاروا ثورتهم عام ١٩١٨ واستمرت تلك الثورة إلى أن صدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ من جانب انجلتره باعلان استقلال مصر فلم يرضوا به لأنه لم يحقق كل آمالهم فى السيادة الكاملة واستمرت مقاومتهم إلى أن وقعت معاهدة التحالف والصداقة مع انجلتره فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ .

هذه خلاصة موجزة للفترات التاريخية التى تجلت فيها مقاومة المصريين

---

(١) Broadly : How we defended Orobi ترجمة مجلة « الجامعة » العدد ٣٤٦ الصادر فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٨ .

(٢) Broadly — المرجع السابق — ترجمة مجلة « الجامعة » العدد ٣٤٨ الصادر فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ .

للغزاة الذين مروا بوطنهم . تقطع فى الدلاله على أن مصر لم تكن — على خلاف الخرافة الذائعة — مستعمرة فى أية مرحلة من مراحل تاريخها — إلا فى عصر الرومان — وعلى أن المصرى لم يحن هامته ، ولم يقبل الضيم ، ولم يرض بذل الاستعمار ، ولم يقبل أن تمس سيادته على أرضه طوال تاريخه المجيد[1] ولعل خير رد على الذين يتبرأون من مصريتهم هو رد البارون شتاين Stein المفكر الألمانى على قيصرة روسيا بعد تقهقر نابليون من روسيا فقد حدث عقب ذلك التقهقر أن قالت القيصرة — وهى من أصل ألمانى إذ ولدت فى وايتمبرج — بعد العشاء فى قصرها بسان بطرسبرج « الآن إذا تمكن جندى فرنسى واحد من أن يتخطى الحدود الألمانية فاننى سأخجل من أن أسمى ألمانية » فنهض البارون شتاين واحمر وجهه حتى صبغت الحمرة عنقه وانحنى ثم قال « إن جلالتكم قد ظلمتم ظلماً عظيما بالتفوه بمثل هذه الألفاظ عن شعب عريق وفى وشجاع لكم الشرف فى أن تنتسبوا إليه كان يجب أن تقولوا « إننى لست خجولة من الشعب الألمانى بل من إخوتى وأبناء أعمامى الأمراء الألمان : فلو أنهم أدوا واجبهم لما استطاع جندى فرنسى واحد أن يصل إلى نهر الألب أو الأودر ، ولما استطاع بالتالى أن يعبر نهر الدنيستر »[2]

فالمصرى لم يقصر قط فى أداء واجبه على مدى التاريخ . وإنما الذى قصر فى أداء ذلك الواجب أحيانا هم بعض قادته . وهذا ما سوف نتلافاه فى البرنامج الذى نعرضه فى هذا الكتاب .

---

(١) من الباحثين المصريين الذين تنبهوا إلى هذه الحقيقة التاريخية المرحوم اليوزباشى حسن على الأضليجى من سلاح المهندسين الملكى المصرى فى دراسة له عن « البحر الأبيض المتوسط » بمجلة « الجيش المصرى » العدد الرابع المجلد الثالث ص ٥٣٣ .

(٢) Emile Ludwig : Genius and Character من دراسة عن Stein .

مصر والأقطار العربية

دولة واحدة وجنسية واحدة وجيش واحد

المراجع الاجنبية

E. de Cadalvène et v. Barreault: Histoire de la guerre de Mehemed Ali contre la Porte Ottomane.

Georges Douin : La Massion du Baron de Boislecomte

Weygand : Histoire Militaire de Mohamed Ali et de ses fils.

Sir Samuel Baker : Ismailia.

Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues.

Junker : Voyage en Africa.

Paton : A History of the Egyptian Revolution

Paulitschke : Le Harar sous l'administration égyptienne.

Mostafa Amer : Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar.

المراجع العربية

الدكتور حسن كمال : مصر والسودان

احمد باشا كمال : الحضارة القديمة

محمد كرد على : خطط الشام

الدكتور ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان

فؤاد صروف : اسماعيل المفترى عليه : « ترجمة عن بيير كرابيتس »

عزيز خانكى : الذكرى المئوية لواقعة نزيب

الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء

الدكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية

حسين رشدى باشا : بحث فى حالة السودان

عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية

الدكتور عبد الرحمن شهبندر : الامبراطورية العربية : هل يقدر لها العودة إلى الوجود ؟

الدكتور يوسف قابيل : التطبيق القانونى للحلف العربى الممكن

الدكتور يوسف هيكل : نحو الوحدة العربية

دينيس ريفوير : العرب الحقيقيون فى بلادهم

والمراجع الأخرى المشار إليها فى بابى « أهداف العمل لمصر » و « مصر مقبرة الغزاة » .

من الحقائق التاريخية المستندة إلى اعتبارات جغرافية وطبيعية ثابتة أن الشعوب التي تقطن شرق البحر الأبيض المتوسط والتي تسكن على شاطىء البحر الأحمر كانت تتجانس دائما فلا تفرق بينها إلا اعتبارات مفتعلة تعتدى على الرغبة الغريزية الكامنة بنفوس تلك الشعوب في التقارب بل الاندماج . . فالحيز من الأرض الذى تشغله سوريا — وقد كان إلى عهد قريب يشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن — ليس منفصلا من الوجهة الجغرافية الفنية — عن أفريقيا ، بل أنه يتبع المنطقة الجغرافية الشاسعة التي يبلغ طولها أكثر من خمسة آلاف كيلو متر والتي تبدأ من شمال نهر زمبيزى . وبحيرة « نياسا » . فسهول أفريقيا الوسطى تنتهى فى الواقع عند شمال سوريا . أى عند سلسلة جبال طوروس [1] ، فلا توجد حواجز جغرافية تفصل بين المنطقة الواقعة عند منابع النيل فى أفريقيا والممتدة إلى جبال طوروس فى شمال سوريا.

والتوافق بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط — وهو داخل فى المنطقة الجغرافية نفسها – يبدو واضحاً فى وحدة المناخ وهذه الوحدة فى المناخ تؤثر فى الحالة الاجتماعية للأفراد وفى الأعمال التي يزاولونها . وفى تكوين خلقهم أكثر من تأثير الأوضاع الجغرافية. فهى تحدد مدى خصوبة أرضه وطبيعة محصولاته الزراعية . وهذا التوافق بين هذه الشعوب المتجاورة المتجانسة ، لا يقف فى سبيله اختلاف الدين . فالى يومنا هذا نلاحظ أن مسيحيى الشرق الأدنى أقرب إلى مسلميه فى عقليتهم وأنظمتهم

(١) Larouse Mensuel — كلمة Syrie ص٩٥٦ العدد ١٥٣ — نوفمبر ١٩١٩

الاجتماعية منهم إلى مسيحيي الغرب [١]

ولقد رأت السياسة الاستعمارية أن تنشىء سيطرتها على الشرق وطرق مواصلاته بوضع الشاطىء الممتد من حدود مصر الغربية إلى الاسكندرونة تحت رقابتها المباشرة وتقسيمه إلى دول صغيرة حيث ركزت تلك السياسة الاستعمارية سيطرتها بالتحيز للأقليات فناصرت اليهود فى فلسطين . والمارونيين فى لبنان والأتراك فى سنجق الاسكندرونة . وتركت للمسلمين الأرض الملاصقة للصحراء فقط ! [٢]

ولكن هذا التقسيم المفتعل لهذا الجزء من العالم لم يلق نجاحاً قط . فان خلق دول صغيرة مواردها لا تكفى لكى تقف وحدها على ساقيها فى أسرة الدول . وعدد سكانها من القلة بحيث لا يمكنها من المساهمة وحدها فى النشاط العالمى . معناه الحكم على تلك الدول الناشئة بالضعف خصوصاً إذا تبينا أن كل دولة منها لا تشعر بالمبرر الجغرافى - أو التاريخى . أو الجنسى لفصلها عن شقيقتها المجاورة لها . التى تتكلم نفس لغتها . وتنتسب إلى نفس الجنس الذى تنتسب هى اليه . وتدين أغلبية شعبها بنفس الدين الذى تدين به هى .

ولقد حملت مصر — على مدى عصور التاريخ المختلفة — رسالة إقرار الوضع الطبيعى المنطقى السليم الذى يحتم جمع كل هذه الشعوب المتجاورة المتجانسة تحت لواء وحدة سياسية لا تنفصم عراها . وفطنت مصر منذ أقدم عصور التاريخ إلى أن سلامة هذا الجزء من العالم لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كان البحر الأحمر بحيرة مصريه .

---

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East P. 36 .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

١ — ففى عصر ملوك طيبة (٣١٩٧ — ٢٧٧٨ قبل الميلاد) غزا ملوك الأسرة الأولى بلاد النوبة فأثبتوا أن المصرى الأول كان يؤمن بوجوب الاتجاه جنوباً إلى منابع النيل لضمان سلامته

وفى عهد الدولة القديمة (٢٧٧٨ — ٢٤٢٣ ق م) غزا الملك زوسر بلاد النوبة وتجاوز الشلال الأول جنوباً وغزا الملك سنفرو سوريا — المعروفة وقتئذ بفينيقيا — فكان أول مصرى فطن الى الحدود الطبيعية الشمالية لهذه المنطقة المكونة من مصر وسوريا. وأغار هو الاخر على النوبة جنوباً[١]. وغزا الملك سحورع بالأسطول الذى بناه — وكانت به مصر أول دولة بحرية فى التاريخ — شاطىء سوريا. كما غزا الصومال.

وفى عهد الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ — ١٧٨٥ ق. م) غزا الملك سنوسرت الأول السودان ووصل الى مابعد الشلال الثانى. وهناك من يقول إن حدود مصر قد امتدت فى عهد هذه الأسرة إلى ماوراء الخرطوم وإن المصريين أنشأوا عند التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق مملكة مصرية[٢] وجابت رسل هذه الأسرة فلسطين وسوريا. كما أن الملك سنوسرت الثالث وصل بجيوشه إلى شمال بيت المقدس وغزا الجزء الجنوبى من سوريا

وفى عهد الدولة الحديثة (١٥٨٠ — ١٠٨٥ ق.م) تابع أمنحتب الأول سياسة مصر التقليدية فوصل بالجيوش المصرية إلى ماوراء وادى حلفا وفتح سوريا. كما أن تحوتمس الأول وصل الى منطقة البحيرات التى ينبع

---

(١) حسن كمال — مصر والسودان مجلة « المقتطف » عدد ابريل ١٩٣٦ — وقد ذكر أن « أقدم رواية تاريخية وردت عن اخضاع المصريين للسودان مدونة فى حجر بالرموز ».

(٢) أحمد كمال « الحضارة القديمة » ص ٣٣٧.

منها النيل[1] وعبر جبال لبنان و بلغ نهر الفرات . وقام تحوتمس الثالث بسبع عشرة حملة شيد بها الامبراطورية المصرية ، وهى أقدم امبراطورية عرفها التاريخ ، حوالى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد فوصل إلى جبال طوروس شمالا ونهر الفرات شرقاً والشلال الخامس جنوباً ، وقد فعل ذلك لا رغبة فى الغزو والاستعمار وإنما لأنه تبين — كما تبين غيره من فراعنة مصر — أن سلامة وادى النيل تحتم تحصين منطقةفى سوريا وكنعان وإنشاء « رأس جسر » tête de bont فى مدخل طريق الغزو بولاية حلب بين نهرى الفرات وأورونت كما تحتم موالاة إرسال جيوشهم إلى ماوراء برزخ السويس[2] .

ووصلت الجيوش المصرية فى عهد سيتى الأول إلى فلسطين وسوريا وضم رمسيس الثانى ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى إلى مصر ووصل الى بيروت ونقش على صخر يطل على نهر الكلب مايدل على ذلك .

وفى العصر الصاوى استخدم نخاو الثانى الفينيقيين فى الأسطول المصرى فأبحر هذا الأسطول من ساحل البحر الأحمر ومر بالصومال وكينيا وغزا الملك إيريس سوريا بطريق البحر . واستولى على صيدا بعد معركة بحرية وخضعت له صور وعاذت لبنان وسوريا تكونان وحدة سياسية

---

(١) Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues ، ويذكر الدكتور حسن كمال فى المرجع السابق أن تحوتمس الأول كان يلقب فى عهد أبيه أمنحتب الأول باسم أمير « كوش » وهو الاقليم الواقع جنوب وادى حلفا .

(٢) Alexandre Moret : L'Egypte pharaonique من سلسلة Histoire de la nation Egyptienne لجبريل هانوتو ، وقد ذكر فى هذا المرجع أن شهامة المصريين قد حتمهم من غزوات الأمم الهمجية التى كانت تفكر فى غزو مصر من الشرق وأن المصريين قد نشروا حضارتهم فى أصقاع آسيا التى ضموها .

مع مصر . وفى عهد البطالمة (٣٢٣—٣٠ ق . م) تابع ملوكهم نفس سياسة الفراعنة وأدركوا أن الشرق الأدنى لن يكون آمناً إلا بادخال فلسطين وسواحل سوريا فى حدود واحدة .

٢ — وبعد دخول الإسلام إلى مصر تابع حكامها نفس السياسة التقليدية . ففى عهد الدولة الطولونية (٨٧٠— ٩٠٥ ميلادية) سار احمد ابن طولون إلى سوريا ووصل الى دمشق وحمص ولم يقف إلا عند الحدود الطبيعية وهى جبال طوروس . وامتدت رقعة الحدود إلى نهر الفرات شرقاً. وفى عهد أبى الجيش خمارويه حاول عمال الخليفة العباسى فى سوريا نزعها وإعادتها الى سيطرة الخليفة الموفق فخرج القائد المصرى سعد الأعسر وتغلب على ابن الموفق ولم يقف بالجيوش المصرية إلا عند جبال طوروس .

ولما تمرد سعداً الأعسر وأعلن استقلاله بسوريا خرج خمارويه إلى سوريا وهزم سعداً وقتله ودخل دمشق عام ٨٨٦ . ولما أراد ابن أبى ساج حاكم الأنبار الانفصال عن مصر واجتياح سوريا مشى اليه خمارويه بجيش قوى وقاتله بجوار دمشق وهزمه ثم أجلاه عن سوريا فعادت جزءاً من دولة واحدة مكونة من مصر وسوريا .

٣ — وفى عهد الدولة الاخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩) خرج أبو بكر محمد الاخشيد لمحاربة محمد بن رائق والى فلسطين من قبل الخليفة الراضى بالله أبو العباس بن المقتدر وهزمه فى معركتى العريش واللجون على مقربة من طبرية وانتهت الحرب بامتداد الحدود إلى الرملة ولما اتصل بأبى بكر الاخشيد أن سيف الدولة الحمدانى استولى على حلب أرسل اليه جيشاً بقيادة أبى المسك كافور فلما انهزم أبى المسك سار أبو بكر نفسه فى جيش آخر وعقد الصلح بينه وبين سيف الدولة على أن تكون البلاد من حمص

إلى حدود جزيرة العرب وحدة سياسية تتبع سيادة واحده .

ولما تولى أنوجور أبو القاسم خرج أبو المسك كافور على رأس جيش مصرى لمحاربة سيف الدولة الحمدانى الذى كان قد استولى على دمشق فأجلاه عنها واستولى المصريون على حلب وطرسوس .

ولما تولى أبو المسك كافور دعى له على منابر المساجد فى مصر والحجاز وسوريا .

٤ — وفى عهد الدولة الفاطميه (٩٦٩ — ١١٧١) خضع الأمير الحمدانى حاكم سوريا الشمالية لسيادة المعز لدين الله حاكم مصر . ولما قاوم الاخشيديون الحكم المصرى فى سوريا الجنوبية . مشي اليها الجيش المصرى وضم دمشق وما جاورها . وخرجت الجيوش المصرية مرة أخرى إلى سوريا فضمت بيروت وعادت سوريا جزءاً يتمم دولة واحدة مكونة منها ومن مصر ولما تولى العزيز بالله بن المعز أقيمت له الدعوة فى اليمن والحجاز .

ولما تولى الظاهر بن الحاكم بأمرالله سار الجيش المصرى إلى فلسطين وسوريا وأعادهما إلى الدولة المكونة منهما ومن مصر .

ولما تولى المستنصر استرجع الجيش المصرى دمشق وضم سائر بلاد سوريا الشمالية .

٥ — وفى عهد الدولة الأيوبية (١١٧١ — ١٢٥٠) سار صلاح الدين يوسف الأيوبى بالجيوش المصرية إلى دمشق فضمها ثم تابع السير إلى حمص وحماه وحلب . وعاد بعد ذلك فانتصر على ملك أورشليم فى مرج عيون فى الوقت الذى كان الأسطول المصرى يقاتل أمام شواطىء فلسطين وتبين أن رقعة الحدود الطبيعية لهذه المنطقة من الشرق الادنى

يجب أن تشمل بلاد العرب فوجه الجيوش المصرية إلى والى الكرك وأجلاه عن بلاد العرب .

وعاد بعد ذلك ففتح القدس وضم جميع ثغور سوريا ثم ضم بلاد اليمن فأصبحت جميعها مع مصر دولة واحدة

ولما تولى الصالح بن الكامل نجم الدين أيوب أعيدت مكة وأعيدت اليمن إلى الحدود الطبيعية لدولة مصرية واحدة لا تتجزأ

٦ — وفى عهد دولة المماليك البحرية « ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ » استطاع المعز أيبك التركمانى حاكم مصر أن يحتفظ بفلسطين — غرب نهر الأردن — مع مصر كجزأين من دولة واحدة كما استطاع الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس البندقدارى أن يصبح زعيم الإسلام شرعاً وفعلا .

وقد تابع بيبرس سياسة مصر التقليدية فضم النوبة وسواكن إلى الحدود المصرية ، كما أن فلسطين وسوريا عادتا فأصبحتا مع مصر أجزاء لا تنفصل من دولة واحدة ولم يبق إلا حماه فى يد الأيوبيين

ولما تولى المنصور سيف الدين قلاوون الألفى ثار أحد أمراء المماليك فى دمشق وأعانه بدو الصحارى فهزمهم قلاوون واستعاد دمشق

ولما تولى الأشرف صلاح الدين خليل حكم مصر فتح عكا ورجع إلى دمشق وزحف من طريق حلب لى قلعة الروم وفتحها ثم عاد الى مصر وتأهب لغزو اليمن .

ولما تولى الناصر محمد بن قلاوون خرج الجيش المصرى الى سوريا وهزم جيوش التتر التى كانت قد استولت عليها وعدت مع مصر دولة واحدة

ولما تولى المنصور علاء الدين على ثار التركمان الذين كانت مصر قد عهدت اليهم بحراسة حدود سوريا الشمالية فخرج الجيش المصرى وأخضعهم.

وظلت حدود هذه الدولة ممتدة الى جبال طوروس .

٧ — وفى عهد دولة المماليك الجراكسة « ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ » سار المؤيد أبو النصر المحمودى لاخضاع أمراء التركمان على حدود سوريا الشمالية وضربت النقود هناك باسمه . ولما عادوا الى الثورة خرج ابنه ابراهيم على رأس الجيش المصرى وأخضعهم

ولما تولى قانصوه الغورى الأشرفى بنت مصر اسطولا بحريا حارب مراكب البرتغال فى البحر الأحمر وهزمها . وكان أمراء المسلمين فى الهند وبلاد العرب قد استنجدوا بالغورى — سلطان مصر — لحمايتهم من اعتداء السفن البرتغالية التى كانت ترغم تجار الهند والصين على توريد بضائعهم الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى اكتشفه فاسكوده جاما بعد أن كانوا يوردونها الى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن وكان البرتغاليون يقبضون على السفن التى تدخل البحر الأحمر . وبذلك يقطعون موردا ماليا هاما من موارد الموانى الحجازية والمصرية فهب الأسطول المصرى لنجدة أولئك التجار المسلمين ـ رغم بعد الشقة بين مصر وبين بلادهم — وظل القتال مستمرا بين مصر والبرتغال الى أن فقدت مصر سيطرتها على البحر الأحمر فقضى على تجارتها مع الهند

٨ — وفى عهد الدولة العثمانية بمصر « ١٥١٧ — ١٧٩٨ » لم يكد على بك الكاشف المعروف بعلى بك الكبير يعلن استقلال مصر حتى سيّر جيشا لضم اليمن ثم ضم سائر شبه جزيرة العرب فأصبحتا مع مصر دولة واحدة لافارق بينهما

٩ — وفى تاريخ مصر الحديث ، بعد انتخاب محمد على باشا واليا على مصر بارادة الشعب المصرى ، تابعت مصر سياستها التاريخية فى الامتداد ،

الى الحدود الطبيعية . فبدأ محمد على بارسال الجيش المصرى الى الحجاز لاخضاع الوهابيين ففتح مكة فى يناير سنة ١٨١٣ ثم هدأت الحرب فى الحجاز فترة وعادت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا ففتحت الدرعية عاصمة الوهابيين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ وبذلك أصبح الحجاز ونجد ومصر دولة واحدة

وقد أحس محمد على بما أحس به حكام مصر منذ تحوتمس الأول وهو وجوب جعل وادى النيل من منبعه إلى مصبه وحدة سياسية . فسير الجيش المصرى بقيادة ثالث أبنائه الأمير اسماعيل ففتح بربر فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ وفتح سنار فى ١٢ يونيو من نفس السنة . وكان جزء آخر من الجيش المصرى بقيادة محمد بك الدفتردار — صهر محمد على باشا — قد تغلب على سلطان دارفور ودخل الأبيض فى ابريل من نفس السنة واستمر الجيش المصرى بقيادة الأمير اسماعيل فى زحفه فاستولى على فازوغلى فى يناير سنة ١٨٢٢ . وقد بذلت مصر تضحيات جسيمة فى تلك الحرب واستشهد الأمير اسماعيل فى شندى إذ أحرق غدراً فى قصر ملك « شندى »

وقد بلغ عدد القتلى من الجيش المصرى ثلاثة آلاف رجل [١] . والمصريون هم الذين أنشأوا مدينة الخرطوم . وأصبحت عاصمة للسودان باتخاذ خورشيد باشا لها مقراً للحكم . ولا شك أن البعثات التى كان يوفدها محمد على إلى السودان هى التى مهدت فيما بعد لاكتشاف منابع النيل . فلمصر على علم الجغرافية من هذه الوجهة أكبر فضل [٢] وأول رسالة علمية وضعت عن أواسط أفريقية كتبها أحد ضباط الجيش المصرى وهو سليم بك

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . الجزء الثالث ص ١٨٠ .
(٢) ديهيرآن : السودان المصرى فى عهد محمد على ص ٢٢٨ .

قبطان وقد تولت نشرها الجمعية الجغرافية الفرنسية .

وقد تبين محمد على أن الحدود الطبيعيــة التى تحمى هذه المنطقة من الشرق الأدنى يجب أن تمتد إلى جبال طوروس فعمل على ذلك . ولعل أدق وصف لوجوب هذا الامتداد هو ما قرره الدكتور كلوت بك إذ قال « منذ تقرر فى الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيدالمدنية فائدة عامة وجب الاعتر ف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر . وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصاً عن طريق برزخ السويس فاذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابارت نجد أن سائرالغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس فى عهد قمبيز وغزوة الاسكندر والفتح الاسلامى وغزوتى الأوربيين والأتراك وعلى ذلك لايمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا باعطائها الحدود السوريه لأن حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس » . (١)

وقد صرح محمد على أنه لــكى يعطى دولته طابعاً دائماً وحاسماً يجب أن يحمى سوريا من خطر الغزوات ولذلك يجب أن يضم إليها كل المناطق التى يقطنها العرب ، فهؤلاء العرب سيطلبون دائماً مساعدته وهم يميلون دائماً إلى هبة أنفسهم لمصر (٢)

وقد اتضح من جميع تصرفات ابراهيم باشا أنه كان مؤمناً بفــكرة إنشاء اتحاد سياسى يجمع بين الأقطار المتاخمة لمصر من الشرق والشمال وهى الأقطار التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام . فقد خيل إلى الحــكومة الانجليزية أن غرض محمد على وابنه ابراهيم من جعل الحجاز

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣١ .
(٢) Georges Douin : La mission du Baron de Boislecomte : P. 9

ومصر دولة واحدة ينحصر فى الاستيلاء على نجد والحسا لحماية التجارة المصرية من خطر القرصنة فى شرق البحر الأحمر وأن مصر بذلك لا تعارض فى تعاون الحكومة الانجليزية معها عسكريا فى شرق جزيرة العرب . أى فى المناطق البعيدة عن الشاطىء ، ولذلك كلفت السلطات الانجليزية فى الهند بايفاد من يتفاوض مع ابراهيم باشا على قواعد التعاون العسكرى الذى تمنته الحكومة الانجليزية . ووقع الاختيار فعلا على الكابتن فريزر سادلير Sadlier الذى أبحر بالسفينة الحربية الانجليزية Thetis موفداً من قبل حكومة الهند ورست السفينة يوم ٧ مايو عام ١٨١٩ بالقرب من مسقط . وظل الكابتن سادلير يبحث عن ابراهيم باشا فى شبه جزيرة العرب إلى أن استطاع مقابلته فى « بير على » يومى ٨ و ٩ سبتمبر عام ١٨١٩ ولكن المقابلة لم تسفر عن نتيجة . وعاد إلى الهند دون أن يحقق التعاون العسكرى الذى كانت تنشده الحكومة الانجليزية وبذلك ثبت أن ابراهيم باشا كان يأبى إقرار أى تدخل أجنبى فى هذه المنطقة من الكرة الأرضية . (١)

ومما يقطع بايمان ابراهيم باشا بفكرة اعادة ذلك الاتحاد بين الأقطار العربية المتاخمة لمصر أنه بينما كان محاصراً لمدينة عكا سئل عن المدى الذى يعتزم أن يقف عنده تقدم الجيش المصرى فأجاب أن الجيش المصرى سيتقدم ما دام يستطيع أن يتفاهم مع الأقطار التى يغزوها باللغة العربية وربما كانت هذه الخطة — دون أن يقصد — أحد أسرار قوته وقد حققت الحوادث إجابته فقد ضمت سوريا إلى مصر وفى عام ١٨٣٣ تحقق المشروع الذى يعود تاريخه إلى عام ١٨٢٢ . فأثمرت احد عشر عاما من

---

(١) فيليب جريفز من بحث عن « الرحالة البريطانيين فى بلاد العرب فى القرن التاسع عشر » مجلة « المستمع العربى » العدد ١١ السنة الخامسة .

المثابرة والجهود ثمرتها . وهى إنشاء دولة مصرية عربية متحدة (١) .

وقد لاحظ جندى عربى على ابراهيم باشا ذات يوم تحمسه لكل ماهو عربى وسأله بتلك الصراحة التى كان يحب ابراهيم أن يشجعها بين جنوده « كيف تسيئون سموكم إلى الأتراك فى حديثكم مع أنكم من أصل تركى ؟ » فأجاب ابراهيم بحدة « لست تركيا . فقد قدمت إلى مصر طفلاً ومنذ قدومى غيرت شمس مصر دمى فجعلته عربياً »(٢) وقد يخيل إلى البعض أن هذه التصريحات ربما كانت دعاية سياسية لجأ إليها ابراهيم ليجتذب قلوب العرب ولكن الذى يقطع بأن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا مؤمنين بنفس العقيدة أن مختار بك ياوره فى حروب الشام — وقد قضى ستة أعوام فى فرنسا وكان يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها — قد صرح للبارون ده بوا لكونت de Boislecomte وهو السفير الفرنسى الذى أوفده الدوق ده بروجلى de Broglie وزير الخارجية الفرنسية باسم الحكومة الفرنسية فى مهمة خاصة لدى محمد على وابراهيم وأصدر إليه تعلياته فى ٨ أبريل عام ١٨٣٣ — قائلاً « إن معظمنا قد ولد فى تركيا ولكن إقامتنا فى مصر قد أعطتنا حق التجنس بالجنسية المصرية . إن القانون الفرنسى يكتفى بعشرة أعوام يستطيع الأجنبى بعدها أن يتجنس بالجنسية

---

(١) E. de Cadalvène, et V. Barrault : Histoire de la Guerre de Méhémed Ali contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure, 1831—1833. P. 411,412.

والنص الفرنسى لهذه العبارة هو aussi loin que je pourrai me faire comprendre en parlant l'arabe.

وقد جاء ذلك فى الفصل السادس من هذا الكتاب طبعة ١٨٣٧

وجاء فى كتاب « ابراهيم باشا » تأليف بيير كرابيتيس وترجمة محمد بدران أن ابراهيم بفتح تلك الأقطار العربية كان « يعتقد أنه وضع أساس دولة عربية اسلامية عظيمة قلبها النابض مصر » ص ٤٢ .

(٢) Henry Dodwell : The Founder of Modern Egypt, P. 257

الفرنسية . «أما نحن فقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نغادر من الطفولة . ولذلك لم نعد تركاً قط . ولم تبق رابطة تربطنا قط بذلك الشعب الذى لا يترك فى مروره على الأرض إلا الخرائب . إننا الآن ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنوراً . إلى هذا الشعب العربى الذى سبق أوروبا فى الحضارة وزين تاريخه باقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل بل إلى حدود إيران» وكانت فكرة ابراهيم باشا تتجه إلى تحويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى امبراطورية عربية صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون والضباط والجنود إلى شعب واحد واعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة . وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص . وهذه الفكرة توحى إلى الخاطر نظرية أكثر اقناعاً وأكمل كما أنها تتضمن عناصر البقاء والاستقرار [١] .

ولطالما أيد ابراهيم هذه العقيدة فى تصريحاته المتعددة أمام الضباط الذين من أصل تركى والذين كانوا يعاونونه على النهضة بالجيش المصرى . من ذلك جملته التاريخية التى قالها لهم « اذكروا أننا لا نزيد عن خمسة عشر ألفا من أصل تركى فى مصر » [٢] .

ولقد أثارت هذه العزيمة على بعث الدولة المصرية العربية إعجاب المؤرخين الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ مصر فقرروا أن الشعب المصرى سرعان ما بدا على أرض وطنه التى استردت شبابها

(١) Georges Douin : La Mission du Baron de Boislecomte : L'Egypte et la Syrie en 1833 : P. 249,250

والسفير الفرنسى الذى تضمن هذا الكتاب مجموعة رسائله هو Charles Joseph Edmond وهذه الفقرة منقولة عن رسالته المؤرخة فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٣٣

(٢) المرجع السابق E. de Cadalvène et V. Barreault : P. 417

شعباً لين العريكة صبوراً . مسالماً ، ولكنه إذا حارب قاتل ببسالة واحتمل العمل بمرح وواجه الأخطار والشقاء غير هياب ولا وجل . مستعداً لاتقان أية صناعة . قادراً على استيعاب العلوم فى سهولة عظيمة (١)

واستمر ابراهيم باشا ينفذ سياسة إعادة هذا الاتحاد السياسى بين مصر والأقطار العربية الأخرى عملياً بحد السيف فحاصر «عكا» وفتحها يوم ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ بعد أن طال حصارها ستة أشهر و بلغت خسائر المصريين أربعة آلاف وخمسمائة قتيل . وفتح «حمص» فى ٨ يوليو من نفس العام بعد قتال عنيف . ولمعركة حمص أهميتها الخاصة لأنها كانت أول معركة التحم فيها الجيش المصرى بالجيش التركى فى ساحة واحدة و يعتبر المؤرخون أن المصريين بانتصارهم فى هذه المعركة قد ثأروا لأنفسهم من هزيمتهم فى معركة « الريدانية » أمام السلطان سليم قبل ذلك بأكثر من ثلاثة قرون وأن الانتصار فى هذه المعركة قد رد لمصر سيادتها كاملة وقضى على النفوذ العثمانى فيها(٢) ثم فتح «بيلان» فى ٣٠ يوليو و« قونيه » فى ٢١ ديسمبر من نفس العام . وقد أثار انشاء دولة واحدة من كل هذه الأقطار العربية المتجاورة ثائرة الدول الأوربية ودفعها الى التدخل فيما أسموه « المسئلة المصرية » ولكن محمد على أصر على انشاء هذه الدولة وانتهى الأمر باتفاقية « كوتاهية» فى ٤ مايو عام ١٨٣٣ وهى الاتفاقية التى تقرر تنازل تركيا عن سورية « دمشق وطرابلس وصيدا وحلب والقدس ونابلس » والحجاز ، و بذلك عاد هذان القطران فأصبحا وحدة سياسية مع مصر وعادت حدود هذه

(١) المرجع السابق E. de Cadalvène et V. Barreult : P. 415

(٢) عبد الرحمن الرافعى « تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث ص ٢٤٨

الدولة تنتهى عند جبال طوروس [١]

وقد تحملت مصر فى سبيل إيمانها بفكرة انشاء دولة واحدة من الأقطار العربية المجاورة لهاتضحيات جسيمة . فقد كانت إيرادات سوريا أقل من مصروفاتها فكانت مصر تكمل الفرق من ميزانيتها الخاصة ، وتحققت المساواة بين الجميع فى الضرائب لاتفاوت بين الطبقات والمذاهب وأبطلت المصادرات وتقرر حق الملكية وتوطد الامن وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة [٢] ووهب الحكام المصريون الذين ولاهم محمد على على سوريا أنفسهم لتحقيق نهضة هذا الجزء من الدولة التى أعاد محمد على انشاءها فتنسمت بيروت فى عهد الأمير محمود سامى محافظها المصرى «نسيماً منعشاً من الغرب المتمدن فاستيقظت من سبات العصور الوسطى وخطت خطوتها الأولى فى سبيل رقيها الحديث » [٣]

وقد دافعت مصر عن هذه الحدود التاريخية بكل قواها . فكانت معركة « نصيبين » فى ٢٤ يونيو عام ١٨٣٩ بسبب اجتياز فرقة من الجيش

---

(١) وصف المؤرخون هذه الدولة بأنها « امبراطورية واسعة الارجاء . مساحتها تزيد على نصف أوروبا وتزيد ١٥ مرة على مساحة فرنسا. امبراطورية عظيمة تضارع امبراطورية نابوليون وأمبراطورية الفراعنة وأمبراطورية الرومان تمتد من النيل إلى الفرات ومن البحر الأحمر الى البحر الأبيض . من فلوات اليمن الى مشارف الشام. من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . من كعبة المسلمين الى مقدس النصارى الى مبكى اليهود أمبراطورية جمعت اليمنى والحجازى والمصرى والسودانى والعربى والسورى واللبنانى والدرزى تحت راية واحدة وتحت صولجان واحد » — عزيز خانكى — « الذكرى المئوية لواقعة نزيب » ص ١٥ و ١٦ و ١٧

(١) محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق: « خطط الشام » الجزء الثالث ص ٥٧ .

(٣) الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت من بحث له فى مجلة « الكلية » التى تصدرها هذه الجامعة — المجلد ١٣ ص ١٣٠ .

التركى لنهر الساجور وهو النهر الذى ينبع على مقربة من عنتاب ويصب فى الفرات والذى اعتبرته اتفاقية كوتاهية حداً فاصلاً بين تركيا والدولة التى أعاد محمد على انشاءها مكونة من مصر والحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين وقد انتصرت الجيوش المصرية فى هذه الموقعة انتصاراً حاسما بعد أن خسرت نحو أربعة آلاف قتيل وجريح . وتكلل هذا النصر بتسليم الأسطول التركى الذى كان مؤلفا من تسع بوارج حربية كبيرة وستة عشر سفينة حربية أخرى الى الأسطول المصرى مما جعل الدولة المصرية العربية الناشئة التى نالت هذا النصر أقوى دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط . ولذلك عد يوم «نصيبين» أمجد أيام النصر التى رأتها الجيوش المصرية (١)

وقد تبوأت مصر المنتصرة مكان الصدارة بين الشعوب العربية ونفضت عنها سيادة الباب العالى الذى كادت الجيوش المصرية تهدد عاصمته وأصبحت مصر مركزاً من مراكز القوة والحضارة . مركزاً مستقلا — بداهة — عن القسطنطينية .

ولقد تساءل المؤرخون عن المصير الذى كان يمكن أن تنتهى اليه حياة محمد علي لو أنه استولى على القسطنطينية وجلس على عرش آل عثمان وقرروا أن حسن طالع محمد على قد بدأ فى مصر وأن رسالته لم تتحقق إلا بمصر ومع مصر فلو أنه اغتصب عرش آل عثمان لوجب عليه أن يعيد سيطرة هذا العرش على الأقطار العربية وهى الأقطار التى عمل طويلا على أن ينزع عنها سيطرة العثمانيين : كخليفة الفراعنة والبطالمة والمدافع عن قضية

(١) Weygand : Histoire Militaire de Mohamed Ali et de ses fils T. 2 P. 145 . وقد أضاف أن بعض المؤرخين يقارن انتصار ابراهيم فى نصيبين بانتصار نابليون فى « أوسترليتز »

العرب فى الاتحاد تحت سيادة واحدة تضمهم جميعاً[١]

وكان المعقول لو لم تخش الدول الأوروبية بأس هذه الدولة الناشئة أن يترك الأمر بينها و بين تركيا ولكن تلك الدول الأوروبية أبت إلا أن تثير «المسألة المصرية» من جديد فأرسل سفراء النمسا والروسيا وانجلترا وفرنسا وبروسيا مذكرتهم التاريخية فى ٢٨ يوليو عام ١٨٣٩ الى تركيا وبلغ التعنت بمرسليها إلى حد أنهم طلبوا من تركيا ألا تقرر شيئاً فى شأن المسألة المصرية إلا بعد موافقتهم ! وقد تطورت سياسة العنت التى كانت تمليها روح الخوف من الدولة الناشئة التى احتضنت كل الأقطار العربية المتجاورة التى تكون الشرق الأدنى عند ما تولى «تيير» Thiers رئاسة الوزارة الفرنسية إذ كان يرى الإبقاء على مصر وسوريا كدولة واحدة وأن تترك تصفية الخلاف بين مصر وتركيا اليهما وحدهما دون تدخل من الدول الأخرى ولكن بالمرستون — وزير الخارجية الانجليزية وقتئذ — أبى إلا إحباط سياسة «تيير» وانتهى الأمر بعقد معاهدة «لندن» فى يوليو عام ١٨٤٠ وهى المعاهدة التى اقتصرت على ضم فلسطين الى مصر و بذلك سلخت جزيرة العرب وسوريا من الدولة التى أعاد محمد على إنشاءها وقد أجمع المؤرخون على أن أصرار انجلترا على إحباط مجهود مصر فى اعادة انشاء تلك الدولة انما لأنها لحظت أن محمد على باشا كان يطمع بعد ضم البلاد فى احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتمدنة»[٢] ولم تصدر هذه الشهادة من المؤرخين العرب فحسب بل جاراهم فيها المؤرخون الانجليز اذقرروا أن عصر المصريين فى سوريا هو

---

(١) المرجع السابق E. de Cadalvène et V. Barreult ; P. 418,438

(٢) الدكتور ميخائيل مشاقة : «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» ص ١٢٦ .

العصر الذهبي للمسيحيين [١]

ولا شك أن محمداً علياً كان محقاً فى اعتبار معاهدة « لندن » باطلة حين رفضها ولكن الدول الأوربية تماسكت فى موقفها المتعنت من مصر وتراخى « تيير » فى تأييده لمصر وترك الوزارة للماريشال سول Soull وكان الأسطول الأنجليزى قد ضرب سواحل فلسطين واستولى عليها وانتهى الأمر بالاتفاقية التى عقدت يوم ٢٧ نوفمبر عام ١٨٤٠ بين وزير الخارجية المصرية والكومودور شارل نيبير Napier التى تقضى بجلاء الجيوش المصرية عن سوريا

ولما تولى اسماعيل حكم مصر تابع سياسة جده فى الاتجاه جنوباً لإعادة إنشاء دولة تحتضن وادى النيل وقد استصدر لتحقيق هذا الغرض من الباب العالى فرمان ٢٧ مايو عام ١٨٦٦ الذى ضم سواكن ومصوع الى مصر وكانت محافظة مصوع تمتد الى بوغاز باب المندب وأصدر لتحقيق نفس الغرض فرمان أول ابريل عام ١٨٦٩ الذى عهد به الى سير صمويل بيكر :

ا — إخضاع البلاد الواقعة جنوبى جوندوكرو

ب — القضاء على النخاسة

ج — ادخال نظام تجارى

د — فتح البحيرات الاستوائية الكبرى للملاحة

ه — إنشاء سلسلة من الحصون العسكرية فى أواسط أفريقية [٢]

وقد وصلت الحملة المصرية الى خط الاستواء ورفعت العلم المصرى على

---

(١) Paton : A. History of the Egyptian Revolution نقلا عن كتاب « الذكرى المئوية لواقعة نزيب » للأستاذ عزيز خانكى ص ٥ .

(٢) بيير كرابيتيس « اسماعيل المفترى عليه » ترجمة فؤاد صروف ص ٧٢ .

غندكرو Gondokoro يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧١ وسميت «الاسماعيلية» نسبة الى عاهل مصر إذ ذاك [١]

وقد أرسل سير صمويل بيكر الى اسماعيل بهذه المناسبة خطاباً ذكر فيه أن مصر قد ضمت جزءاً كبيراً من أواسط أفريقية وأن حدودها أصبحت تمتد الى خط الاستواء [٢]

واستمرت الحملة المصرية فى تقدمها فاحتلت «ماسندى» وأعلنت ضم ولاية أونيورو Ounyoro الى مصر فى ١٤ مايو عام ١٨٧٢

ولقد كان من نتيجة ضم أوغندة الى مصر أن قضى على تجارة الرقيق. وساد النظام وانتشر الاسلام . وكان اسماعيل يحدد لقائد الحملة المصرية الأهداف النبيلة التى سيَّر تلك الحملة للوصول اليها فكتب اليه يقول

«لا تواصل الزحف إلى الأمام . بل استعمر البلاد وعلم السكان واجعل القبائل موالية لك »

وقد كتب سير صمويل بيكر الى اسماعيل يخبره بأن العلم المصرى سيوضع على بعد درجة على الأقل جنوب خط الاستواء بحيث تكون الاسكندرية على بعد ٣٣ درجة شمالا كما أخبره فى نفس الرسالة ان ملك أوغندة اعتنق الدين الاسلامى وانه بنى جامعاً وسيشرع فى بناء مدرسة [٣] وقد ظل سير صمويل بيكر مديراً لمديرية خط الاستواء الى أن عاد الى القاهرة يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧٣

---

(١) Sir Samuel Baker : Ismailial T. 1—P 248

(٢) بيير كرابيتيس — المرجع السابق ص ١٦ نقلا عن الملف ٧٢ — ١ محفوظات سراى عابدين .

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ و ٩٨ نقلا عن نفس الملف .

وقد اقتنع صمويل بيكر — بعد خدمته للحكومة المصرية فى مديرية خط الاستواء — بأن مصر دون غيرها هى الدولة التى يمكنها إدخال النظم العصرية فى الحكم إلى الأقطار الواقعة على جانبى النيل . وأن المدنية لم تصل إلى قلب أفريقيا إلا بعد أن امتدت الحدود المصرية إلى خط الاستواء .(١)

وعين بعده الأميرالاى محمد رؤوف بك مديرا لتلك المديرية وألحقت فى عهده بحكومة السودان إلى أن تولى جوردون هذه المديرية فى ١٩ فبراير عام ١٨٧٤ . وقد نص الخديوى اسماعيل فى الأمر العالى الصادر بتعيينه على جعل مديرية خط الاستواء منفصلة عن السودان فى إدارتها . وحدد هذه المديرية بأنها «تشمل جميع المناطق الخاضعة لسلطة الحكومة المصرية ابتداء من جنوب فاشوده وتشمل أيضا المناطق التى يجب أن تتكون منها» (٢).

وقد تابعت مصر سياستها التقليدية فى نشر المدنية بهذا القطر الشقيق فأدخلت للمرة الأولى فى تاريخه نظام التعامل بالنقود وهو نظام كان يجهله الأهالى إلى عام ١٨٧٤ عندما عودهم جوردون عليه .

ولقد أسفر تولى جوردون ادارة مديرية خط الاستواء عن نتائج تاريخية حاسمة أهمها رسم خريطة النيل الأبيض من الخرطوم إلى الرجاف رسما دقيقا مضبوطاً والقضاء على الرقيق وبسط الأمن والشروع فى شق طريق للملاحة بين غندوكرو والبحيرات الكبرى (٣) .

---

(١) Samuel Baker : المرجع السابق ص ٢-١-٤ .

(٢) الأمير عمر طوسون « تاريخ مديرية خط الاستواء » الجزء الأول ص ٨ ، ١٠ ، ١١

(٣) المرجع السابق — ص ١٠٤ .

ولم يقتصر الأمر على هذا بل أن جوردون — كحا كم لمديرية خط الاستواء من قبل الحكومة المصرية — أوفد الكولونيل شايي لونج بك — وهو ضابط أمريكي التحق بخدمة الجيش المصرى — إلى ملك أوغندة فعقد مع ملكها معاهدة نص فيها على قبوله حماية مصر لمملكته وقد أرسلت هذه المعاهدة إلى اسماعيل فأبلغها إلى الدول وأعلن أن جميع الأقطار المحيطة ببحيرتى البرت نيانزا وفيكتوريا أصبحت وحدة لاتتجزأ من مصر (١) وقد عقدت هذه المعاهدة فى عام ١٨٧٤ اذ أن لونج بك قابل ملك أوغندة للمرة الأولى يوم ٢١ يونيو من ذلك العام . وقد تبين أثناء هذه المقابلة مبلغ التوحش الذى كان سائداً فى ذلك القطر إذ ذاك عندما أحضر الملك ثلاثين رجلاً وفصل رؤوسهم من أجسامهم زيادة فى الاحتفاء بمندوب عاهل مصر ! وعندما دعاه الملك ليشاهد زوجاته اللاتى بلغ عددهن مائة زوجة ! وقد سهّل مهمته فى عقد هذه المعاهدة ما لمسه من العداوة القديمة بين ملك أوغنده وملك أونيورو وحاجة أوغنده الى حماية مصر لها من اعتداء أونيورو المستمر عليها .

كما أن إدارة مصر لهذه المديرية قد أسفرت عن نتيجة جغرافية عادت على علم الجغرافية بأكبر فضل إذ خطر لجوردون أن يستدعى الرحالة الايطالى « جيسى » Gessi وأن يكلفه بارتياد البحيرة التى عرفت فيما بعد باسم « البرت نيانزا » لمعرفة حقيقة منابع النيل وحقيقة الفيضان .

وقد قام جيسى بهذه المهمه مع فرقة من الجنود المصريين فى شهر ابريل

---

(١) Chaillé Long : L'Egypte et ses provinces perdues P. 25 وقد قرر فى هذا الكتاب أن هذه المعاهدة أودعت فى وزارة الخارجية المصرية ولكن أحد ضباط جيش الاحتلال بعد الثورة العرابيه أحرقها .

عام ١٨٧٥ فكانوا أول من ارتاد هذه البحيرة . وكان العلم المصرى الذى رفرف على السفن المصرية التى مخرت مياه تلك البحيرة هو أول علم ارتفع فى سماء هذه البحيرة (١) .

وتولى مديرية خط الاستواء فى غيبة جوردون الضابط الأمريكى الكولونيل براوت Prout الذى كان ملحقاً بأركان حرب الجيش المصرى وذلك من ديسمبر عام ١٨٧٦ إلى مايو عام ١٨٧٧ فلما عاد جوردون عهد إلى الكولونيل الأمريكى ميسون بك Mason بتكملة ما بدأه الرحالة جيسى من اكتشاف البحيرة التى عرفت فيما بعد باسم « البرت نيانزا » وقد قام ميسون بهذه المهمة باسم الحكومة المصرية عام ١٨٧٧ . وقدم تقريره إلى مدير مديرية خط الاستواء وذكر فيه « أن هذا المنبع الكبير مخبأ منذ زمن طويل على ملايين من أفراد النوع البشرى . . . وأردت أن أسميه باسم شهير — فلأجل التذكار دائما باسم الشخص الذى توفى أخيراً وحزنت عليه جلالة الملكة قد سميت هذه البحيرة الكبيرة بهذا الاسم «البرت نيانزا» وحينئذ فبحيرة البرت نيانزا و بحيرة فيكتوريا هما منبعا النيل (٢) »وفى ذلك الوقت كانت جمعية مبشرى الكنيسة الانجيلية الانجليزية قد أوفدت بعض مبشريها إلى مديرية خط الاستواء لنشر الدين المسيحى ومن بينهم المبشر فيلكن Felkin الذى جاب أنحاء أوغندة وتبين ظلم ملكها « كباريجا» فكتب يقول«انه لمما يؤسف له عدم القضاء على حكم هذا الملك المستبد الغشوم ذلك الأمر الذى كان يمكن أن يتم من زمن لولا المعارضة الشديدة التي كان يبديها بعض أشخاص فى بلاد الانجليز

---

(١) الأمير عمر طوسون : « تاريخ مديرية خط الاستواء» — الجزء الأول ص ٣٠٨

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى المجلد الثانى — السنة الثالثة ترجمة الملازم ثانى مصطفى توفيق .

وهؤلاء الأشخاص هم أولئك الذين يرون بعين الحسد كل امتداد يحدث فى الأراضي المصرية نحو الجنوب »[١] وهـذا يدل على أن سياسة الدول الأوروبية كانت تعرقل منذ ذلك الوقت مجهود مصر فى إنشاء وحدة سياسية من هذه الأقطار المجاورة لها . ولكن رغم هذا ظلت الحكومة المصرية توالى إرسال البعثات إلى أوغندة تمهيداً لانشاء تلك الوحدة وأهم هـذه الرحلات هى رحلة أمين افندى الذى كان طبيباً ألمانياً ثم اعتنق الدين الاسلامى فى تركيا ولما حضر إلى السودان عينه جوردون طبيبا بمديرية خط الاستواء وقد قابل ملك أوغندة فى شهر ديسمبر من عام ١٨٧٧ موفداً من قبل الحكومة المصرية لانشاء روابط صداقة بين القطرين ثم عين مديراً لمديرية خط الاستواء فى منتصف عام ١٨٧٨ ، فنظّم المواصلات مع أوغندة وأدخل وسائل العلاج الحديثة فى « لادو » التى كانت قد اتخذت كعاصمة لتلك المديرية وبنى مستشفى وصيدلية وعين لهـا صيدلياً لصرف الأدوية للمرضى من الأهالى وأمر — للمرة الأولى فى تاريخ تلك المنطقة — بزراعة القطن لايجاد مادة للنسيج . ولما نشبت الثورة المهدية فى السودان هجم المهديون بقيادة الأمير كرم الله على مديرية خط الاستواء ووصلوا الى محطة «امادى» وهى أقصى محطة فى شمال المديرية يوم ١٧ نوفمبر عام ١٨٨٤ فقاومها الجنود المصريون مقاومة طويلة ولكنها سقطت فى منتصف شهر ابريل عام ١٨٨٥ فى أيدى المهديين وحاول المهديون بعد ذلك الاستيلاء على ولاية « مكراكا » Makraka المعروفة باسم « نيام نيام » التى تقطنها قبـائل

---

(١) Felkin « أوغندة والسودان المصرى » الجزء الأول ص ٣٢٤ نقلا عن كتاب الأمير عمر طوسون المشار اليه سابقا .

(٢) الأمير عمر طوسون : « تاريخ مديرية خط الاستواء » الجزء الثانى ص ٣٠ و ١٥٩

« ينبارى » Yanbaris وكانت قد ضمت الى مديرية خط الاستواء فى يناير عام ١٨٧٥ . ولـكن الأمير كرم الله انهزم فى « ريمو » هزيمة منكرة أمام مقاومة الجنود المصريين الذين دافعوا عن « مكراكا » بدفاع المستميت كجزء من أراضى وطنهم .

وكان أمين بك قد توقع نشوب الحرب بين أوغندة و بين أونيورو التى كان ملكها قد أعلن ولاءه لمصر فعين الصيدلى فيتاحسان فى أول يناير عام ١٨٨٦ ممثلا للحكومة المصرية فى « أونيورو » وكلفه بأن يسهل للدكتور «جونكر» الرحالة الروسى اجتياز أوغندة [١] وأن يتفق مع ملك أوغندة على خير الطرق التى يسلكها المصريون الذين انقطعت صلتهم بالحكومة الرئيسية فى القاهرة بسبب الثورة المهدية إذا قرروا العودة الى مصر عن طريق أوغندة ولما شبت الثورة العرابية و بدأ الاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢ أرسل نوبار باشا الى أمين بك — الذى كان قد أنعم عليه برتبة الباشوية — يطلب اليه العودة الى مصر ولـكنه فضل البقاء مع جنوده المصريين ولم يكن الرحالة الأمريكى ستانلى هو وحده الذى ستر أطماع مموليه الاستعمارية بالرغبة العلمية المزعومة فى إنقاذ أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء المصرية بل شاركه فى ذلك الرحالة الألمانى Karl Peters الذى سافر هو الاخير مع قافلة الى أعالى نهر تانا بنفس الحجة فعثر فى بلدة (كافيرondo) kavirondo على خطاب من ملك أوغنده وجهه الى « جاكسون » ممثل شركة شرق أفريقيا البريطانية The Imberial

(١) قام الدكتور Junker باولى رحلاته الى السودان فى عام ١٨٧٦ وقد سافر اليه مزوداً بتوصية من السلطات المصرية فى القاهرة وقد تعددت رحلاته فى مديرية خط الاستواء على بواخر مصريه بمساعدة المصريين وكتب عن تلك الرحلات كتابه « رحلات فى أفريقية » .

Britis East Africa Company وهى شركة كانت قد تأسست فى ٣ سبتمبر عام ١٨٨٨ لتحقيق أغراض استعمارية مستورة بنشاط تجارى وفى هذا الخطاب يستنجد ملك أوغندة بالشركة ويقبل العلم البريطانى . وقد دخل « كارل » أوغندة وتمكن بمساعدة مبشرى الكنيسة الفرنسية الرومانية الكاثوليكية من عقد اتفاق مع ملك أوغندة يقبل فيه الحماية الالمانية فلم يكد جاكسون يعلم بذلك حتى سارع إلى « منجو » عاصمة أوغندة وحاول استمالة ملكها فلما لم يفلح عاد جاكسون الى شاطىء أفريقية الشرقى وأمر لوجارد Lugard أحد موظفى الشركة بالتقدم الى أوغندة . وأحست الحكومتان الألمانية والانجليزية أن الخلاف سيتفاقم بينهما على تلك المنطقة من مديرية خط الاستواء المصرية فوقعتا اتفاقا فى أول يوليو عام ١٨٩٠ تنازلت بمقتضاه انجلترا لألمانيا عن « هليجولند » بأوربا فى مقابل اعترف المانيا بنفوذ انجلترا فى منطقة منابع النيل . وفى ٢٩ مايو عام ١٨٩٤ عقدت معاهدة جذيده بين ملك أوغندة وسير جير الدبورتال Gerald Portal ممثل شركة شرق أفريقية وضعت فيها أوغندة تحت الحماية الانجليزيه . وفى يونيو عام ١٨٩٥ تنازلت الشركة للحكومة الانجليزية عن حقوقها (١) ومن هذا السرد الدقيق للحقائق التاريخية يتضح أن الدول الأوروبية كانت تسلم باعتبار مديرية خط الاستواء جزء من مصر بدليل أنها لم تجرؤ على ارسال حملات عسكرية لاحتلالها بل سترت أطماعها الاستعمارية بستر علمية تارة وتجارية تارة أخرى حتى تمكنت انجلترا من عقد اتفاق أول يوليو عام ١٨٩٠ الباطل مع ألمانيا بشأن جزء من أرض دولة أخرى لاشأن لهما بها ثم من الحصول على موافقة أوغندة على حماية انجلترا

---

(١) The Encyclopaedia Britannica — كلمة Africa — الطبعة ١١ .

لها وهى موافقة لا يعترف بهما القانون الدولى العام لأنها صادرة من سلطة لا تملك التعاقد باسم الدولة صاحبة السيادة على أوغندة وهى مصر .

وكان الخديوى اسماعيل يؤمن كما آمن أسلافه من حكام مصر بأن البحر الأحمر يجب أن يكون بحيرة تابعة للدولة التى تتألف من الأقطار العربية التى تدين غالبيتها بالاسلام والتى يتكوّن منها الشرق الأدنى فحصل على تنازل تركيا لمصر عن مينائى سواكن ومصوع بمقتضى فرمان ٢٧ مايو عام ١٨٦٦ واستقرّت السيادة المصرية على جميع شاطىء البحر الأحمر الغربى إلى بربرة . ولم تكن انجلترا تنظر بعين الرضا إلى هذا الوضع فحاول حاكم عدن الانجليزى أن يعترض على تدخل جمالى بك قائد الأسطول المصرى فى فض نزاع نشب بين قبائل بلهار وبربرة — وهما ميناءان واقعتان على البحر الأحمر — ولكن شريف باشا رئيس الوزارة المصرية كتب فى أول يونيو عام ١٨٧٠ إلى قنصل انجلترا بالقاهرة يؤكد حقوق مصر على تلك المنطقة ولم تكتف مصر بذلك بل عينت ممتاز باشا والياً على جميع ساحل أفريقيا من السويس إلى رأس جردفون . فرفع العلم المصرى على بلهار فى ١٦ يناير عام ١٨٧١ وأراد اسماعيل ألا يدع مجالاً للشك فى سيادة مصر على تلك المنطقة فحصل على تنازل تركيا عن زيلع لمصر فى يونيو عام ١٨٧٥ . وعندئذ تكشفت معارضة انجلترا عن حقيقة أطماعها الاستعمارية فكتب الضابط وود إلى السفير الانجليزى بالاستانة فى ٦ أغسطس عام ١٨٧٥ يقول « إن التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربرة يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر ولا ريب أن المناطق التى كانت من قبل مستوحشة لا يستأنس بها أخذ المصريون يصلونها عاجلا بالعالم المتمدن » . وقد اعترفت انجلترة بعد ذلك بحق مصر

فى هذه المناطق فعقدت مع مصر معاهدة فى ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ وقعها قنصل انجلترة العام فى مصر عن الجانب الانجليزى وشريف باشا عن الجانب المصرى وتقرر فيها أن جميع ساحل أفريقيا الشرقى لغاية رأس جردفون تملكه مصر [١] .

وقد شهد الانجليز أنفسهم بعد معاهدة ٧ سبتمبر عام ١٨٧٧ بأن الادارة المصرية بساحل أفريقية الشرقى قد وفقت غاية التوفيق فكتب القنصل الانجليزى فى السومال بتاريخ ٦ يونيو عام ١٨٨٤ يقرر أن المصريين أنجزوا فى بربرة من الأعمال العامة ما يصح أن تفاخر به أية إدارة » ولم يعد هناك أدنى شك فى أن السومال قد أصبح جزءا لاينفصل من الدولة المصرية برغم المحاولات الاستعمارية التى بذلت لتحوير هذا الوضع الدولى إلى حد أن ممثل انجلترة فى عدن كتب فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٨٤ يقول « يجب أن نعترف بأن العرب فى خليج عدن سواء أكانوا مستقلين أو تحت الحماية الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية يرفعون فوق سفنهم وفى معظم الأحايين فوق منازلهم ومقابرهم رايات لايشك الناظر فى أنها مصرية » [٢] .

وقد أجمع المؤرخون على « أن ضم زيلع وبلهار وبربرة وساحل أفريقية الشرقى حتى رأس جردفون إلى الدولة المصرية قد أثمر نتائج رائعة لم يحققها أى احتلال أوروبى آخر فى أفريقية » [٣] وكتب الرحالة الألمانى هلد براند

---

(١) فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء الجزء ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) الدكتور محمد صبرى — مصر فى أفريقيا الشرقية ص ١٦ و ١٩ و ٤٥ و ٤٩ .

(٣) Paulitschke: Le Harar sous L'administration Egyptienne نشرة الجمعية الجغرافية الخديوية — مارس عام ١٨٨٧ .

إلى رئيس الجمعية الجغرافية المصرية فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٧٥ يقول « لا توجد أمة أصلح — فى اعتقادى — من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقية [١] » وقد حرص رجال القسم الجغرافى من هيئة أركان حرب الجيش المصرى على أن يشرفوا اسم مصر فى الأوساط العلمية التى كانت معلوماتها الجغرافية عن هذه المنطقة من ساحل أفريقية الشرقى لا تزال ناقصة مبتورة [٢] وقد وضع ضباط هذا القسم خارطة عامة لمصر تسجل جميع حدودها عرضت فى المعرض الجغرافى الدولى الذى عقد فى البندقية عام ١٨٨١ .

ولكن أطماع أوروبا الاستعمارية لم تيأس من بتر هذه الأجزاء من جسم الدولة المصرية فانتهزت فرصة المتاعب التى عانتها مصر عقب الثورة العرابية ووضعت إيطاليا يدها — بموافقة انجلتره الضمنية — على مصوع وموانىء أخرى على شاطىء أفريقية الشرقى وكان ذلك عام ١٨٨٥ ولما تمكن الإحتلال الإنجليزى لمصر من قهر مصر على السكوت عن اغتصاب حقها فى الصومال انتهزت انجلتره الفرصة لانشاء نفوذها على شاطىء أفريقيـة الشرقى تجاه عـدن وعقدت مع رؤساء القبائل فى تلك المناطق عشر معاهدات فى المـدة بين أول مايو عام ١٨٨٤ و ١٥ مارس عام ١٨٨٦ سلموا فيها بالنفوذ الانجليزى وهى المناطق التى عرفت فيما بعد باسم السومال الانجليزى وفى نفس الوقت اتضح أن إيطاليا لم تكتف بما اغتصبته من الأراضى المصرية على شاطىء البحر الأحمر فجارت انجلترا

---

(١) الدكتور محمد صبرى — المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) مصطفى عامر Some Unpublished Egyptian Maps of Harrar مجلة الجمعية الجغرافية الملكية . المجلد ١٩ عام ١٩٣٧ .

فى عقد المعاهدات مع رؤساء قبائل الصومال الذى عرف فيما بعد باسم الصومال الايطالى (١) وهذا الأسلوب الباطل من عقد معاهدات مع سلطات لا تملك حق التعاقد — لأن القانون الدولى العام لا يعترف لها بسيادة تمكنها من هذا التعاقد — هو الذى اتبعته انجلترة فيما بعد مع ملك أوغندة فى ٢٩ مايو عام ١٨٩٤ إذ دفعت شركة شرق أفريقية البريطانية إلى الحصول منه على قبوله الحماية الانجليزية وهو قبول باطل ولا يمكن أن يكون له أثر دولى لأنه صادر من جزء من دولة ذات سيادة هى الدولة المصرية . وهذا الجزء ليس له حق التعاقد باسم هذه الدولة دولياً عن طريق توقيع المعاهدات خصوصا التى تمس صميم سيادة هذه الدولة على أراضيها وتتضمن تعديلا فى حدودها .

والدليل على أن انجلتره كانت تريد الاستئثار بالنفوذ فى حدود مصر الجنوبية الثابتة بمقتضى قواعد القانون الدولى العام والمستندة إلى فتح جيوشها للسودان واكتشاف علمائها لمنابع النيل فى بحيرتى البرت وفكتوريا أنها بعد أن اقتطعت ميناء بربرة وما يحيط بها مما أسمته الصومال الانجليزى فى المدة بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٨٦ وتركت إيطاليا تقتطع ميناء مصوع وما يحيط بها مما سمى فيما بعد اريتريه كما اقتطعت مديرية خط الاستواء التى أسمتها أوغندة عام ١٨٩٤ — الدليل على أن انجلتره كانت تريد الاستئثار بالنفوذ فى حدود مصر الجنوبية أنها أيدت مصر فى موقفها من فرنسا فى حادث فاشودة عام ١٨٩٨ فقد حدث أن وصل الكابتن مارشان Marchand ، وهو ضابط فى الجيش الفرنسى ، إلى فاشوده وهى قرية واقعة على النيل الأبيض فى كردفان أى فى صميم حدود

(١) Encyclopaedia Britannica—Africa

السودان المصرى ورفع العلم الفرنسى فأسرع سير هيربرت كتشنر سردار الجيش المصرى إلى فاشودة وطلب إلى مارشان إزالة العلم الفرنسى فلما امتنع رفع كتشنر العلم المصرى إلى جانبه وكان لورد سالسبورى Salisbury وكيلاً للخارجية الانجليزية إذ ذاك فسوى الخلاف باعلان التصريح الانجليزى الفرنسى فى ٢١ مارس عام ١٨٩٩ وهو التصريح الذى سلمت فيه فرنسا بالانسحاب من وادى النيل على أن تحقق أطماعها فى اتصال ممتلكاتها فى شمال أفريقية وغربها ووسطها ببعضها . ولكن هذا التأييد الظاهر لموقف مصر قد سبقه بشهر واحد . وعلى وجه التحديد فى ١٩ يناير عام ١٨٩٩ ارغام انجلترة لمصر على توقيع الاتفاق على الحكم الثنائى على الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة شمال خط الاستواء . أى السودان . وهو الاتفاق الذى ولد باطلاً لأنه يخالف التحديد الذى أقرته نفس انجلتره للسودان المصرى فى الكتاب الأزرق الذى أصدرته الحكومة الانجليزية عن مصر عام ١٨٨٣ أى بعد الاحتلال الانجليزى والذى اعترف بأن السودان المصرى يحد جنوباً بخط يمر فى بحيرتى البرت وفيكتوريا و يصل إلى رأس جردفون [١] .

وليس هذا الفصل مقام سرد الأدله على بطلان اتفاقية ١٩ يناير عام ١٨٩٩ ، فما لا شك فيه أن بطرس غالى باشا الذى وقع هذا الاتفاق عن الجانب المصرى قد أكره إكراهاً على توقيعه كما أن « مصر ذاتها لم تقره برضاها ولم تسلم به إلا مكرهة مقسورة بقوة انجلترة [٢] » وقد ذهب بعض

---

(١) الكتاب الأزرق عام ١٨٨٣ جزء ١١ ص ٦ .

(٢) حسين رشدى باشا — « بحث فى حالة السودان السياسية » نشر فى ١٧ مايو عام ١٩٢٢ بمناسبة إصرار اللجنة التى ألفت لوضع الدستور المصرى على أن يكون لقب رئيس الدولة المصرية « ملك مصر والسودان » .

المؤرخين المصريين إلى أن بطلان هذا الاتفاق يعود إلى « أن الفرمانات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقات سياسية وقد اعترفت انجلترة بهذه الفرمانات » وإلى أن هذا الاتفاق « لم يقترن بملكية السلطان العثمانى للسودان وهو مالك له. كما أن مصر تابعة للسيادة التركية » [١]. ولكن الاستناد إلى هذا السبب للتدليل على بطلان اتفاق ١٩ يناير عام ١٨٩٩ لا يتفق — فى نظرنا — مع الواقع التاريخى الذى سبق أن استعرضناه فى الفصل السابق من هذا الكتاب . لأن مصر كانت ذات كيان دولى مستقل منذ اتفاقية كوتاهية فى ٤ مايو عام ١٨٣٣ وهى الاتفاقية التى عقدت بين مصر وتركيا على أثر انهزام الجيوش التركية أمام الجيوش المصرية . أما اصدار فرمانات بتولية الخديوين الذين تعاقبوا على حكم مصر بعد تلك الاتفاقية فلا ينتقص من سيادة مصر وهو لا يعدو أن يكون اجراءاً شكلياً روعيت فيه العلاقة الروحية التى ظلت تربط مصر كقطر اسلامى بتركيا كدولة كانت إذ ذاك تتزعم الإسلام باعتبار أن عاهلها كان يعد خليفة المسلمين . والحقيقة التى لا شك فيها أن اتفاق ١٩ يناير عام ١٨٩٩ لا يمكن أن يقيد مصر لأن « السبب الذى دعا إلى ابرام هذا الاتفاق هو الاهتمام بمنع تنفيذ الامتيازات الأجنبية فى السودان ووقاية مصر ولو فى هذا الشطر من الأراضى المصرية من مساس نظام الامتيازات بسيادتها » [١] وهذا واضح من نص المادة الثامنة من هذا الإتفاق التى تنص على أنه « لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه » ولم يكن فى قدرة انجلترة أن تحقق هذا الغرض إذا

---

(١) عبد الله حسين « السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية » الجزء ٢ ص ٥٢ .

(٢) حسين رشدى — المرجع السابق .

اعتبر السودان جزء لا ينفصل من مصر لأن الدول صاحبة الامتيازات كانت ستطالب فوراً بتلك الامتيازات لرعاياها فى السودان . ومقدمة هذا الاتفاق واضحة فى القطع بأن انجلتره لم تكن تقصد الاشتراك مع مصر فى الحقوق السياسية الخاصة بالسيادة بل «وضع نظام مخصوص لأجل «إدارة» الأقاليم المفتتحة وسن القوانين اللازمة لها » .

وليس أدل على تمصر السودان منذ أقدم عصور التاريخ وعلى أن كل هذه المحاولات الاستعمارية لفصله عن مصر إنما هى اعتداء على الوضع الطبيعى من اسمه المصرى القديم فان المصريين سموه « نوب » وحرّف القوم هذا اللفظ بعد ذلك إلى « نوبه » أو « نوبيا » و « نوب » بالمصرية تعنى الذهب فبلاد النوبة تعنى بلاد الذهب أو بلاد الكنوز كما يسميها أهلها الحاليون

ولكن تصريح ٢١ مارس عام ١٨٩٩ لم يقض على الخلاف بين فرنسا وانجلتره نهائياً فعاد يتجدد . واستدعى الأمر فى عام ١٩٠٤ توقيع سلسلة اتفاقات بين وزير الخارجية الانجليزية المركيز لانسدون Lansdowne وسفير فرنسا فى لندن مسيو بول كامبون Paul Cambon ذكر فيها بشأن مصر أن الدولتين اتفقتا على أن النية قد انصرفت إلى عدم تغيير الحالة السياسية التى نشأت من الاحتلال الانجليزى لمصر وأن فرنسا لن تعارض عمل انجلترة فى مصر بطلب تحديد وقت معين ينتهى بعده احتلالها لمصر !

وهذه الاتفاقات التى وقعت فى ٨ ابريل عام ١٩٠٤ تحسر القناع عن الأطماع الاستعمارية وتظهر بجلاء خشية الدولتين الأوربيتين الاستعماريتين — انجلتره وفرنسا — قيام دولة متماسكة الأجزاء تشمل مصر والأقطار العربية المجاورة لها . وقد تجلت هذه الخشية — مع مزيد الأسف — عندما قسمت بعض الأقطار العربية ، التى كانت على مدى

التاريخ أجزاء من الدولة المصرية العربية تقسيماً مرتجلاً لم تراع فيه أية اعتبارات تاريخية أو جغرافية أو جنسية فوضعت فلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الانجليزى وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى .

١٠ — ولكن كل هذه الجهود التى بذلها ساسة الدول الاستعمارية فى خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تقض على شعور الأقطار العربية التى تدين غالبية سكانها بالاسلام بواجب الاندماج فى اتحاد يجمعها ويشركها فى الأسرة الدولية كوحدة سياسية . وقد لمس هذا الشعور جميع المستشرقين الذين توفروا على دراسة هذه الأقطار العربية . فمنهم من قرر أن « أمانى العرب لازالت متماثلة وأصبح مشروع التفاهم المشترك بين فروع دوحة الأسرة العربية العظيمة بقصد التحرر من ربقة ممقوتة يظهر بوضوح يوماً بعد يوم . . والاضطرابات التى هزت الشرق هزات عنيفة فى السنوات العديدة الماضية ، ليست مجرد حوادث انفرادية فى امكان قوة منظمة أن تكبحها وتردها إلى نصاب الأمن فالفكرة العربية قد استيقظت وأخذت تتشكل بل هى جنسية تستعيد مركزها فى مصير الاسلام بعد أن سحقت فى الماضى » [١] .

وقد استمر زعماء الأقطار العربية التى تكون منطقة الشرق الأدنى وفصلتها الاعتبارات الاستعمارية عن بعضها فصلا متعسفا يدعون إلى إعادة إنشاء وحدة سياسية تجمعها فى دوله واحدة . فمنهم من ذهب إلى أنه « إذا أريد بالأمبراطورية العربية مجموعة البلدان التى اتحدت فى لغتها وعقيدتها ومبدأ ثقافتها واتصال تاريخها وتجاور أراضيها فهذه الأمبراطورية موجودة

---

(١) Denis de Rivoyre — كتاب « العرب الحقيقيون وبلادهم » الذى صدر بالفرنسية عام ١٨٨٤ — من تعليق المستشرق الانجليزى نيفيل باربر فى العدد ٢٤ من مجلة المستمع العربى

وربما كانت هى — وهى بهذا الشكل — أقرب إلى الوحدة المتضامنة منها إلى الحلف المتراخى . أما إذا أريد بالأمبراطورية العربية بلدانا خاضعة لسلطان واحد وتشريع واحد وهيئة تنفيذية واحدة فهذه غير موجودة طبعا ولكنها يقدر لها الوجود متى اشتدت فيها أنواع الاتحادات المعنوية المذكورة أولا »[١] وقد تحدث نفس صاحب هذا الرأى عن الروابط المعنوية التى تربط مصر بالشام فذكر أنه قد «تغنى بها الكتاب والشعراء وأن مما يؤيدها « المصلحة المادية الناشئة عن وجودها على بابى الطريق الذى يربط آسيا بأفريقيا . ناهيك بما فى هذين القطرين من الخصائص الطبيعية التى يتمم بعضها بعضاً ... فمن الوجهة المعنوية نحن أمبراطورية شاء الاقليميون الضيقون منا أم أبوا . . واذا قدر لنا أن نرى من يغار على تبادل محصولنا ويهش لزوال الحواجز بيننا . . فان يوم الأمبراطورية العربية بمعنييه الروحى والمادى لا يكون بعيداً » .

وقد اهتم أكثر من مفكر مصرى بهذا الموضوع الخطير الذى يهم كافة الأقطار العربية التى تكون الشرق الأدنى . فدعا بعضهم إلى انشاء « اتحاد نيلى » يجمع مصر والسودان والاريترية وأوغندة ونحن وإن كنا نؤيد هذا الشطر إلا أننا يدهشنا شطره الآخر الذى يزعم أن «شعوب الأمم العربية تختلف مصالحها الجوهرية لا باختلاف أطوار شعوبها وحده بل باختلاف مواقعها الجغرافية ومبادئها السياسية »[٢] لأننا أثبتنا فى هذا الفصل أن التاريخ القديم والحديث يشهدان شهادة قاطعة بان المصالح الجوهرية

(١) الدكتور عبدالرحمن شهبندر الزعيم السورى الكبير : من مقال « الأمبراطورية العربية . هل يقدر لها العودة إلى الوجود » — مجلة « الهلال » عدد أبريل عام ١٩٣٩ ص ٦٠ وهو العدد الخاص عن « العرب والاسلام فى العصر الحديث » .

(٢) فؤاد أباظه باشا — مجلة « المصور » العدد ٩٤٩ .

للشعوب المجاورة لمصر التى تتكلم العربية وتدين غالبية سكانها بالاسلام كانت دائما واحدة لاتناقض ولا اختلاف بينها وأن هذه المصالح هى التى جمعت بين هذه الشعوب وألفت بينها ، كما أن الاعتبارات الجغرافية لم تكن قط عقبة فى سبيل إنشاء دولة واحدة من أقطار تختلف مواقعها الجغرافية فالولايات المتحدة الامريكية بولاياتها الثمانية والأربعين التى تختلف العشرات منها عن العشرات الأخرى فى الموقع الجغرافى ، والمناخ ، والحاصلات الزراعية .والانتاج الصناعى والتى يقع بعضها على المحيط الاطلنطى والبعض الآخر على المحيط الباسفيكى . والتى يقطنها مواطنون من أصول متباينة بين انجلوسكسونية ولاتينية وسلتية ، يدينون بعقائد دينية مختلفة بين بروستانت وكاثوليك ويهود — هذه الولايات المتحدة الامريكية دليل قاطع على أن تجربة إنشاء دولة من شعوب مختلفة مصيرها النجاح اذا اتحدت المشارب والأهداف واللغة مهما اختلفت العوامل الجغرافية

ودعا البعض الآخر الى انشاء اتحاد مركزى Federal state بين مصر وسوريا ولبنان وفلسطين فقط [١] ونحن وإن كنا نوافق على هذا الشطر إلا اننا لاندرى لم يقتصر الاتحاد المقترح على هذه الأقطار فقط مع أن الاعتبارات التاريخية التى قدمناها فى هذا الفصل تقطع بأن هذا الاتحاد لم يكن قاصراً عليها بل جمع غيرها من الأقطار المجاورة لها التى تربطها بها روابط اللغة والدين والجنس والمصلحة .

فالرأى العملى الذى ينسجم مع منطق التاريخ هو إنشاء اتحاد يجمع بين الأقطار التى أشرنا اليها فى هذا الفصل . وهذا الرأى لاندعو اليه

---

(١) الدكتور يوسف قابيل — « التطبيق القانونى للحلف العربى الممكن » مجلة الهلال عدد نوفمبر عام ١٩٤١ وهو عدد خاص عن « العرب والديموقراطية » .

رغبة فى أن يكون لمصر مركز ممتاز فى هذا الاتحاد فان جميع أعضائه ـ فلسطين وسوريا ولبنان والحجاز واليمن والسودان واريترية وأوغندة ـ سيكون لكل منها مالمصر من الحقوق . على أن يحتفظ كل عضو ببرلمانه يسن له التشريع الملائم له . ولكل عضو ميزانيته الخاصة . ولكل عضو حكومته المحلية الخاصة . إلا أن البرلمان الاتحادى فى القاهرة يتكون من نواب وشيوخ يمثلون كافة أعضاء الاتحاد . كل بحسب عدد سكانه . كما أن التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد فى الخارج سيكون موحداً وجيشه واحداً وجنسية مواطنيه واحدة ، و يرى الذين يؤمنون معنا بفكرة هذا الاتحاد من أبناء الأقطار العربية الشقيقة أن موقف مصر إزاء العالم العربى انها ليست فقط جزء منه بل هى قلبه « وأن الحقائق تثبت لنا أن أهل وادى النيل شعب عربى والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التى لا يمكن تغييرها كما لا يمكن تغيير مجرى النيل بجعله يجرى من الشمال الى الجنوب بدلا من جريه من الجنوب الى الشمال »[١]

واهتم المستشرقون بهذا الموضوع فى الأعوام الأخيرة اهتماماً كبيراً فعقدوا مؤتمراً خلال شهر يونيو عام ١٩٤٢ فى جامعة شيكاغو ألقيت فيه عدة محاضرات عن الشرق الأدنى وقد تحدث فيه الاستاذ كوينسى رايت Qnincy Wright الاستاذ بجامعة شيكاجو فذكر أن أقطار الشرق الأدنى تحتوى على كميات كبيرة من زيت البترول كما أنها تنتج مقادير وافرة من محاصيل البلاد الحارة وان هذا الثراء هو الذى جعلها مسرحا للتنافس السياسى بين الدول العظمى وتحدث الكونت سفورزا Sforza فقرر « أن

---

(١) الدكتور يوسف هيكل ، حاكم صلح مدينة نابلس بفلسطين ، كتاب « نحو الوحدة العربية » ص ٣٤ و ٣٥ .

الشرق الأدنى لم يعد بمثابة منطقة مستكنة بين أوروبا وآسيا تتحرك دوله وقبائله بأهواء الدول العظمى »

وتحدث الأستاذ جيب Gibb فسلم بأن اتجاه الأقطار العربية إلى إنشاء جيش واحد تحت هيئة أركان حرب واحدة وإلى توحيد السياسة الخارجية معقول وعملى جدا . »

إن إعادة انشاء دولة واحدة من أقطار الشرق الأدنى فى شكل « اتحاد مركزى » يتفق مع الاتجاه الدولى الجديد الذى نشأ بسبب الحرب الأخيرة من جمع الشعوب التى تربطها بعضها بالبعض الآخر روابط اللغة والدين والجنس فى وحدات إقليمية ، وفى يقينى أن مفكرى هذه الأقطار الشقيقة إذا آمنوا بهذه الفكرة — كما أؤمن — فان كل عقبة تبدو الآن كأداء فى وجه هذه الدولة المنشودة ستتلاشى ، لأن أية عقبة يجب ألا تعيق أحياء مجد تاريخى هو كل مايزهو به أهل هذه الأقطار على أهل سائر أقطار العالم

إفريقيا للإفريقيين

المراجع الأجنبية

G. Sergi : Mediteranean Race.

Albert Pingaud : L'Empire Français.

H. G. Wells : The Outlook for Homo Sapiens.

Mancini : La Vie des peuples dans l'Humanité.

W. W. Tarn : Alexander and the Unity of Mankind.

Leon Abensour : Woodrow Wilson.

Clarence K. Streit : Union Now.

Mac Crone : Race Attitudes in South Africa.

A. G. Russell : Colour, Race, and Empire.

Orde Browne : African Labourer.

Huxley and Haddon : We Europeans.

Arther de Gopineau : Traité sur l,inègalite des races humaines.

A. C. Haddon : The Races of Mankind.

Gregory : The Menace of Colour.

Maciver : Community.

Steer : Judgment on German Africa.

McDougall : Psychology.

W. E. B. Dubois : Worlds of Colour

James : History of Negro Revolt.

Macmillan : Africa Emegrent.

The Encyclapaedia Britannica : word "Africa."

وغيرها من المراجع المشار إليها فى أبواب « أهداف العمل لمصر » و « مصر مقبرة الغزاة » و « مصر والاقطار العربية »

من الظواهر الجغرافية فى القارة الافريقية أنه لاتوجد فى قلبها حواجز طبيعية تفصل بين شعوبها . وانعدام هذه الحواجز هو الذى ساعد على هجرة القبائل الافريقية من مكان إلى آخر . وامتزاج هذه القبائل والتشابه فى ثقافتها . كما أنه لاتوجد أنواع متباينة من الأجناس المختلفة التى تكوّن سكان هذه القارة الذين ترتفع بينهم نسبة الاجناس الرحالة ارتفاعاً عظيما [١]

وأجناس افريقيا الرئيسية هى .

١ — سكان الغابات والمناطق غير المطروقة [٢]

٢ — الزنوج [٣]

٣ — الحاميون الذين يقطنون شرق القاره [٤]

٤ — الليبيون [٥]

٥ — الساميون [٦]

والقسم الأول من هذه الأجناس يتميز بقصر قامته و بسمرة بشرته سمرة مائلة إلى الاصفرار . وكانوا يقطنون فى بادىء الأمر فى جنوب أفريقية فاضطرتهم قبائل الهوتنتوت [٧] والبانتو [٨] وهى قبائل تقطن جنوب غرب

---

(١) The Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشر — كلمة Africa عند الكلام على الاجناس الافريقية Ethnology

(٢) Bushman

(٣) Negro

(٤) Eastern Hamite

(٥) Libyan

(٦) Semite

(٧) Hottentots

(٨) Bantu

أفريقية ، الى الهجرة فوصلوا إلى بحيرة تنجانيقا . ولاشك أن أوجه الشبه كبيرة بين سكان الغابات و بين « الهوتنتوت » و « البانتو » وهى تبدو فى قصر القامة والبشرة السمراء المصفرة .

أما القسم الثانى وهو الزنوج فيسكنون باقى وسط أفريقيا بما فيه وادى النيل الأعلى ـ باستثناء الحبشة والسومال ـ كما أن هذه المنطقة من وسط أفريقيا تسكنها القبائل الرحالة التى تكونت من امتزاج الليبيين فى الشمال بالعرب الساميين والحاميين فى الشمال الشرقى من القارة . والقسم الثالث من الأجناس الأفريقية وهم الحاميون يسكنون السومال والحبشة ولو أن الأحباش قد امتزجوا بالساميين فتكون من هذا الامتزاج جنس سامى حامى .

والقسم الرابع وهم الليبيون . المعروفون بالبربر [١] يسكنون شمال أفريقيا فى الجزائر ومراكش . وهم شعب أبيض تأثر بالطابع العربى . والقسم الخامس وهم الساميون . يسكنون شمال شرق القارة أى السودان ومصر وما جاورها .

و يجمع الاخصائيون فى علم الاجناس ethnology على أن الشعب الذى أحدث أهم انقلاب «جنسى» فى شعوب أفريقيا هم العرب . ففى الشمال وفى الشرق ترك العرب أثراً واسعا راسخاً بنشر الدين الاسلامى فى جميع أرجاء السودان كما أن هؤلاء الاخصائيين يقررون أن الجغرافية « الفسيولوجية » لافريقيا لاتضع عقبات طبيعية فى طريق الحركات « الجنسية » أى رحلة الأجناس المختلفة من مكان إلى آخر وامتزاجها [٢] و يقررون أيضا أن

---

(١) Berbers

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٦

العرب كانوا منذ عصر ماقبل التاريخ مختلطين بالمصريين وكان نشاطهم باديا فى شمال أفريقيا[١] . وقد ثبتوا اقدامهم على شاطىء أفريقيا الشرقى وكانوا يقوموا بحملات مستمرة لاقتناص العبيد من الداخل حتى وصلوا الى «الكونجو» وليس الجنس المعروف باسم «السواحلى» الذى يقطن شاطىء أفريقيا الشرقى من خط الاستواء الى درجة ١٦ عرض جنوباً إلا مزيجا من العرب و «البانتو»

كما أن الامتزاج بين الليبيين والزنوج قد أثمر جنسا يدين بالاسلام ويقطن شاطىء أفريقيا الغربى من شمال النيجر الى حوض النيل .

١ — والواقع التاريخى الذى لانزاع فيه أن أول ماعرف عن أفريقيا هو نصفها الشمالى فكان اسم افريقيا يطلق بادىء الأمر على البلاد المجاورة لقرطاجة التى أنشئت فى عام ٨٠٠ قبل الميلاد . ولا يزال العرب يطلقون اسم افريقيا على تونس . كما أن المدنية المصرية القديمة هى أول مدنية ظهرت فى القارة الافريقية . والفينيقيون هم أول من استعمر الجزء الافريقى من شاطىء البحر الأبيض المتوسط قبل الميلاد بألف سنة ، والمصريون وأهل قرطاجة هم أول من حاول الوصول الى الجهات المجهولة من القارة بواسطة البحر .

ويروى هيرودوتس المؤرخ الاغريقى أن الملك نيخو Necho الذى حكم مصر عام ٦٠٠ قبل الميلاد قد أرسل بعثة قوامها بحارة فينيقيون طافت حول شاطىء افريقية من البحر الأحمر الى البحر الأبيض المتوسط وقد قضت هذه البعثة ثلاثة أعوام فى اتمام مهمتها .

ومن الثابت تاريخياً أن الرحالة هانو Hanno القرطاجى قد أتم العمل

(١) G: Sergi: Mediteranean Race.

الذى بدأه المصريون فى عام ٦٠٠ قبل الميلاد نطاف شاطىء أفريقية الغربى حتى سيراليون فى عام ٥٢٠ قبل الميلاد .

وكما أحدث العرب أهم انقلاب «جنسى» فى شعوب أفريقيا باختلاطهم بأهلها ـ أحدثوا أيضا أبرز أثر فى تاريخها . وقد بدأ غزو العرب للقارة الافريقية فى القرن السابع الميلادى وهم مؤمنون بالاسلام . وتابعوا الغزو من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى

وفى القرون الثامن والتاسع والعاشر بعد الميلاد كان عدد العرب فى أفريقيا قليلا ولكن هجرتهم إليها زادت فى القرن الحادى عشر وامتزجوا بالبربر الذين كانوا قد أصبحوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالاسلام . وامتد النفوذ العربى إلى الجنوب عبر الصحراء واستقروا فى شرق أفريقيا . ويتضح أن العرب كانوا قد وصلوا إليه من قبل واستغلوا أراضيه الغنية كمباسا وزاولوا التجارة فى الوقت الذى كانت تجهل فيه أوروبا كل هذه الأقطار الأفريقية كما كان يجهلها عرب شمال أفريقيا .

ولم يقتصر النفوذ العربى على شمال وشرق أفريقيا بل امتد أيضاً إلى غرب القارة . فأسس الأغلب — وهو أحد قواد هارون الرشيد — الأسرة الأغلبية التى كانت تحكم باسم خليفة المسلمين .

وفى أوائل القرن العاشر تأسست الدولة الفاطميـة فى مصر وأنشأت مدينة القاهرة — أكبر مدن القارة — عام ٩٦٨ بعد الميلاد وامتد سلطانها إلى المحيط الأطلنطى .

وقد تجلى فى العرب الذين هاجروا إلى أفريقيا ما امتاز به جنسهم من روح المغامرة والتحمس فى بث الدعوة للاسلام وحفزتهم هذه الميزة على اكتشاف مجاهل القاهرة ، وأعانهم استعمال الجمل فى قطع المسافات الطويلة

عبر الصحراء . فامتد نفوذهم إلى « سنيجامبيا » وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالاسلام عام ١٥٩١ . ولا شك أن أول وصف علمى لشاطىء أفريقيا الشرقى هو وصف الرحالة « ابن بطوطة » الذى وصل إليه عام ١٣٣٢ وأعطى صورة دقيقة للمدن الاسلامية الزاهرة كمباسا وغيرها . (١)

وفى خلال القرن الخامس عشر الميلادى — وكانت مصر تتزعم جميع البلاد العربية — طاف الرحالة البرتغالى فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء مالندى malindi فى شاطىء شرق أفريقيا عام ١٤٩٨ وكان يخيل إلى الأوروبيين أنهم أسبق الناس إلى اكتشاف هذا الشاطىء ولكن فاسكوده جاما التقى هناك بالرحالة العربى أحمد بن مجيد وقد استعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحالة العربى من خرط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة لدى الأوروبيين وقدظل اسم أحمد بن مجيد إلى أقل من قرن مضى يذكر على أنه أمهر بحار طاف بسواحل أفريقيا الشرقية بل هناك من يذهب الى أنه هو الذى اكتشف البوصلة البحرية (٢)

وظل للعرب — حتى بعدأن بدأت أطماع الدول الأوروبيةالاستعمارية تتطلع الى أفريقيا — فضل السبق فى اكتشاف مجاهل القارة . فقدانشأوا مدينة زنزبار فى الجزيرة التى تحمل اسمها عام ١٨٣٢ ومنها بدأوا رحلاتهم الى بحيرات شرق افريقيا .

---

(١) The Encyclopaedia Britannica — كلمة Afria

(٢) Richard Burton من بحث عن « البحارة العرب » العدد ١٠ السنة ٤ مجلة « المستمع العربى »

وقد تحدثنا فى الباب السابق عن فضل مصر فى اكتشاف منابع النيل وفى وضع أول خرط علمية عرفها العالم من شاطىء شرق افريقيا .

٢ — وكانت البرتغال هى أول دولة أوربية تطلعت أطماعها الاستعمارية إلى افريقيا . فقبل رحلة فاسكو ده جاما كان الأمير هنرى «الملاح» ابن الملك جون قد وصل إلى غينيا فى افريقيا عام ١٤٨٠ كما وصل ال المناطق التى كان قد سبقه العرب إليها بين سوفالا ورأس جرد فوى Guardafui . ولم يلبث أن استولى على موزمبيق التى كانت أكبر مدينة إسلامية فى شرق افريقيا .

٣ — وفى عام ١٦٢٠ استولى ضابطان من ضباط شركة الهند الشرقية على خليج المائدة Table Bay باسم الملك جيمس الأول ملك انجلترة بحجة الخشية من أن تحرم المراكب الإنجليزية من الحصول على الماء إلا برخصة وتظاهرت لندن إذ ذاك بأنها لاتقر هذا العمل !

٤ — وفى عام ١٦٥١ أرسلت شركة الهند الشرقية الهولندية ثلاث مراكب صغيرة تحت قيادة جان فان ريبيك Jan van Riebeck فوصل الى خليج المائدة فى ٦ ابريل عام ١٦٥٢ وكان وصوله أول استقرار للجنس الأبيض الأوروبى فى هذه المنطقة .

ولعل أدق وصف للأطماع الاستعمارية التى حدت بالدول الأوروبية إلى انتزاع أراضى افريقيا من أهلها الذين كانوا قد امتزجوا فى أغلب أنحائها بالعرب وتأثروا بثقافتهم ودانوا بدينهم ، وتكلموا لغتهم مدة تزيد على عشرة قرون أن أولئك المستعمرين الأوروبيين «لم يهتموا بأهالى القاره أو بأرضهم إلا بالقدر الذى يمكن المستعمرين من الحصول بأبخس ثمن وأقل عناء على

مايملكه أولئك الاهالى أو لنقلهم إلى الخارج ليعملوا كعبيد فى مزارعهم بأمريكا »[١]

٥ — وقد احتلت انجلتره مستعمرة الكاب فى عام ١٨٠٦ وان كانت حروبها مع نابليون قد عاقتها عن ضمها رسمياً إليها إلا فى عام ١٨١٦ . ولكن اهتمام انجلتره بالتوسع قل عام ١٨٥٤ عندما منح الاستقلال لبوير نهر أورانج . وكاد هذا الاهتمام ينعدم عام ١٨٦٥ عند ما وافق مجلس العموم بالاجماع على تقرير اللجنة التى انتدبها لبحث شؤون غرب افريقيا فقد نص فى هذا التقرير على أن « كل توسع فى الحصول على أرض أو تولى السلطة وكل معاهدة تقضى بمنح أية حماية للقبائل الوطنية يجب أن يقف كل اجراء بشأنه »[٢] ولكن هذا القرار الذى صدر بالاجماع من مجلس العموم لم يلبث أن تبخر أمام التيار الاستعمارى الذى جرف ساسه انجلتره بعد أن احتلت مصر عام ١٨٨٢ بحجة حماية الخديوى توفيق من ثورة العرابيين . وأصبح الحلم الجميل الذى يداعب خيال المستعمرين الأنجليز هو انشاء خط واحد من الممتلكات ومناطق النفوذ البريطانى يمتد من جنوب افريقيا إلى شمالها . أى من مستعمرة الكاب الى القاهرة .

ولعل أصدق تعبير عن هذه العقلية الاستعمارية هو ماذكره رودس Rhodes — الذى سميت مستعمرة « روديسيا » باسمه — فى مذكراته إذ قرر « إذا كان هناك إله فان مايجب أن يطلبه منى هو أن أصبغ أوسع مساحة ممكنة من خارطة افريقيا باللون الأحمر البريطانى » .

---

(١) The Encyclopœdia Britannica كلمة Africa الطبعة الثانية عام ١٧٩٧

(٢) All further extention of territory or assumption of government, or new treaty offering any protection to native tribes, would be inexpedient.

وكان «رودس» يعلق فى منزله خارطة تنقسم إلى قسمين أعلاهما فيه الهلال المصري وأسفلهما فيه أل Springbok أى رمز جنوب افريقيا ، وبين الاثنين العلم البريطانى وهو يشير بذلك إلى مشروع وصل شمال افريقيا بجنوبها بسكة حديدية تمر فى أراض بريطانية وكان يرى أن إنشاء هذه السكة يحقق حلم انجلتره فى السيادة على افريقيا من الشمال إلى الجنوب (١)

كما أن خير تحليل لحقيقة الدوافع التى حفزت المكتشفين الى ارتياد مجاهل افريقية هو ما كتبه أميل لودفيج عن رحلة الرحالة الامريكى ستانلى الذى أوفدته انجلتره إلى مديرية خط الاستواء بحجة انقاذ أمين باشامديرها المصرى بعد أن انقطعت الصلة بينه وبين القاهرة بسبب ثورة المهدى فى السودان إذ قرر « هل كان يعنى هذا الرجل الحديدى ـ مهما كانت تقواه ـ هل كان يعنى محطم الصخور كما كان الزنوج يدعونه عند ما كان يرغمهم على تحطيم الصخور القائمة على شاطىء النهر — هل كان يعنى ستانلى بانقاذ حياة الزنوج ، أليس هو الذى كان يطارد الزنوج بمدفع الرجل الأبيض وقبضه يد الفاتح ؟ لم إذن يحشد كتبه بالاشارة إلى مبادىء المسيحية والحب الأخوى وهى المبادىء التى لم يشعر بها قط ؟ .. إن ستانلى كان ينظر دائماً الى الرجل الأسود نظرته الى عدو » (٢)

وقد بلغ الأمر فى استعمار أوروبا لأفريقيا إلى حد اعتبار أراضى هذه القارة ضياعاً للدول الأوروبية المستعمرة تباع وتشترى بعدمساومة بين البائع

(١) Emile Ludwig : Genius and Character من دراسة عن Rhodes ص ٨٩ و ٩٢ .

(٢) Rmile Ludwig : Cenius and Garactea من دراسة عن Stanley ص ٧٠ و ٧٥ .

والمشترى على تحديد الثمن . فقد دفعت انجلترا إلى البرتغال فى عام ١٨٧٦ تسعين ألفاً من الجنيهات مقابل تعديل الحدود بينهما تحديداً من مقتضاه عد « كمبرلى » وحقول الماس التى بها أرضاً انجليزية . وفى ١٢ ابريل عام ١٨٧٧ أعلنت انجلتره ضم الترنسفال إليها بعد أن كانت معروفة باسم «جمهورية جنوب افريقيا »

٦ — وبدأت بلجيكا ترنو الى القاره الافريقية البكر . فدعا الملك ليو بولد فى سبتمبر عام ١٨٧٦ الى مؤتمر عقد ببروكسل وحضره ممثلو بريطانيا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا لبحث « خير الوسائل لاكتشاف وتمدين افريقيا وفتح داخل القارة للتجارة والصناعة ! » . وقرر المؤتمر إنشاء « الجمعية الدولية الأفريقية » The International African Association وأسست كل دولة من الدول التى مثلت فى المؤتمر لجاناً فرعية كان مفروضا أن تتعاون فى العمل ، ولكن الأطماع الاستعمارية جعلت تلك اللجان تعمل منفردة ومستقلة عن الجمعية ولم يتحقق الأمل فى جعل تقدم افريقيا ملحوظاً فيه صالح الدول المؤتمرة معاً . وانتهى الأمر بأن أصبحت الجمعية بلجيكية وتحولت أخيراً الى إنشاء دولة الكونجو الحرة تحت سيادة الملك ليو بولد الشخصية ، وقد زعم ستانلى الذى أرسله الملك ليو بولد لاكتشاف منابع الكونجو بأن مهمته هى « بذر المؤسسات المتمدينة على شاطىء النهر وغزو القارة غزواً سلمياً وصياغتها فى قالب ينسجم مع الأفكار العصرية وإنشاء مقاطعات وطنية يستطيع التاجر الأوروبى أن يتبادل فيها الاتجار مع الافريقى الأسود على أن تسود علاقتهما فكرة العدالة والقانون والنظام »

ولكن هذه المبادىء لم تلبث أن انهارت أمام الأطماع الاستعمارية.

فاصطدم ستانلى ـ الذى أنشأ مدينة «ليو بولدفيل» نسبة الى الملك ليو بولد ـ بالمكتشف الفرنسى سافورنان ده براتزا Savorgnan de Brazza الذى كان قد أرسله الفرع الفرنسى للجمعية الدولية الافريقية فأنشأ «برازافيل» ـ نسبة إلى اسمه ـ واتفق مع حاكم من الحكام الوطنيين زعم أن سيادته تمتد الى المقاطعة التى اكتشفها ستانلى .

٧ــوفى ابريل عام ١٨٨٤ وجه الأمير بسمارك مستشار الدولة الألمانية رسالة بواسطة القائم بأعمال السفارة الألمانية فى لندن إلى الحكومة الانجليزية يخبرها فيها بأن الدكتور جوستاف ناتشيجال Gustav Nachtigal القنصل الألمانى العام موفد فى مهمة إلى شاطىء غرب أفريقيا لاتمام المعلومات التى لدى وزارة الخارجية الألمانية عن حالة التجارة الألمانية هناك ... ولكن لم تلبث ألمانيا أن أعلنت فى ٥ يوليو عام ١٨٨٤ أنها وقعت معاهدة مع ملك توجو Togo وضعت فيها مملكته تحت الحماية الألمانية . وبعد أسبوع وضعت الكمرون تحت الحماية الألمانية هى الأخرى .

وفى نفس ١٨٨٤ تألفت فى ألمانيا جمعية للاستعمار الألمانى وقد اندمجت هــذه الجمعية فى عام ١٨٨٧ مع « الجمعية الالمانية الاستعمارية » German Colonial Society التى كانت قد ألفت عام ١٨٨٢ . وفى ٤ نوفمبر عام ١٨٨٤ وصل إلى زنزبار ثلاثة شبان ألمان زعموا أنهم سياح ــوهذا دليل على أن التقليد الذى اتبعه الجستابو الألمانى فى الحرب العالمية الأخيرة من التسلل إلى الدول التى لألمانيا رغبة فى البطش بها قبل إيقاع هذا البطش ، يعود إلى التاريخ البعيد ــ وتنكروا فى زى ميكانيكيين مع أنهم كانوا فى الحقيقة أعضاء فى جمعية الاستعمار الألمانى وكانوا يخفون أعلاماً ألمانية وكمية وافرة من صيغ معاهدات معتزم عقدها مع الحكام الوطنيين.

تقضى بوضع بلادهم تحت الحماية الألمانية أوضمها إلى ألمانيا !

وقد عقدت الدول الأوروبية التى لها أطماع استعمارية فى أفريقيا فى أواخر عام ١٨٨٤ مؤتمراً ببرلين انتهى إلى عقدمعاهدةوقعت فى ٢٦ فبراير عام ١٨٨٥ نص فيها على أن الدول الموقعة تتعهد عند الحصول على جزء جديد من أراضى أفريقيا أوعند إعلان الحماية عليه بأن تعلن ذلك إلى باقى الدول الموقعة ! ولكن بينما كان المؤتمر منعقداً وقعت معاهدة فى «مبوزينى» Mbuzini ورفع العلم الألمانى للمرة الأولى فى شرق أفريقيا

٨ — وكان الرأى العام الفرنسى بعد الحرب السبعينية يميل إلى تركيز كل المجهود الحربى الفرنسى للثأر من ألمانيا بعد الويلات التى مرت به عام ١٨٧٠ وإلى أن توزيع قوى الجيش الفرنسى خارج فرنسا ليس فى صالح الدفاع الوطنى عنها . ولكن لما تولى جول فافر الوزارة تبين ـ كما يزعم المؤرخون الفرنسيون ـ « أن مستقبل فرنسا يحتم اتباع سياسة التوسع الخارجى فى اتجاهات أربع هى تونس والكونجو ومراكش والهند الصينية» ومن العجيب أن هؤلاء المؤرخين يرون أن ذلك الاتجاه فى الرأى العام الفرنسى الذى أشرنا اليه كان يدعو الى الأسف لأنه لم يمكن فرنسا من التوسع فى الاستعمار ! (١)

ومما يثير ذعر الضمير الانسانى أن أراضى أفريقيا كانت تقسم بين الدول الأوروبية على موائد المؤتمرات دون أى نظر إلى إرادة أهلها كأنهم عبيد تنتقل ملكيتهم إلى الدول التى يرسو عليها مزاد الأرض التى يسكنونها . أو الدول التى ترى الشهوات « الدبلوماسية » أن تنال تلك

---

(١) Albert Pingaud — من بحث عن L'Empire Français فى « لاروس الشهرى » عدد ابريل عام ١٩٤٠ ص ٦٠٩ .

الأرض دون غيرها . فان بسمارك قد « عرض امتلاك تونس على فرنسا » [1] فلم تلبث قوة فرنسية صغيرة أن احتلت تونس ووقعت مع « الباى » معاهدة «باردو» Bardo فى مايو عام ١٨٨١ التى بمقتضاها قبل الباى وضع بلاده تحت الحماية الفرنسية !

وقد تبين المستعمرون الفرنسيون أن احتلال فرنسا لأعالى النيل يمكنها من استعادة مركزها فى الشؤون المصرية . وهوالمركزالذى فقدته بعد اشتراكها مع انجلترة فى التدخل لقمع الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ولذلك عقدت مع دولة الكونجو الحرة الخاضعة لسيادة ملك بلجيكا معاهدة فى ٢٧ ابريل عام ١٧٨٧ تنازلت فيها الأخيرة لفرنسا عن الأراضى الواقعة شرق نهر أو بانجىUbangi

وفى ٢١ مارس عام ١٨٩٩ — عقب حادث الضابط مارشان فى فاشودة — أعلن التصريح الانجليزى الفرنسى الذى تحققت بهأطماع فرنسا فى وصل ممتلكاتها فى شمال أفريقيا وغربها ووسطها بعضها بالبعض الآخر — فى مقابل انسحابها من وادى النيل .

وكانت فرنسا قبل ذلك قد استولت على تمبوكتو عام ١٨٩٣ وفى نفس العام على داهومى بعد أن تغلبت على مقاومة ملكها « بيهانزين» Behanzin وقبضت فى عام ١٨٩٨ على الملك « ساموری » Samory الذى كان أهم خصم لفرنسا فى تلك المنطقة و بذلك تم لفرنسا انشاء « افريقيا الغربية الفرنسية » بين عامى ١٩٠٢ — ١٩٠٤

ولكن لما رأت انجلتره تسرب النفوذ الفرنسى من شاطىء افريقيا

---

(١) المرجع السابق

الغربي إلى داخل القارة تقدم الانجليز من النيجر ومن لاجوس ومن ساحل الذهب الذى كان تحت الحماية الانجليزية فتجدد الخلاف بين الدولتين ولكنه حسم فى الاتفاقية التى عقدت بباريس فى ١٤ يونيو عام ١٨٩٨ بين سير ادموند مونسون Sir Edmund Monson ومسيو هانوتو Hanotaux

وكما أن حلم انجلتره الاستعمارى فى افريقيا من انشاء خط من الممتلكات البريطانية والبلاد الواقعة تحت النفوذ البريطانى من مستعمرة الكاب إلى مصر قد بددته ألمانيا باستيلائها على مناطق تقطع هذا الخط ، فان حلم فرنسا الاستعمارى فى نفس القارة من بسط نفوذها على «حزام» من الأراضي تمتد من الغرب الى الشرق . من السنغال على المحيط الاطلنطى إلى «أوبوك» Obock على البحر الأحمر حيث أنشأت فرنسا مدينة عام ١٨٨٤ قد بددته انجلتره بالتصريح الذى أعلنته الدولتان فى ٢١ مارس عام ١٨٩٩ بعد حادث «فاشودة»

***

هذا موجز سريع لتاريخ استعمار أوروبا لافريقيا ، وهو تاريخ حاشد بالأمثلة الناطقة على تجرد المستعمرين من كل عاطفة نبيلة نحو أهالى القارة الأصليين وعلى جشع أولئك المستعمرين فى الاستيلاء على أكثر ما يمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات القارة . وهو تاريخ تقضى الصراحة بأن نقرر أنه لا يشرف المدنية الأوروبية قط . فان المستعمرين البيض الذين تزخر كتبهم بالاشارة إلى مبادىء الحرية والمساواة والديموقراطية لم يفكروا فى محاربة النخاسة فى مستعمراتهم الافريقية إلا بعد أن خطت مصر الخطوة الأولى فى محاربتها بالفرمان الذى أصدره الخديوى اسماعيل فى أول ابريل عام ١٨٦٩ والذى عهد به الى سير صمويل بيكر القضاء على النخاسة فى كل

المناطق التى يمتد إليها النفوذ المصرى . فبعد انقضاء تسعة عشر عاماً على بدء مصر جهادها التاريخى لمحو النخاسة تحركت أوروبا فى خريف عام ١٨٨٨ بدعوة وجهها لورد سالسبورى إلى ملك بلجيكا يعرض عليه فيها عقد مؤتمر فى بروكسل لبحث الوسائل « لالغاء تجارة الرقيق فى افريقيا الغاء تدريجياً وغلق أسواق النخاسة الخارجية التى تستورد العبيد من افريقيا حالا » وقد أصدر ذلك المؤتمر قراره فى ٢ يوليو عام ١٨٩٠ فكان مما جاء فيه « وضع نهاية للجرائم التى نتجت عن الاتجار فى عبيد افريقيا وحماية سكان افريقيا الاصليين حماية فعلية من الانقراض »

فاذا نظرنا الى خارطة افريقيا وجدنا ان مساحتها تبلغ ٨١١ر٤٥٨ر١١ ميلا مربعاً . تسكن الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها العظمى بالاسلام نصف هذه المساحة . فمصر والسودان تبلغ مساحتهما ٠٠٠ر٦٠٠ر١ ميل مربع واوغندة — اى مديرية خط الاستواء المصرية — مساحتها ٠٠٠ر١٢٥ ميل مربع وممتلكات فرنسا الافريقية تسكنها كلها تلك الشعوب وتبلغ مساحتها ٩٥٠ر٨٦٦ر٣ ميلاً مربعا ، وممتلكات إيطاليا — إلى ماقبل الحرب الأخيرة — كلها تسكنها نفس تلك الشعوب وتبلغ مساحتها ٠٠٠ر٦٠٠ ميل مربع وهى مجموع مساحة اريتريه والصومال الايطالى وطرابلس . فاذا أضفنا الى ذلك الدول الافريقية الثلاث المستقلة وهى « ليبيريا » ومراكش والحبشة التى مجموع مساحتها ٠٠٠ر٦١٣ ميل مربع لوجدنا أن هذه الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام تقطن مساحة تبلغ نحو سبعة ملايين ميل مربع وعلى وجه التحديد تبلغ ٩٥٠ر٨٠٤ر٦ ميلا مربعاً تقع شمال خط الاستواء . أما باقى افريقيا الذى يقع جنوب هذا الخط

فتقطنه شعوب آرية تدين غالبيتها بالمسيحية وتتكلم لغات أوروبية متشابهة كالهولندية والانجليزية والألمانية

ولا شك أن الوضع السياسى الحالى لافريقيا يتنافى منافاة تامة مع المبادىء السياسية الدولية القويمة التى نبتت منذ عدة أجيال والتى تطورت مع الزمن فارتفعت الى مرتبة العقائد عقب الحرب العالمية الماضية . ثم ارتفعت خلال الحرب العالمية الأخيرة إلى مرتبة الايمان . تلك المبادىء التى تقر لكل مجموعة من الشعوب ، يجمع بينها وحدة الجنس واللغة والدين، بأن تقرر مصيرها بنفسها دون تدخل أجنبى وأن تعيش الحياة التى تناسبها وتتفق مع مصالحها الخاصة وتمكنها من التعاون تعاوناً مثمراً خيراً حراً مع المجموعات العالمية الأخرى .

ولكن الدول الأوروبية المستعمرة رغم تبينها سمو تلك المبادىء لم تشأ مطلقاً محاولة تطبيقها فى أفريقيا خشية المساس بمصالحها الخاصة . لأن ضعف أفريقيا السياسى والاقتصادى هو الهدف الذى يرمى اليه الاستعمار و «الجماعات الأوروبية تنتهز وقت ضعف الشعوب الشرقية للحصول على مراكز قوية فى الميادين السياسية والاقتصادية وعلى امتيازات تجارية وأرض خصبة ولاطالة مدة الضعف الذى ينتاب الجماعة الشرقية وهى فى دور التكوين وأن أكبر نفع يعود على الجماعة الشرقية من الاستقلال السياسى هو أنه يمكنها من حماية نفسها من الضعف الذى يبدو عادة فى فترة التطور ويفسح المجال أمامها لتسخير موارد الدولة وقوتها التشريعية ووسائل تنظيمها فى خدمة التقدم الثقافى والاقتصادى . على حين أن البلاد الواقعة تحت الحماية أو الانتداب أو غيرهما من أشكال التوسع الاستعمارى تترك بلا حماية فى وقت

هى أحوج ماتكون فيه الى الحماية وذلك يعود بأبلغ الضرر على تقدمها فى المستقبل »(١) .

وكانت الدول المستعمرة تزعم دائما أنها توطد أقدامها فى الأراضى المستعمرة لتنقذ أهلها الأصليين من استبداد حكامهم بهم ولتنشر العدل والمدنية بين ربوعها . ولكن المفكرين المنصفين من الأوروبيين أنفسهم ابوا أن يقبلوا هذا الزعم المضلل وكشفوا الستار عما يخفيه خلفه . وضربوا مثلا على ذلك شعبا من الشعوب التى لاتزال تعيش على الفطرة هو شعب «جينيا الجديدة» الذى وضع بعد الحرب العالمية الماضيه تحت انتداب استراليا . فان عدد أفراد هذا الشعب لا يعدو نصف مليون يعيشون فى جماعات مستقلة . كل تعتز بعاداتها الخاصة ولها مميزاتها الفنية والاجتماعية وكانت الى وقت وضعها تحت الانتداب تحل مشاكلها الناشئة من تزايد عدد السكان بشن حروب فيما بينها لم تكن آثارها مدمرة إلى الحد الذى يقضى على كيانها وسرعان ماتستقر الأمور فى نصابها بعد تلك الحروب فلما تولت حكومة « كانبيرا » الأمر منعت تلك الحروب ولكن اخضاع ذلك الشعب للاستغلال الاقتصادى ربما عاد عليه بمآس يفوق ضررها ما كانت تعود به الحروب التى كان يخوض غمارها (٢) .

كما ضربوا مثلا بايران قبل نهضتها الأخيرة وقرروا أنه من الواضح للعيان أن سياسة الأوروبيين المتوحشة التى توحى بها الأثرة مع افتقار الحكومة الوطنية إلى الكفاءة هما السببان اللذان دفعا بذلك القطر الى الخراب .

---

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East p. 90

(٢) H. G. Wells : The Outlook for Homo Sapiens P. 29

الاقتصادى والاجتماعى [1] وأن تاريخ تلك الفترة فى إيران هو مثل لما كان يجرى فى سائر أقطار الشرق .

وقرر الثقاة فى تاريخ الاستعمار الأوروبى لافريقيا والشرق الأدنى أن بعض الحكومات الأوروبية والجاليات الأجنبية التى لها مصالح كبيرة تتعمد الابقاء على النظم الرجعية القديمة فى جميع الأقطار التي يمتد اليها نفوذها [2] وهم يردون على ما يزعمه بعض المستعمرين الأوروبيين من أن المدنية الاسلامية قد تسببت فى تقهقر الشرق بأن « الأثر الثقافى العظيم الذى أحدثه العالم الاسلامى فى المسيحيـــة لا يزال يبدو إلى اليوم فى الـكلمات التى لا حصر لها ذات الأصل العربى التى توجد فى لغاتنا الأوروبية . ولم يقف ذلك الأثر على المنتجات المادية التى انتقلت إلينا من الشرق بل إن الخطوط العريضة لحياتنا الاقتصادية . والمثل العليا لفروسية القرون الوسطى بما فيها شعر الحب الذى كان يتغنى به النبلاء الألمان Minnesingers قد انتقلت إلينا أيضاً من ذلك الشرق واتخذت مظهراً أوروبيا . كما أن أساس كل تعليمنا فى العلوم الطبيعية ، حتى الآراء الجديدة فى الفلسفة وعلم الأديان التى أحدثت أثراً كبيراً أتت إلينا خلال ذلك العصر من الاسلام . ولم يكن تغلب الغرب على الشرق راجعاً إلى تفوق الغرب وإنما إلى تفــكك وحدة العرب واتساع امبراطوريتهم اتساعاً كبيراً » [3] .

---

(١) رأى Hans Heinrich Schader فى كتاب Morgan Shuster الذى أسماه The Starngling of Persia

(٢) Hans Kohn المرجع السابق ص ٩٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٨٠ .

ولا شك أن الدعوة إلى إقرار مبدأ «أفريقيا للافريقيين» على أساس تقسيم القارة الأفريقيـــة إلى مجموعتين من الشعوب . إحداهما الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين بالاسلام والأخرى الشعوب الآرية التى تتكلم لغات أوروبية وتدين بالمسيحية تجد ما يدعمها من نفس الفكرة الاسلامية لأن الغرض من هذه الدعوة هو اقرار المبدأ الديموقراطى الذى يرد لأفراد كل مجموعة من المجموعتين الأفريقيتين حقهم الانسانى فى الحرية ، وإبعاد كل تدخل أجنبي ، ورفع العار الذى وصم الأفريقيين منذ اعتبرت قارتهم مباءة للاستعمار ، وضيعة للمستعمرين ، وسلعة تباع وتشترى بما عليها من الآدميين . وذلك الاستعمار هو الذى خلق تلك التعبيرات المذلة التى لا تزال تزخر بها الكتب الأوروبية والتى تفرق بين «الأبيض» و« الأسود » و « السيد » و « العبد » . ولعل أدق وصف لما يتضمنه الاسلام من ديموقراطية هو ماقرره أحد المستشرقين الثقاة فى تاريخ الشرق إذ قرر « أن روح المساواة الأخوية بين كل المسلمين تسود الاسلام ، وهذه الروح أخذ بها الغرب ودرسها ولكنها غريبة عن طريقة الحياة فى المسيحية والصلف الجنسى ، أى الاعتزاز بجنس معين، كان لا وجود له فى الاسلام فكل من آمن بالله يقبل كأخ له نفس الحقوق التى لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أم من الجنس الأصفر أو أوروبياً . ونجاح الاسلام العظيم فى أفريقيا إلى اليوم يعود إلى هذه الروح »[١] .

١ — وتقسيم العالم إلى مجموعات حرة ذات سيادة تكون كل منها أمما متحدة فى الجنس والدين واللغة ليس بدعة . بل إن فكرة إزالة

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

الفوارق بين أفراد الجنس البشرى قد نبتت فى أفريقيا . وفى مصر على وجه التحديد . وكانت أوسع مدى مما ندعو إليه . فقد كان الاسكندر الأكبر بعد أن نقل عاصمة أمبراطوريته إلى الإسكندرية « أول من دعا إلى تحقيق أسمى انقلاب فى شكل العالم ، وأول رجل عرف لنا فكّر فى أن الناس إخوة وفى وحدة الجنس الإنسانى »[١] .

٢ — وليس هذا البحث مجال التوسع فى شرح تطور هذه الفكرة التى ترمى إلى إزالة الفوارق بين أفراد الجنس البشرى . ويكفى أن نذكر أن هذه الفكرة قد اتخذت شكلا خاصاً فى منتصف القرن التاسع عشر . عند ما دعا باسكال مانشينى Mancini فى المحاضرات التى ألقاها على طلبته بجامعة تورين غام ١٨٥١ فى القانون الدولى العام إلى اعطاء كل أمة تجمع بين أفرادها رابطة الجنس واللغة والأفكار الحق فى أن تتحد لتصبح دولة . وأن كل دولة تتكون من أفراد ليست بينهم تلك الرابطة إنما تقوم على الاستبداد والعدوان وهذه النظرية من أهم المبررات التى استند إليها جاريبالدى فى توحيد إيطاليا وفصلها عن النمسا[٢] وكانت بعض شعوب أوروبا فى ذلك العهد ترزح تحت نير استبداد بعض الدول العظمى التى تفرض على تلك الشعوب التى تختلف عنها جنساً ولغة ودينا جنسيتها وسيادتها فآمن بتلك النظرية البلجيكيون وروج لها علامتهم لوران Laurent الذى قرر أن الأمم من عند الله les nations sont de Dieu فلا يملك الانسان أن يتحكم فى مصيرها

---

(١) W. W. Tarn: Alexander and the Unity of Mankind

(٢) Mancini : La Vie des peuples dans L'Humanité

٣ – وفى ٨ يناير عام ١٩١٨ أعلن الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson مبادئه السامية فى تنظيم العالم وهى المبادىء التى تقوم على أساس الاعتقاد بامكان الوصول بأفراد الجنس البشرى إلى الكمال وبامكان بناء عالم أمين جدير بالسكنى sûr et habitable عالم لا تعيش فيه الشعوب كالذئاب تفترس الشعوب الأخرى . وقد رأى ويلسون أنه لبناء هذا العالم الجديد يجب البدء بالقضاء على قلاع الاستبداد القديمة وعلى الحكومات التى تستند فى حكمها إلى الطغيان . ثم دعوة كل الأمم الديمقراطية إلى نبذ السياسة القديمة التى كانت تحبذ عقد محالفات خاصة بزعم المحافظة على التوازن الدولى ، مع أن تلك المعاهدات فى الواقع تحمل بين سطورها جراثيم الحروب . وهذه المبادىء التى دعا إليها ويلسون يعود أصلها البعيد إلى روح الأخاء العظيمة والرغبة فى السمو اللتين أوحيتا إلى المهاجرين بالهجرة إلى العالم الجديد وإلى حب الحرية والشعور بقداسة حق الشعوب . وهذه المبادىء تتأثر أيضاً بفلسفة التاريخ الأمريكى . ذلك التاريخ الذى صنعه خليط من الشعوب تنشب بينها الحروب فى الأراضى التى أنجبتها ومع ذلك فهى متماسكة متحدة فى شعب واحد تحت السماء الجديدة التى أظلتها [١] .

٤ — ولكن جذوة الدعوة إلى « الويلسونية » عقب الحرب العالمية الماضية خبت بسبب أطماع الدول الأوروبية المستعمرة فترة من الزمن ثم لم تلبث أن اضطرمت بعدئذ فى مؤتمر مونتفيديو عام ١٩٣٣ الذى

---

(١) Leon Abensour : Woodrow Wilson, Larouse Mensuel, Avril 1924, P. 442.

ضم ممثلين للجمهوريات الأمريكية فقد « أكدت هذه الجمهوريات يقينها وتشبثها بطائفة من المبادىء الأساسية التى يقوم بمقتضاها التعاون بين الأمم ويستتبب النظام الدولى على أساسها ومن بين هذه المبادىء المبدأ القائل بأن كل أمة صغيرة كانت أمة كبيرة تتساوى مع الأمم الأخرى أمام القانون ، وثمة مبدأ آخر هو حق كل أمة فى إحداث أى تطور فى مقوماتها وأنظمتها دون أى تدخل من جانب الدول الأخرى »(١) .

٥ — وفى ١٤ أغسطس عام ١٩٤١ عقد على ظهر السفينة بوتوماك ميثاق الأطلنطى Atlantic Charter بين الرئيس روزفلت ومستر تشرشل تقرر فيه

« ا — أن البلدين لا يجريان وراء توسع إقليمى أو غيره .

ب — أنهما يرغبان فى ألا يحدث أى تغيير إقليمى لا يتفق مع الرغبات الحرة لأهل البلاد التى يعنيها الأمر .

ج — أنهما يحترمان حقوق كل شعب فى اختيار شكل الحكومة التى يعيش فى ظلها ويرغبان فى أن يريا حقوق السيادة والحكم الذاتى قد ردت إلى أولئك الذين حرموا منها قهراً »(٢) .

٦ — وعقب مؤتمر موسكو الذى عقد من ١٩ الى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٤٣

---

(١) تلخيص مستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة لقرارات مؤتمر مونتفديو فى خطبته يوم ١٥ ابريل عام ١٩٤٤ فى اتحاد الأمم الأمريكية .

(٢) They respect the right of all peoples to choose the form of government under which they will live, and they wish to see sovereign rights and self — government restored to those who have been forcibly deprived of them.

قرر مجلس الشيوخ الأمريكي أنه « يرى من الضروري أن ينشأ في أقرب وقت ممكن نظام دولي عام أساسه المساواة في السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام وتفتح عضويته لجميع الدول المحبة للسلام صغيرة كانت أو كبيرة وذلك من أجل المحافظة على السلام والأمن بين الدول » وقد عرف هذا القرار باسم مقترحه عضو مجلس الشيوخ مستر كونالي Conally

وقد جاء قرار « كونالي » مؤيدا لقرار مشابه له أصدره مجلس النواب وعرف باسم قرار « فولبريت » Fulbright .

٧ — صرح مستر سمنر ويلز وكيل وزارة الخارجية في خطاب ألقاه بفندق « وولدورف آستوريا » في أواخر عام ١٩٤٣ بمناسبة الاحتفال بانقضاء خمسة وعشرين عاما على تأسيس « جمعية السياسة الخارجية » بعد أن لزم الصمت أحد عشر عاما بسبب قيود وظيفته فقال « إنني مقتنع بأن كل تنظيم دولي يجب أن يقوم على الأساس الآتي وهو أنه « لا حق لأي شعب في حكم شعب آخر وأن الشعوب التي لها حقوق على شعوب أخرى يجب أن تعترف بأن رقابتها عليها ينبغي قبل كل شيء أن توجه لتحقيق غرض واحد وهو إعداد تلك الشعوب الأجنبية عنها للاضطلاع بتبعات الحكومة المستقلة في أسرع وقت ممكن » .

٨ — خطب مستر أنتوني إيدن وزير الخارجية الانجليزية في مجلس الكنيسة الحرة في أواخر شهر ابريل عام ١٩٤٤ فقال « إن الأمم المتحدة تقبل أن يتألف العالم بعد الحرب من جماعة تضم الدول المستقلة ولكن ينبغي ألا يخطر في البال قيام دولة عليا تشمل الجميع » .

٩ — قرر مستر كوردل هل وزير خارجيـــة الولايات المتحدة في

خطابه التاريخى الذى ضمنه مبادئه الستة لاقرار السلام بعد الحرب .

« ا — أن الحرية حق مقرر لكل أمة استطاعت أن تثبت أنها صالحة لأن تتقلد وتتحمل التبعات التى تفرضها الحرية .

ب — أن كل دولة صاحبة سيادة — صغيرة كانت أو كبيرة — هى فى القانون و بمقتضى القانون مساوية تماما لكل دولة أخرى .

ج — جميع الأمم — صغيرة كانت أو كبيرة — التى تحترم حقوق الدول الأخرى لها الحق فى أن تتحرر من أى تدخل فى شؤونها الداخلية بواسطة أية دولة أجنبية » .

١٠ — وقد جاء فى مؤتمر يالتا الذى عقد فى فبراير عام ١٩٤٥ بين الرئيس روزفلت ومستر تشرشل والماريشال ستالين أن « لجميع الشعوب الحق فى اختيار شكل الحكومة التى ستعيش فى ظلها وأن تعاد حقوق السيادة والحكم الذاتى إلى الشعوب التى سلبتها منها الأمم المعتدية » وإن كان هذا القرار قد جاء منصرفاً إلى دول أوروبا المحررة إلا أن منطق المبادىء السامية التى أوحت إلى ساسة العالم بوضعه لا يمكن أن يفرق عند تطبيقه بين أوروبا وغيرها من قارات العالم . . .

١١ — وقد عقدت الدول الأمريكية مؤتمراً من ٢١ فبراير إلى ٨ مارس عام ١٩٤٥ لبحث مشاكل الحرب والسلم بمدينة المكسيك وكان من أهم نتائج هذا الموتمر التصريح المعروف باسم تصريح « شابولتبيك » The Act of Chapultepec وقد نص فى البند الخامس منه على :

ا — تحريم غزو الأراضي وعدم الاعتراف بأى امتلاك لأراض

ضمت بالقوة (أول مؤتمر لدول أمريكا عام ١٨٩٠) .

ب — إنزال العقاب بكل دولة تتدخل فى الشئون الداخلية لدولة أخرى (المؤتمر الدولى السابع لدول أمريكا ١٩٣٣ ومؤتمر الدول الأمريكية للمحافظة على السلم ١٩٣٦) .

وكان من نتيجة مؤتمر ١٩٤٥ المشار إليه أن صرحت الدول المشتركة فيه :

أولا — أن جميع الدول ذات السيادة متساوية قانوناً فى الحقوق.

ثانيا — أن كل دولة لها الحق فى أن تحصل على احترام شخصيتها واستقلالها من جانب باقى اعضاء المجموعة الدولية .

١٢ — وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٤٥ وافق مندوبو خمسين دولة فى مؤتمر سان فرنسيسكو على « ميثاق الأمم المتحدة » الذى ينص فى البند الثانى من الفصل الأول منه فى باب « أغراض الهيئــة ومبادئها » على « إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة فى الحقوق وتقرير مصير الشعوب والتوسل بغير ذلك من الأساليب الملائمة لتعزيز السلم » .

وينص فى البند الثالث من نفس الفصل على :

« تحقيق التعاون على حل المشاكل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية وإشاعة تشجيع احترام الحقوق الانسانية والحريات الأساسية للناس جميعا من غير تمييز بين الأجناس واللغات والأديان أو تفريق بين الرجال والنساء » .

١٣ — وفى ٦ يوليو عام ١٩٤٥ اذاع هارولدستيسن Harold Stassen أحد مندوبى الولايات المتحدة فى مؤتمر سان فرنسسكو أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية تقوم على اثنى عشر مبدأ . والمبدأ الرابع يقرر :

« إن الولايات المتحدة تعتبر أن رخاءها وأمنها مرتبطان برخاء وأمن الشعوب الأخرى . وأنها ستقوى اقتصادها فى نفس الوقت الذى ستساهم فيه فى تحسين مستوى المعيشة فى البلاد الأخرى » .

والمبدأ الحادى عشر يقرر :

« أن الولايات المتحدة تعترف بكرامة الانسان وهى كرامة لازمة لكيانه وبحقه الذى لا يمكن التنازل عنه فى الحياة وفى الحرية وفى البحث عن السعادة »

١٤ — وفى ٢٥ أكتوبر عام ١٩٤٥ أعلن سمنر ولز — وكيل خارجية الولايات المتحدة السابق — « أن رفض الاعتراف بحق الشعوب الشرقية فى الاستقلال سينتهى إلى قيام اضطرابات من شمال أفريقيا إلى المحيط الباسفيكى .... إن الشعب الأمريكى يتبين الآن أكثر من أى وقت مضى أنه لا يوجد أقل أمل فى بناء عالم يسوده السلم والرخاء مادامت لا تزال توجد مئات من ملايين الناس فى آسيا وفى الشرق الأوسط لا يستطيعون نيل حريتهم التى عقدوا العزم على نيلها » .

١٥ — وفى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٥ ألقى الرئيس ترومان خطاباً فى « سنترال بارك » بمناسبة الاحتفال بيوم الحرية أعلن فيه المبادىء الاثنى عشر التى تقوم عليها سياسة الولايات المتحدة الخارجية . فقرر فى المبدأ الثانى :

« نحن نؤمن بما لجميع الشعوب التى حرمت حقوق السيادة والحكم الذاتى بالقوة من حق فى إستعادة هذه الحقوق »[١] .

وقرر المبدأ الرابع :

« نحن نعتقد أن من حق جميع الشعوب المستعدة للحكم الذاتى بأن يسمح لها بأن تختار بحرية نظام الحكم الذى تريد أن تعيش فى ظله دون أن يكون لأحد دخل فى هذا الاختيار وهذا الكلام ينطبق على أوروبا وآسيا وافريقيا مثلما ينطبق على نصف الكرة الغربى »[٢] .

ولقد قدمنا أن فكرة إزالة الفوارق بين أفراد الجنس البشرى قد بدأت أوسع مدى مما نطالب به . ولكنها تواضعت بعد ذلك فاكتفت بإنشاء مجموعات مستقلة من الشعوب المنسجمة . ومما يدعم وجهة نظرنا فى الدعوة إلى إقرار مبدأ « أفريقيا للافريقيين » على أساس إزالة الفوارق التى افتعلتها الحدود الجغرافية غير الطبيعية فى هذه القارة بإملاء من المطامع الاستعمارية ، أن تلك الفكرة السامية التى كان الاسكندر الأكبر أول من فكر فيها — والتى شع ضوؤها من مصر كما ذكرنا — عادت تبدو متسعة الأفق كما بدأت . فهناك من يدعو إلى أن الوقت أزف لإنشاء وحدة مكونة من خمسة عشرة دولة مستقلة من الدول الديموقراطية وهى الولايات المتحدة

---

(١) We believe in the eventual return of sovereign rights and self-government to all peoples who have been deprived of them by force.

(٢) We belive all Peoples who are prepared for self-government should be permitted to choose their own form of Government by their own freely-expressed choice without interference from any foreign source. This is true in Europe, Asia, and Africa, as well as in the western hemisphere.

الأمريكية والمجموعة البريطانيةوفنلندة وفرنسا وهولندة و بلجيكاوسويسرة ودنمارك والنرويج والسويد . وليس الغرض من هذه الدعوة إنشاء عصبة أمم أو عقد تحالف بين هذه الدول و إنما الغرض خلق «اتحاد» Federation من الطراز الأمريكي له سياسة خارجية واحدة وعملة واحدة وجيش واحد ورقابة واحدة على التجارة الداخلية والخارجية وجنسية واحدة [١] .

ولا شك أن انتصار الديمقراطية فى الحرب العالمية الأخيرة هو أكبر مبرر ومدعم لمبدأ « أفريقيا للافريقيين » فاذا كانت « الديموقراطية هى حركة مضادة تتطلب حماية الفرد من الدولة . فهى ضد الفاشستية وضد النازية وضد الشيوعية وضد الحرب . لأنه لا توجد حرية فى دولة خاضعة لنظام الحكم العرفى وعلى هذا فهى انكار لحق الدولة فى التدخل فى حياة الفرد إلا فى سبيل المصلحة العامة و بموافقة المجموع » [٢] فان من السهل ادراك أن هذه الديموقراطية تستدعى من باب أولى حماية الدولة من تدخل دولة أخرى فى شؤونها الخاصة . وحماية مجموعة شعوب من تدخل مجموعة شعوب أخرى غريبة عنها فى شؤونها الخاصة .

وهذا الشعور بوجوب حماية القارة الأفريقية من الشذوذ السياسى والجغرافى الذى افتعلته المطامع الاستعمارية ، قد أثار سمطس Smuts رئيس وزارة اتحاد جنوب أفريقية فصرح أمام برلمان بريتوريا بأن « أفريقيا على وشك مواجهة عهد جديد فى تاريخها وأنها ستصطدم بمشاكل لا تقل تعقداً عن مشاكل القارات الأخرى وأن النظام الإستعمارى تشوبه

(١) Clairence K.Streit : Union Now. — وقدذكر H.G.Wells عند اشارته لهذا الكتاب فى كتابه The Outlook for Homo sapiens أنه أثار اهتماما عظيما فى أمريكا وبريطانيا .

(٢) G. H. Wells — المرجع السابق ص ٣٧ .

نقائص عديدة وتصرفات شاذة تتنافى مع المنطق كالابقاء مثلا على بلاد واقعة تحت الحماية داخلة فى نطاق اتحاد جنوب أفريقيا . إن خارطة أفريقيا عجيبة من العجائب . إننى أعترف بأنى أشعر بأن العالم مدين بشىء من الفضل لا لجنوب أفريقيا فحسب بل لكل أفريقيا . فقد ساهمنا بنصيب فعّال فى الحرب . والطريقة التى أدينا بها واجبنا فى ظروف عصيبة أغلب الوقت تعطينا الحق فى ان نطالب بشىء » وقد ختم كلامه بقوله « إننا نضع بطبيعة الحال جنوب افريقيا فى المكان الأول من اهتمامنا ، فمصالحنا ومصالح جيراننا الأفريقين تنال أكبر قسط من اهتمامنا »[(١)].

وقد صرح مسيو فيليكس ايبوى حاكم افريقيا الاستوائية الفرنسية — الذى توفى اخيراً فى القاهرة — فى حديث نشرته صحف جوهانسبرج عن الحركة الجديدة التى ترمى إلى توثيق التعاون بين بلدان افريقيا وأقطارها بأنه « ليس هناك أى تفكير فى قبول رقابة دولية على افريقيا وانه يأمل أن تتفق الأقطار الأفريقية على تبادل منتجاتها والعمل على تقدمها الصناعى » واقترح أن تؤلف جمعية دائمة من ممثلى البلاد الأفريقية لتشجيع هذه الفكرة

فالطريق ممهد لقبول فكرة « الجامعة الأفريقية » وبالتالى الدعوة إلى إقرار مبدأ «أفريقيا للافريقيين » . ومن الصعوبات التى قد تقف فى وجه هذه الجامعة وهذا المبدأ المنشودين ما يحتمل من أن تأخذ السياسة الاستعمارية العزه بالاثم فتتشبث بما تزعم أنه لها شبه حق مكتسب ! ومما

---

(١) خطاب الجنرال سمطس فى آخر مارس عام ١٩٤٤ — جريدة La Bourse Egyptienne عدد ٦ ابريل سنة ١٩٤٤

يؤيد هذا الاحتمال أن حزب العمال الانجليزى — وهو أقرب الأحزاب الانجليزية إلى المبادىء الديموقراطية — قد أعلن عن اتجاه سياسته الاستعمارية فى مذكرة نشرها عقب المؤتمر الذى عقد فى أواخر عام ١٩٤٣ جعل عنوانها « نظام المستعمرات الدولى » فقرر أن امتلاك أراض مستعمرة يعطى للدولة التى تملكها مزايا « ستراتيجية » واقتصادية كبيرة. وإن كانت هذه المزايا قد بالغت فيها الدول التى لا تملك مستعمرات . وأن امتلاك أراض مستعمرة يكاد منذ زمن طويل يكون احتكاراً ناله عدد قليل من الدول الأوروبية . ولذا اعتبرت الدول الأخرى — وخاصة التى تمتاز بنظام اقتصادى متقدم — حرمانها من الاستعمار عملاً لا عدل فيه ! وحاولت مراراً القضاء على الاحتكار الاستعمارى الذى نالته بعض الامبراطوريات الأوروبية . وأشارت المذكرة إلى أنه لما كانت الأراضى الصالحة للاستغلال قد تم توزيعها فانه لا يمكن إلا إلتماس حلين لهذه المشكلة : الالتجاء إلى القوة لغزو أملاك الغير أو توزيع الإمبراطوريات الاستعمارية توزيعاً جديداً سلمياً . وقد استبعدت المذكرة الحل الثانى باعتبار أن هذا التوزيع الجديد قد يخل بتوازن المواد الأولية . واقترح حزب العمال حلا لمشكلة الاستعمار الأخذ بالاتفاقين المعقودين فى برلين عام ١٨٨٥ وفى بروكسل عام ١٨٩٠ الخاصين بحوض الكونجو واللذين أدمجا فى معاهدة « سان جيرمان آن لاى » عام ١٩١٩ وهذه الاتفاقات ترمى إلى تطبيق نظرية « الباب المفتوح » . فهى تعطى لكل طرف فيها الحق فى الحصول على المواد الأولية دون السماح بتفضيل تجارة دولة معينة على دولة أخرى . وتقترح مذكرة حزب العمال الانجليزى التوسع فى تطبيق نظرية الباب المفتوح على جميع المستعمرات وإقامة رقابة دولية عليها

مستوحاة من نظام الانتدابات الذى ابتدعته عصبـــة الأمم عقب الحرب العالمية الماضية [١].

ولـكن حزب العمال ينسى —أو يتناسى — أن هذه الأراضى التى خضعت قهراً لنظام الاستعمار ليست ضيـاعاً تملـكها الإمبراطوريات الأوروبية . وأن أهل هذه الأراضى هم —من وجهة النظر الديموقراطية — أصحاب الرأى الأول والأخير فى تقرير مصيرهم واختيار شكل حكومتهم . وتحديد موقفهم من المواد الأولية التى ينتجونها وتبين مصلحتهم الحقيقية فى طريقة توجيه تجارتهم وصناعتهم .

ولا أدرى إذا كانت سياسة حزب العمال الانجليزية الاستعمارية قد تطورت فى العامين الأخيرين تطوراً تأثر باعتبارات الحرب العالمية الأخيرة وبالمبادىء السامية التى أوحت بقرارات مؤتمر موسكو فى أكتوبر ١٩٤٣ و « يالتا » فى فبراير ١٩٤٥ فقـد قرر مؤتمر الحزب الذى عقـد فى « بلاكبول » فى مايو ١٩٤٥ فى صدد سياسة الحزب الخارجية ، تأييـد مبدأ « الأمن الدولى الذى تشترك فى اقراره كافة الدول ويستند إلى هيئة عالمية تتوفر لها الارادة والقوة اللتان تمكنانها من منع الاعتداء والتى يجب على بريطانيا أن تتأهب للاشتراك فيها بالسلاح والرجال . والحزب يقطع على نفسه عهداً لا نقض له بألا يحرض الدول الصغيرة على التحرش بالدول الـكبيرة » ولـكن الظاهر — إلى الآن — أن هذا الحزب الذى لبرنامجه مسحة ديموقراطية لا تزال تعوزه الشجاعة الـكافية لإعلان

(١) Arthur Wauters : Le Statut Futur des Colonies, La Bourse Egyptienne, 7 Janvier 1944

سياسة صريحة تنفر من الاستعمار وتنكر أخطاء الماضى وتقر الشعوب المستعمرة أو الموضوعة تحت الحماية أو الانتداب على حقها فى حكم نفسها بنفسها. قد تقف إذن بعض الصعوبات فى وجه مبدأ «أفريقيا للافريقيين» الذى ندعو إليه ، ولكن إذا تعاونت مصر — كزعيمة لمجموعة الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها العظمى بالاسلام والتى تقع فى شمال خط الاستواء — مع اتحاد جنوب أفريقية — كزعيم لمجموعة الشعوب الآرية التى تتكلم لغات أوروبية وتدين غالبيتها العظمى بالمسيحية وتقع جنوب ذلك الخط — فى الدفاع عن المبدأ والترويج له — إذا تم هذا التعاون بين مصر واتحاد جنوب أفريقيا فاننى أومن بأن فكرة « الجامعة الأفريقية » ستخرج إلى حيز التنفيذ فى وقت أقرب مما يتصوره الكثيرون . ومما يساعد على هذا التفاؤل أن الضمير العالمى قد بدأ يشمئز من الأفكار الرجعية والأوضاع العتيقة التى تميز بين الناس بسبب ألوان بشرتهم أو اختلاف أوطانهم من الوجهة الجغرافية . أو تباين دياناتهم .

ففكرة البرتغاليين فى استعمار أفريقيا واستعباد الأفريقيين كانت تقوم على أساس أن ديانة هؤلاء الافريقيين هى ديانة عبيد ! ولذلك فانه كان يحق للافريقى أن يتحرر من الرق إذا اعتنق الدين المسيحى . كما أن الهولنديين الذين جاؤوا إلى « الكاب » بين عامى ١٥٩٥ و ١٦٥٠ كانوا قد تلقوا تربية دينية تقليدية جعلت للدين لديهم أهمية قصوى ، وجعلتهم يتعلقون بديانتهم المسيحية تعلقاً شديداً و يتخذونه حداً فاصلا بينهم و بين ال « هوتنتوت » سكان البلاد الأصليين الذين لم يلبثوا أن حرموا من أراضى بلادهم والذين كانوا يعتبرون أعداء للهولنديين المستعمرين . ولكن نظرية اتخاذ الدين أساساً للتفرقة لاتزال قائمة إلى اليوم فإذا اعتنق أحد

« الهوتنتوت » الدين المسيحى واستوفى اجراءات « التعميد» استطاع أن يتغلب على الفارق الذى يعود إلى اختلاف اللون . وقد ثبت فى أوائل عهد الهولنديين بجنوب أفريقيا أن عدداً من النساء السود اللآتى جيء بهن من « البنجال » بالهند إلى « الكاب » قد سمح للبعض بالتزوج منهن بعد أن اعتنق المسيحية . كما أن الطفل الذى هو ثمرة زواج بين أوروبى وزنجية كان يعد عضواً فى المجتمع الأوروبى و بعد تعليمه « وتعميده » تمنح له الحرية [١] .

و يعترف الاخصائيون الأوروبيون فى مشكلة الألوان والأجناس أن الدين الاسلامى يقوم على أساس ديموقرطى وطيد فهو لا يفرق بين الناس بسبب اختلاف ألوانهم [٢] وأنه قد لوحظ أن الأفريقى على استعداد دائم لخدمة العربى المسلم بل أنه شغوف إلى اليوم بخدمته [٣] . الضمير العالمى قد بدأ يشمئز من تلك التفرقة التقليدية الآثمة بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو الموقع الجغرافى . فهناك من يذهب إلى أن كلمة جنس race ، كما كانت تستعمل علمياً للتفرقة بين الجماعات الانسانية ، قد فقدت حدة معناها . وأنه من المرغوب فيه أن تستبعد كلمة « جنس » من قاموس العلم [٤] .

وهناك من يذهب إلى أن أرسطو نفسه فى الفصول الأولى من كتابه

---

(١) Mac Crone : Race Attitudes in South Africa-P 7,45 طبعة ١٩٣٧ .

(٢) A. G. Russell : Colour, Race, and Empire-p.13

(٣) Orde Browne : African Labourer-P 14

(٤) Huxley and Haddon - We Europeans-P 91

« السياسة » Politics قد تعرض لنظم الرق التى كانت ضرورة من ضرورات السياسة والاقتصاد فى عهده ولم يعدُ أن قال إن بعض الرجال يجب أن يكونوا عبيدا أينما حلوا ، والبعض الآخر لا يجب أن يسترقوا إلا فى مكان معين و إن بعض العبيد لهم أرواح الأحرار والبعض لهم أجسام الأحرار فقط ولكن أرسطو لم يستطع أن يحكم على جنس بأ كمله بأن يكون مجموعة أرقاء بسبب لا يمكن تغييره هو الدم أو اللون . وفى الواقع يبدو من الصعب أن يجد الباحث فى تاريخ اليونان أو روما أى دليل على التفرقة بين الناس بسبب الجنس أو اللون . ولم تظهر محاولة هذه التفرقة إلا فى القرن التاسع عشر . وكان الغرض من تلك المحاولة تأييد السيادة السياسية والإقتصادية التى كان يزعمها الرجل الأبيض على الأجناس الأخرى وذلك بالسعى لإثبات نوع من السيادة الغريزية فى الجنس الأبيض أو — بتعبير أضيق — فى الأجناس الشمالية Nordic (١)

وقد انتشرت تلك الفكرة الآثمة فى القرن التاسع عشر وأوحت إلى بعض الكتاب بأسس خاطئة للبحث التاريخى فذهب بعضهم إلى أهمية وجوب الدعوة إلى الابقاء على نقاء الجنس الأبيض وزعم أن كل المدنيات قد انحدرت من ذلك الجنس وأنه لولاه لما ظهرت مدنية قط على وجه الأرض (٢) وهى أسس لا تستدعى عناء الرد عليها من الوجهة التاريخية العلمية . فقد أثبتنا فى باب « مصر : مقبرة الغزاه » أن أول مدنية ظهرت

---

(١) A. G. Russell — المرجع السابق ص ١٤ .

(٢) Arthur de Gobineau: Traité sur l'inegalité des races humaines أجزاء أربعة ، صدرت بين عامى ١٨٥٣ — ١٨٥٥ .

على أرض أفريقيا فى مصر . وعلى يدى جنس غير الجنس الأبيض الشمالى .

ويذهب آخرون إلى أن أجناس البشر تنقسم إلى مالا يقل عن خمسين مجموعة تختلف كل مجموعة عن الأخرى فى المظاهر الجسدية . وهذه المجموعات إذا قسمت تقسيما أوسع لا يقل عددها عن خمسة عشر [١] ولذلك فمن العبث قسمة الجنس البشرى إلى « أبيض » و « ملوّن » لأن هذه القسمة لا تستند إلى أساس علمى . كما أن تجريد الأفريقى الأسود من الفضائل الخلقية لا يوجد له سند علمى هو الآخر فالأخصائيون فى علم الأجناس يقررون أنه يمتاز بشعوره بالمسؤولية نحو الجماعة التى يعيش فيها وقد تعلّم أن يغرق شخصيته الفردية فى حياة الجماعة التى ولد فيها . وهو لا يتردد فى المساهمة بنصيبه فى مساعدة الضعيف والمسن وفى أداء الجزاء الذى يترتب على ارتكاب أحد أفراد الجماعة التى ينتمى إليها العمل يستحق العقاب وفى احترام الحياة التعاونية التى تعيشها قبيلته . وهو لا يطمع فى الحصول على ثروة شخصية ترتفع به عن مستوى مواطنيه . كما أن زعيم القبيلة لا يستحل لنفسه أن يغتصب أموال القبيلة وأراضيها ويتصرف فيها كما يهوى . وليس لهذا الزعيم أن يتنازل لأجنبى عن أموال الجماعة التى يتزعمها لأنه ليس مالكا لهذه الأموال بل انه أمين عليها وكل أحكامه وقراراته يجب أن توحى بها مصلحة المجموع لا المصلحة الشخصية . والأفريقى يعد الكرم فضيلته الرئيسية . وهو بالاختصار يعيش فى جماعة تعد خير تصوير لنظرية « كروبوتكين » عن « المساعدة المتبادلة Mutual aid » ولذلك يشعر بتغيير مؤلم عند ما يرغم على مفارقة هذين المبدأين وينتقل الى عالم غريب

---

(١) Haddon: The races of mankind

عنه وهذه الغرابة تبدو أشد لا فى قيام هذا العالم على أسس ميكانيكية بل فى جهل هذا العالم بدين الأفريقى وشعوره نحو قبيلته وآدابه ونظرياته الخلقية (١)

ويخيل إلى الكثيرين أننا كلما اقتربنا من خط الاستواء وجدنا أن الأهالى أسود بشرة . ولكن العلم لا يقر هذه الفكرة قط. فليس صحيحاً أن الذين يعيشون فى الجو الأشد حرارة تكون بشرتهم أشد سواداً .فقد لاحظ لورد راجلان Raglan أن الزنوج الذين يعيشون فى وادى نهر « امأزون » — وهى منطقة من أشد مناطق العالم حرارة — ليسوا سوداً . ولكن لونهم مزيج من الصفرة والإسمرار . يقرب من لون «الاسكيمو » الذين يعيشون فى منطقة القطب وهى من أشد مناطق العالم برداً . بينما أهل جزيرة سيلان أقل سوادا من أهل جنوب الهند الذين هم أبعد منهم عن خط الاستواء . ويقرر ايهررليخ Ehreurlich ان الذين يعيشون فى جو بارد جاف معرضين لأشعة الشمس قد يكونون أشد سواداً من الذين يعيشون فى جو حار ورطب ولكن منازلهم داخل غابات لا تتخللها أشعة الشمس

كما أنه لم يثبت إلى اليوم بطريقة علمية أن الجلد الأسود يعطى لسكان المناطق الاستوائية وسيلة أفضل من وسائل الوقاية من حرارة الجو أو من قوة أشعة الشمس الكيماوية الخطرة . وقد يبدو أن جلد الزنجى أسمك من جلد الرجل الأبيض وانه لذلك أقل احساساً بأشعة الشمس ولكن هذا أيضاً لم يثبت كما لم يثبت من قبل أن جلده الأسود قد اكتسب لونه القاتم بسبب أشعة الشمس وبالاختصار يكاد يكون من المستحيل

---

(١) A.G. Russell — المرجع السابق ص ١٨

وضع قواعد علمية لهذا الموضوع [١] ويذهب أيضاً الاخصائيون فى علم الأجناس ومنهم الأستاذ لايد Lyde إلى أن أنف الزنجى العريض وشفتيه الغليظتين وصدغيه اللذين يبدو أنهما يحميانه من خطر ما — كل هذه المميزات الجسدية قد حبته بها الطبيعة لكى يتمكن من أن يستنشق من الأوكسيجين أكبر قدر ممكن ويدخله الى رئتيه لأن كمية الأوكسيجين فى المناطق الاستوائية أقل من كميته فى المناطق المعتدلة الجو. وقد ثبت أن لون البشرة الأسود قد يزول بسبب الظروف الطارئة كالخوف الشديد أو التقدم فى السن أو الاغماء ، ولذلك فليس مما يثير العجب أن يوجد فى المناطق الاستوائية أفراد يميل لون بشرتهم الى البياض كما أن بعض أجزاء جسم الزنجى التى لاتعرض لأشعة الشمس يغلب ألا يكون لونها أسوداً بل أصفراً . والاطفال الزنوج لايولدون سود البشرة وانما يكتسبون هذا السواد فيما بعد . ويفضل الاخصائيون فى علم الأجناس anthroplogists أن يتخذوا الشعر كمقياس لتحديد نوع الجنس وقد وضعت عدة قواعد لاتخاذ شكل الرأس مقياساً آخر لذلك التحديد [٢] ولكن هذه المحاولات قد قضى عليها العلم الحديث القائم على النظرة الواسعة الرحبة إلى بنى الانسان فتقرر بأن علم الأجناس يؤيد النتيجة المستمدة من التاريخ . « فسواء اتخذنا لون الجلد أو العينين أو الشعر أو نوع الشعر أو شكل الرأس أو المقلتين أو الصدغين أو الأنف كمقياس لتحديد نوع جنس ما فان من المستحيل النظر الى ذلك المقياس

---

(١) Gregory:The Menace of Colour

(٢) Haddon: Races of Mankind-P.5

المستمد من المميزات الجسدية كأساس علمى ثابت للاهتداء الى طراز نفسى أو اجتماعى معين يتسم به البشر» (١)

ولم يثمر تألم الضمير العالمى من تلك التفرقة الأثيمة بين الرجل الأبيض وأخيه الأسود عن هذه الحقائق العلمية فحسب بل انه تعداها الى كشف إجرام السياسة الاستعمارية إذ يقرر البعض أنه اذا كانت فرنسا قد نجحت فى اكتساب ولاء بعض زنوج أفريقيا فانها فعلت ذلك بعد ان جعلت اولئك الزنوج يدفعون الثمن غالياً بتعريض جنسهم للخطر وذلك بسماحها لرؤساء اولئك الزنوج بالتدرج فى المناصب الفرنسية و ببث نفسية الرجل الأبيض فيهم و بتحريضهم على استغلال مواطنيهم اقتصادياً و بذلك يصبحون « العبيد العقليين » لفرنسا . ولا يعودون يفكرون فى العمل على تقدم جنسهم خارج النطاق الذى وضعته الحكومة الفرنسية أو النظم الاقتصادية الفرنسية (٢) ولا شك أن كل تعليم نشرته فرنسا فى مستعمراتها الافريقية إنما رمت من ورائه إلى تحقيق غرض سياسى لا إلى رفع مستوى الافريقيين .

وليس هذا الاثم قاصراً على فرنسا فان يقظة الضمير العالمى قد دفعت المؤرخين الألمان إلى كشف الستار عن فظائع الاستعمار الألمانى نفسه فقرروا أن التصميم على استعمار جنوب غرب افريقيا لايعنى إلا شيئاً واحداً هو إرغام القبائل على هجر الأراضى التى كانوا يعيشون ومواشيهم على حشائشها لكى يستولى الرجل الأبيض عليها . (٣) وكانت نتيجة هذا الاستعمار

---

(١) Maciver: Community, p. 275

(٢) Foreign Affairs, April 1925, — W. E. B. Dubois.

(٣) Paul von Rohrbach: Deutsche Kolonial Wirtschaft, Steer: — Judgment on German Africa

الأثيم أن هبط عدد الأهالى الأصليين فى عام ١٩٠٥ من تسعين ألفاً إلى خمسة عشر ألفاً وبعد أن كانت الأراضى التى يملكها أولئك الأهالى ٣٢٢ ألف ميل مربع هبطت إلى أربعة آلاف ! ؟

وقد تنبه بعض المفكرين الذين عالجوا مشكلة الأجناس والألوان إلى أن الطفل الذى ينشأ فى إحدى الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة يتعلم أن ينظر إلى الانسان نظرة عامة ولكنه لايلبث أن يتعلم التفرقة بين الرجل الأبيض والزنوج وهذه التفرقة تكبر وتضخم بينما يهمل التفكير فى أوجه الشبه بين بنى الانسان الى حد أن يصبح فى حالة عقلية تحذره من خطر استيعاب معنى كلمة « الانسان » بدون التفريق بين النوعين [1] واعترفوا بأن التعليم فى الوقت الحاضر هو الذى يشدد الشعور بتلك التفرقة ويساعد على إذكاء روح الحقد بين بنى الانسان باعتماده على بعض المظاهر التاريخية . أو بجعل « شرير » القصة المسرحية أو السينمية رجلاً أسود . وباغفال المتولين شؤون التربية ، فكرة تعليم النشء مبدأ التعاون بين الأجناس والألوان [2] .

ومما يثير الانتباه أننا نجد نسبة الأوروبيين فى مستعمرات أفريقيا المختلفة تافهة ضئيلة لاتكاد تذكر فهى على التوالى بالنسبة لكل مائة ألف أفريقى بستة من الاوروبين فى أوغندة وستة فى نيجيريا وتسعة فى ساحل الذهب وعشرة فى افريقيا الاستوائية الفرنسية وخمسة عشر فى افريقيا الغربية الفرنسية وستة عشر فى تنجانيقا وأربعة وعشرين فى الكونجو وخمسةوستين فى كينيا وأربعة وثمانين فى روديسيا الشمالية . فإذا

---

(١) McDougall—Psychology p.95

(٢) A. G. Russell — المرجع السابق ص ٣٠ .

نظرنا إلى هذه النسبة من زاوية أخرى لتبين لنا أن عدد سكان أفريقيا يقدر بين ١٣٨ مليونا و١٦٣ مليونا من الأنفس ومساحتها نحو ١٢ مليونا من الأميال المربعة . وأن البريطانيين — ومن بينهم أهالي اتحاد جنوب افريقيا — يحكمون ربع مساحة القارة الافريقية وثلث السكان . وأن الفرنسيين يحكمون نفس النسبة وأن البلجيكيين يحكمون واحدا على ثلاثة عشر من المساحة وواحداً على تسعة عشر من السكان[١] .

وقد ثبت من التقرير الذى وضعته اللجنة التى شكلتها وزارة المستعمرات الانجليزية عام ١٩٣٦ من «المجلس الاقتصادى الاستشارى» والتى نشر تقريرها عام ١٩٣٩ انه « فى جميع أجزاء المستعمرات التابعة للامبراطورية اتضح أن إيراد الغالبية العظمى من الأهالى أحط بمراحل من الحد الأدنى الضرورى للحصول على الغذاء الصحى الكافى » وقد قطع هذا التقرير بأن الغذاء غير الصحى هو السبب الرئيسى فى ارتفاع نسبة الوفيات بشلل الاطفال وهى النسبة التى تزيد عن مائتين فى الألف من المواليد فى معظم أنحاء الامبراطورية وأحيانا تتجاوز الثلاثمائه فى الألف وهذه النسبة تصل إلى عشرة أضعاف أمثالها فى قطر كاستراليا الجنوبية حيث لاتتجاوز هناك ٣٠ر٥ فى الألف وهى فى انجلترا وويلز لاتتجاوز سبعة وخمسين فى الألف

وقد ثبت رسمياً من الاحصاء الذى أجرى فى ٣٠ يونيو عام ١٩٣٨ فى « مدينة الرأس » Capetown ان وفيات الذين تقل أعمارهم عن خمسة وعشرين سنة لم تتجاوز ١٧ فى المائة بين الأوروبيين ولكنها وصلت الى

(١) The Atlantic Charter and Africa P112, A. G. Russell : Colour, Race, and Empire. P31

٥٨ فى المائة بين الأفريقيين . و بلغت نسبة الوفيات بين هؤلاء الأهالى بسبب السل ستة أضعاف النسبة بين الأوروبيين ووصلت هذه النسبة الى عشرة أضعاف فى اتحاد جنوب افريقيا عام ١٩٤١ (١)

وقد بلغ استغلال الشركات الأوروبية للمستعمرات الأفريقية إلى حد يقشعر منه الضمير الانسانى ، ففى روديسيا الشمالية مثلا ازدهرت خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة صناعة استخراج النحاس . و بلغ ثمن الكميات التى باعتها الشركات التى تستغل مناجم النحاس الأفريقية ٠٠٠و٢٠١و٨ فى عام ١٩٣٨ ومن هذا المبلغ لم ينل العمال الوطنيون الذين تولوا حفر المناجم واستخراج المعدن من جوف الأرض الا نصف مليون من الجنيهات بينما استولى حملة الأسهم من المولين الأوروبيين على ٠٠٠ر١٠٠ر٣ جنيها وفى عام ١٩٣٥ دفع منجم واحد ربحاً قدره ٦٢ فى المائة لحملة أسهمه . وكل هذه الأرباح معفاه من أية ضريبة ! ويبقى بعد ذلك أن تعلم أن أجرة العامل الأفريقى اليومية تتراوح بين تسعة بنسات وشلن و بنسين بينما أجرة العامل الأبيض لاتقل يوميا عن ثمانية وعشرين شلنا وست بنسات ! وليس هذا التفريق الظالم قاصراً على روديسيا بل أنه قاعدة فى جميع مستعمرات افريقيا فان العمال الافريقيين فى مناجم ساحل الذهب يتناولون أجراً سنويا قدره تسعة وعشرين جنيها وأربعة شلنات بينما يتناول العمال الأوروبيون ستمائة وستة وخمسين جنيها وخمسة عشر شلناً !

ويعتبر المفكرون الأحرار — حتى من الانجليز — مستعمرة كينيا

---

(١) مجلة The Cape Town Sun عدد ٧ نوفمبر عام ١٩٤١ ومجلة South African Outlook عدد ا كتوبر عام ١٩٤١ . وقد تساءلت هذه المجلة « لماذا يدفع أهل الطفل بمجرد ولادته الى احدى شركات التأمين قسطا خاصا بنفقات دفنه ؟ »

نقطة سوداء فى تاريخ الامبراطورية سواء من جهة انحطاط أجور العمال الأفريقيين فيها أومن جهة نظام السخرة المفروض على أولئك العمال . فأجرة العمل فى مناجم الذهب لاتتجاوز إحد عشر شلنا وست بنسات فى الشهر . وكثيرون من العمال يقضون نصف العام فى مثل هذا العمل لكى يمكنهم دفع الضرائب التى تحصلها الحكومة منهم وهى لاتقل بالنسبة للفرد الواحد عن ثلاثين شلنا فى العام ولكى يستعيضوا به عن النقص فى محصول قطعة الأرض الصغيرة التى تسمح الحكومة لهم بزراعتها والتى تتراوح مساحتها بين ثلاثة أفدنة وأربعة . فاذا عجز الأفريقى — وحده — عن الوفاء بكل هذه الالتزامات عمد الى تسخير أولاده . وينص القانون رقم ١٩٣ لسنة ١٩٣٧ على أن « الأب . . . . أوالولى الشرعى على الطفل الأفريقى . . . يجوز له إذا كان هذا الطفل قد تجاوز عشرة أعوام من عمره أن يستخدمه برضاه كصبى فى أحد الأعمال لمدة لاتتجاوز خمسة أعوام » فماهو مصير الأطفال الافريقيين طبقا لهذا القانون ؟ إنهم قد يرسلون الى جهات تبعد خمسمائة ميل عن بيوت آبائهم ويعيشون هناك بدون رقابة حازمة ويتعرضون للوقوع فريسة للموبقات الخلقية وادمان الخمر . وقد تألفت لجنة حكومية لبحث فضيحة ادمان الاطفال الافريقيين على الخمر فلم تتورع عن أن تقرر أن أولئك الأطفال قد « تعاطوا الخمر فعلا ولكن هذا لايستحق أن يسمى عملا فاضحاً ! »(١)

والدليل القاطع على عدالة مانطالب به من جعل «افريقيا للافريقين» وادماج هذه القاعدة بين قواعد القانون الدولى العام التى لايجوز الخروج عليها أو المساس بها كما سبق أن أدمجت قاعدة « أمريكا للامريكيين » التى

(١) A. G. Russell : P 45

نادى بها مونرو — ان كل الجهود التى بذلت للارتفاع بمستوى الافريقيين وتحسين صحتهم . ونشر العلم بينهم إنما بذلها الافريقيون أنفسهم . وأن هذه الجهود قد قوبلت — على الدوام — بمعارضة شديدة من الاوروبيين المستعمرين . ففى عام ١٩١٥ قام Chilembwe — وهو أحد أهالى نياسالاند Nyasaland بحملة ضد الشروط المرهقة التى يفرضها أصحاب الأعمال على العمال الوطنيين . وفى عام ١٩١٩ قام Kadalie وهو الآخر من أهالى نياسالاند بمحاولة لتحسين حالة أبناء جنسه البانتو Bantu فأنشأ «الاتحاد الصناعى والتجارى لعمال جنوب أفريقيا» وقد أثبتت المحاولتان أن أهل تلك الأقطار من جنوب أفريقيا أذكياء وشجعان وأن الأمر لايستدعى أكثر من تسهيل سبل العلم لهم [١] وقد أصابت تلك الجهود الافريقية بعض التوفيق فى بادىء الأمر حتى قيل إن هيرتزج Hertzog — وهو أحد زعماء الأوروبيين فى جنوب افريقيا — كان يؤيدها ولكنه لم يلبث أن حاربها بشدة بل بتوحش عندما تولى رئاسة الوزارة ولم تكد تنقضى سبعة أعوام على بدء «كادالى» حركته حتى خمدت بعد أن اشترك العمال الأوروبيون مع السلطات الحكومية فى إخمادها

وهذه الحركات الفكرية الوطنية التى يتولى قيادتها أفريقيون صميمون لم تقتصر على جنوب أفريقيا بل تعدته إلى غيره من أقطار أفريقيا . ففى «سيراليون» نظم «أوريا باتلر» Uriah Butler حركة اضراب عام ١٩٣٧ فانتهزت السلطات الحكومية فرصة الحرب الأخيرة واعتقلته وقيل إنها نفته إلى جزيرة صغيرة بقرب ترينيداد . كما أن تلك السلطات لم تكتف بحبس وليم جونسون William Johnson رئيس «اتحاد مؤتمر عمال سيراليون»

---

(١) James : History of Negro Revolt. P. 59

بتهمة القذف فى مقال نشره قبل اعلان الحرب ببضعة شهور بل انها اعتقلته طول مده الحرب بمقتضى قوانين الدفاع عن المستعمرات .

ومن المبادىء المالية المسلم بها فى ميزانية اتحاد جنوب أفريقيا عدم الزام حكومة الاتحاد المركزية ولا السلطات الحكومية فى الأقاليم بأية أعباء مالية تنفق على تعليم البانتو أى الافريقيين الأصليين أو على الخدمات الاجتماعية . فلا توجد أية فكرة عن معاملة هذا الافريقى كمواطن له حقوق المواطنين فى وطنهم وبالتالى لم يخطر ببال المشرع المالى أى خاطر عن إلزام الأوروبيين بدفع ضرائب تنفق على أهالى البلاد الأصليين (١)

هذا هو الوضع المذل الذى أراد الأوروبيون البيض المستعمرون أن يضعوا فيه أهل أفريقيا الأصليين وأصحاب أرضها ولعل خير ما يعبر عن شعورهم هو قول المؤرخ اليونانى ثيوسيديد Thucydides « قد يكون من مصلحتكم أن تكونوا سادتنا . ولكن كيف يمكن أن يكون من مصلحتنا أن نكون لكم عبيداً ؟ » (٢)

لذلك يجب ألا يغرب عن أذهاننا أن هذه القارة التى ولدنا على أرضها ونعيش فيها هى منبع خير عميم أثار جشع أقوى دول العالم . فمصر هى ثالث دولة فى العالم تنتج القطن . وقطنها هو أجود أنواع القطن والترنسفال هى أكبر دولة فى العالم تنتج الذهب ورغم أنه لم يكتشف فى مقاطعة Rand إلا عام ١٨٨٥ إلا أنها أصبحت تصدر ٢٥ فى المائة من ذهب العالم (٣)

(١) Macmillan : Africa Emergent, P. 183

(٢) Thucydides : Histore de la guerre du Péloponêse T. 4

(٣) يذكر الدكتور حسن كمال فى بحثه عن «مصر والسودان» مجلة «المقتطف» عدد ابريل ١٩٣٦ أن قدماء المصريين هم أول من عرفوا فضل الذهب وبذلوا غاية جهدهم فى استخراجه مهما بعدت مناجمه عنهم وأن ديودورس الصقلى وصف =

ومناجم كمبرلى Kimberly بجنوب أفريقيا تنتج ٨٠ فى المائة من ماس العالم . ومراكش والجزائر تصدر الحديد . وسائر أقطار أفريقيا تنتج قدراً عظيما من المواد الأولية التى لاغنى للعالم عنها . فعلى الافريقيين أن يؤمنوا بعدالة قضيتهم . و بأن أول مدنية شع ضوؤها على العالم نشأت على أرضهم فى مصر . وأن العالم ظل يتخبط فى ظلمات الجهل قروناً عديدة بينما كانوا هم — كما تشهد آثارهم — يكتبون أول صفحات المجد فى تاريخ الحضارة . وأن يعتمدوا على أنفسهم فى تحقيق آمالهم البديهية المشروعة لأن « الجواد يحمل الانسان الى حيث لاتستطيع قدماه أن تحمله . والسيارة تحمله إلى أبعد مما يستطيع الجواد أن يحمله ، ولكن أية سيارة ليست أفضل من قلب الانسان الذى يقوده » [١]

فاذا امتلأت قلوب الافريقيين إيمانا بعدالة قضيتهم فان أية قوة فى الوجود لاتستطيع أن تثنيهم عن تحقيق مطالبهم لأن الضمير العالمى أصبح يوقن معهم بأنه « لن يكون هناك سلم دائم ولا أى احتمال بتحقيق سلم عادل مادامت الشعوب المحكومة والمستغلة بواسطة أية حكومة غريبة عنها ضد إرادتها لم تسترد حريتها » [٢]

= مقبرة يغلب أنها لرمسيس الثانى تمثل الملك يقدم للآلهة مقادير من الذهب تقدر بنحو ثمانين مليونا من الجنيهات .

(١) Ernest Hemingway :Men at War

(٢) Ernest Hemingway ; For whom the bell tolls

استعمار مصر بواسطة المصريين

المراجع الأجنبية

Wendell Cleland : A Population Plan for Egypt.
Henry Habib Ayrout : Fellahs.
Schrumpf-Pierron : La teneur en minéraux de la nourriture dufellah.
Seligman : Progressive Taxation in theory and practice.
H. Lowy : Sur les Equatations fondamentales de l'Hydrologie électrodynamique.
W. F. Hume : Geology of Egypt.
H. Lowy : Iso-dielectric Lines andg eologic structure.
E. F. Russell : Agricultural Colonisation in the Pontine marshes and Libya.
H. Lowy : Quelques considérations sur l'exploration et l'utilisation des deserts.
F. Fowrean : Documents scientifiques de la Mission Sahrienne d'Alger au Congo par le Tchad.
William Willcocks : The Restoration of the ancient Irrigation of Bengal.
E. F. Gautier : Le Sahara.
Jean Maznel : Le Wadi Rayan, le lac Moeris de l'antiquité.
Hafez Afifi : La Cooperation des égyptiens et des etrangers
Ferdinand De Lesseps : Lettres, Journal et documents pours servir à l'histoire du Canal de Suez.
J. Charles Roux : L' Isthme et le canalde Suez.
Charles Lessage : L' Achat des Actions de Suez.
Leiden : L'Egypte et L'Europe, par un anaien juge mixte
Abbas Hilmi : A few words on the Anglo Egyptian Settlement

المراجع العربية

الدكتور السيد صبرى : تحليل نتائج التعداد فى مصر
محمود كامل : مصر الغد تحت حكم الشباب
عبد الغنى غنام : الاقتصاد الزراعى وادارة العزب
الدكتور حسن كمال : غذاء الجماعة
الدكتور عبد الواحد الوكيل : الصورة القاتمة لحالة مصر الصحية
الدكتور زكى عبد المتعال : أصول علم المالية العامة والتشريع المالى المصرى
أحمد ممدوح مرسى : الضريبة على الايرادات علما وعملا .
الدكتور محمود سامى جنينه : القانون الدولى العام
أحمد رشدى صالح : قناة السويس
محمد عرفان : مدينة بور فؤاد

١ — تبلغ مساحة مصر مائتين وأربعين مليوناً من الأفدنة . لم يدخل منها — إلى الآن — فى « الزمام » أى الأراضى المزروعة أو الصالحة للزراعة و إن لم تزرع فعلاً إلا ١٢١ر٣٦٢ر٨ فداناً ، منها ٧٤٢ ر٣٥٣ر ٥ فداناً مزروعة فعلا والباقى وقدره ٣٧٩ر٠٠٨ر٣ لم تزرع بعد [١] ويبلغ مجموع الايراد الأهلى لعام ١٩٣٥ — طبقاً للتقرير الذى نشرته اللجنة التى ألفت لدراسة الفاقة فى يوليو عام ١٩٣٨ — مائة وخمسة وثمانين مليوناً من الجنيهات إذا وزعت على عدد السكان عامئذ وهو خمسة عشر مليون ونصف المليون نسمة لخص كل فرد إثنى عشر جنيها مصريا فى السنة . وهذا المبلغ من التفاهة بحيث يثير الدهشة إذا قورن بمتوسط مايخص كل فرد فى الدول الأخرى . فمستوى الايراد فى السويد ستون جنيها للفرد الواحد عام ١٩٣٥ مستوى الايراد فى الولايات المتحدة الامريكية ثمانون جنيها عام ١٩٣٤

وليست تفاهة مستوى إيراد الفرد هى أسوأ مايعانيه المصرى العادى فلو استطاع كل مصرى أن يفوز بجنيه شهريا لما ترتبت النتائج الاجتماعية والصحية والعلمية والسياسية الوخيمة التى تثير ذعر الجيل الجديد من المصلحين المصريين. رغم أن ذلك «الجنيه» الواحد لا يمكن أن يفى بالحاجات الضرورية شهراً بأكمله لآدمى يعيش فى القرن العشرين ، ولكن الذى يلفت النظر فى هذا الأمر الخطير أن الايراد الأهلى موزع توزيعاً ظالماً ، فقد بلغ عدد ملاك الأراضى الزراعية عام ١٩٣٥ — وهو العام الذى اتخذته اللجنة التى أشرت اليها فى صدر هذا الباب مقياساً لعملها — ٦٠٤ر٣٦٥ر٢ يملكون ٩٥٩ر٨٣٦ر٥ فداناً . وكانت نسبة الذين يملكون أقل

---

(١) الاحصاء السنوى العام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ ص ٣٤١

من خمسة أفدنة ٩٣ فى المائة من مجموع الملاك و بلغت نسبة مايملكونه ٣١ فى المائة من مجموع الأراضى ، أما عدد الملاك الذين كانوا يملكون أكثر من عشرين فدانا فكانت نسبتهم ٥ر١ فى المائة من مجموع الملاك وكانوا يملكون أكثر من نصف مجموع أراضى القطر . وعلى هذا الأساس استولى واحد ونصف فى المائة فقط من المصريين على نصف الايراد الأهلى الذى غلته جميع موارد القطر عام ١٩٣٥ ، وهذا يعنى أن ٠٠٠ر٢٣٢ مصرى نال كل منهم أربعمائة وعشرين جنيها بينما لم ينل باقى المصريين إلا ستة جنيهات وأربعمائة مليم لكل فرد . واذا قسمنا ٣١ فى المائة من مجموع الأراضى — و بالتالى ٣١ فى المائة من الايراد الأهلى — على سواد الشعب الذى يكون ٩٣ فى المائة من السكان فان مايخص الفرد الواحد لايزيد عن أربعة جنيهات . وهذه الأرقام معناها أن الأسرة المصرية العادية التى تتكون من خمسة افراد يجب ان تعيش بميزانية سنوية تتراوح بين عشرين واثنين وثلاثين جنيهاً [١] .

٢ — وليست هذه الأراضى المزروعة كلها — مع ذلك — ملكا خالصاً للمصريين فإن آخر إحصاء — وهو إحصاء عام ١٩٤٠ — يدل على ان الأجانب يملكون ٦٨٣ر٤٠٨ فداناً اى نحو عشر مجموع الأراضى المزروعة . وهى نسبة مرتفعة جداً لا يطيقها الاقتصاد الأهلى لدولة لا تزال تعتمد فى مواردها على الزراعة .

وقد لوحظ — فى الأعوام الأخيرة — انصراف الأجانب عن تملك الأراضى الزراعية . فإن إحصاء ١٩٣٦ يدل على ان مساحة الأراضى التى

---

(١) We Cleland : A Population Plan for Egypt, L'Egypte Contemporaine, No. 185, p.467.

يملكها الأجانب كانت ٤٩٧٫٠٢٨ فداناً وإحصاء ١٩٣٨ يدل على أن مساحة تلك الاراضى التى يملكها الاجانب كانت ٤٢٨٫٠٢٢ فداناً. إلا ان متوسط مايملكه الفرد الواحد من المصريين من أرض بلاده لايزال أحط بكثير من متوسط مايملكه الفرد الواحد من الاجانب فإن إحصاء ١٩٤٠ يدل على أن متوسط مايملكه المالك الزراعى المصرى هو ١٫٩٣ فداناً بينما متوسط مايملكه الأجنبى هو ٧٧٫٥٣ فداناً ويبدو جلياً الفرق الهائل بين المتوسطين. ورغم انصراف الاجانب عن تملك الاراضى الزراعية، لايزال متوسط مايملكه الواحد منهم فى ارتفاع. أى ان الذين لا يزالون يتشبثون بتملك تلك الاراضى منهم يتوسعون فى ملكياتهم الزراعية عن طريق الشراء. ففى احصاء سنة ١٩٣٨ عند ما كانت مساحة ما يملكه الأجانب ٤٢٨,٠٢٢ فداناً كان متوسط مايملكه الواحد منهم ٧٣٫٣٢ فداناً فلما هبطت مساحة مايملكونه فى عام ١٩٤٠ إلى ٤٠٨٫٦٨٣ فداناً ارتفع متوسط ما يملكه الواحد منهم إلى ٧٧٫٥٣ فداناً. وتبدو خطورة هذا المتوسط فى الملكيات الواسعة. فان متوسط ما يملكه الفرد الواحد من الأجانب الذين يملكون أكثر من ألفى فدان هو ٥٥٣٨٫٣٨ فداناً بينما متوسط مايملكه الفرد من المصريين الذين يملكون أكثر من ألفى فدان هو ٣٩٢٧٫٩٠ فرغم ما هو معروف عن بعض الأسر المصرية الكبيرة التى توارثت مساحات واسعة من الأراضى الزراعية جيلاً بعد آخر من الرغبة الغريزية فى التوسع إلا أن الأجانب — حتى فى تلك الملكيات الواسعة — لا يزال متوسط مايملكه الواحد منهم أعلى بكثير من متوسط ما يملكه المصرى.

وهذا المتوسط الذى يخص الفرد فى مصر من أرض بلاده أقل بكثير مما يخص الفرد فى الدول الزراعية الأخرى كفرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا

والهند إذ أن متوسط ما يخص الفرد هناك يتراوح بين فدانين ونصف واثنى عشر فدانا ولا يعترض على ذلك بأن عمل الفلاح المصرى أكثر لأن أغلب الأراضى تزرع أكثر من زرعة واحدة فى السنة لأن الزارع فى البلاد الأخرى وإن خصته مساحة أكبر إلا أنه لا يزرعها كلها مما يبعد الدورة الزراعية ويخصب الأرض فيزيد المحصول مع قلة المصروف أو بعبارة أخرى أن الزراعة فى مصر Intensive بينما هى فى أغلب الدول الزراعية الأخرى Extensive[(١)].

ومما يدخل فى حكم الاراضى التى ليست ملكا خالصاً للمصريين الاراضى المرهونة للبنوك العقارية الاجنبية فقد بلغت مساحة الاراضى المرهونة للبنك العقارى المصرى وحده فى السنوات من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٠ ما يقرب من مساحة الاراضى التى يملكها الاجانب فان تلك الاراضى المرهونة قد بلغت مساحتها على وجه التحديد ٣٧٨ر٥٥٢ فداناً ويبلغ مجموع مساحة الاراضى المرهونة مليون فدان[(٢)]. ومن الحكمة ألا ندخل هذه المساحة — وغيرها من المساحات المرهونة للبنوك الاجنبية المرتهنة — جزافاً فى نطاق الاراضى التى تقرر الإحصائيات الرسمية أن المصريين يملكونها . أى يجب خصمها من الـ ٧٦٩ر٤ ٦٢٨ فداناً التى يقرر كتاب الإحصاء أن المصريين يملكونها . أو على الاقل يجب إرجاء احتسابها من تلك المساحة حتى يتحدد موقف ملاكها الراهنين لما ثبت من تراكم الفوائد عليهم وعجزهم عن السداد عجزاً جعل تلك المساحات المرهونة لا تساهم بكل غلتها فى الإيراد الاهلى العام لما يقتطع من تلك الغلة لحساب البنوك المرتهنة .

---

(١) الدكتور السيد صبرى : « تحليل نتائج التعداد فى مصر » ص ١٢٥.

(٢) Henry Habib Ayrout: Fellahs p. 34.

ومما يدخل أيضاً فى حكم الاراضى التى ليست ملكا خالصاً للمصريين الاراضى الموقوفة التى بلغت مساحتها فى عام ١٩٤٠ : ٦٦٢ر٧٠٠ فدانا فهذه المساحة الواسعة مثقلة بقيود تعجزها هى الاخرى عن المساهمة بكل غلتها فى الإيراد الاهلى العام .

٣ — وعلى أى وجه قلبت الاحصائيات الرسمية عن الزراعة فى مصر يتضح منها أن متوسط مايخص الفرد الواحد من المشتغلين بالزراعة فى مصر لا يزيد إطلاقا عن نصف فدان ! فان عدد المشتغلين بالزراعة طبقا لاحصاء ١٩٤٠ يبلغ ٤ر٣٠٨ر٢٠١ من الذكور والإناث ، فاذا فرضنا أن لكل منهم فرداً واحداً يعوله ، كزوجة أو زوج أو طفل — وهو فرض مسرف فى التواضع — لوجدنا أن مجموع الذين يعيشون على الزراعة يبلغ نحو التسعة ملايين من المصريين ولاتضح أن مايخص الفرد الواحد لايزيد عن نصف فدان .

كما أن الملاك الذين يملكون فدانا فأقل — وهم الغالبية العظمى من الملاك المصريين لأن عددهم يبلغ فى إحصاء ١٩٤٠ : ١ر٧٦٠ر٧٧٣ من مجموع الملاك المصريين وعددهم ٢ر٤٧٣ر١٣٦ — لا يزيد متوسط مايملكه الواحد منهم عن ٤١ فى المائة من الفدان أى أقل من نصف الفدان وهم يمثلون المتوسط الحقيقى للملكية الزراعية فى مصر لأنهم كما رأينا السواد الأعظم من ملاك الأراضى لأنهم أكثر من ثلثى عدد الملاك .

وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة — وخاصة التى تقل عن فدان — هم الذين يشتغلون بالزراعة فى أراضيهم بأنفسهم وهم مع الزراع المستأجرين والزراع الذين يساعدون ذويهم والزراع بالأجرة والفعلة والبستانيين الذين يقصد بهم الاحصائيون « المزارعين » Cultivators

وعددهم – طبقاً لاحصاء ١٩٢٧ — وهو آخر احصاء حلّل طبيعة كل طائفة من تلك الطوائف — كالآتى :

زراع بأرضهم	. . . .	٧٢٤ر٨٧٧
« مستأجرون	. . .	٢٣٨ر٣٥٦
« يساعدون ذويهم	. .	٩١٣ر٥٧٣
« بالأجرة وفعلة	. .	١ر٤٥٥ر٧٣٦
بستانيون	. . . . .	٨ر٥٩٥
الجملة		٣ر٣٤١ر١٣٧

وقد لاحظ الاحصائيون المصريون أن « الأرض ليست مورد رزق المشتغلين بالأعمال الزراعية فقط بل هم ونساؤهم وأطفالهم ومن يعولون غير هؤلاء ممن يقدرون بحوالى تسعة ملايين من الأنفس فان الفرد الواحد فى الريف يعيش على أقل من الفدان بكثير لأن الزمام المزروع يبلغ حوالى الخمسة ملايين فدان ونصف »(١) ولو أنهم فطنوا الى أن الزمام المزروع لايملكه — جميعه — المصريون وحدهم وانما يملك الأجانب نحو عشرة وهم لايشتغلون بالزراعة كما يشتغل المصريون،لانتهوا معنا الى أن المشتغل بالزراعة من المصريون لايعيش على أكثر من نصف فدان . وهذه الملايين التسعة أو العشرة من المصريين الذين يعيشون فعلا على الزراعة سواء عن طريق الملكيات الصغيرة التى تقل عن فدان أو عن طريق الاشتغال بالأجر لدى الغير تعانى أهوال مستوى منحط للمعيشة جدير بأن يخزى جميع الأحزاب التى تعاقبت على حكم مصر منذ عام ١٩٢٢ زاعمة أنها تستند فى توليها الحكم الى ثقة الملايين من الناخبين الذين غالبيتهم العظمى

(١) الدكتور السيد صبرى — المرجع السابق — ص ١٢٣ .

من أولئك المزارعين وأنها تحكم مصر حكما ديموقراطياً لمصلحة الشعب!
فالعامل الزراعى فى مصر فى الأوقات العادية — أى التى لا أثر لاعتبارات الحرب والتضخم المالى فيها — يتقاضي أجراً يومياً يتراوح بين قرشين ونصف وثلاثة قروش وهو لا يشتغل فى العام أكثر من مائتى يوم. كما أن متوسط عدد الأشخاص الذين يعولهم يتراوح من شخصين الى ثلاثة أشخاص بين زوجة وأولاد يوزع عليهم ذلك الأجر الحقير فلا يكاد يصيب الواحد منهم فى اليوم قرش واحد. أى أن هناك نحو تسعة ملايين من المصريين والمصريات يعيش كل منهم بأقل من عشرة مليمات فى اليوم وهو مستوى منحط لأنه يهوى بأولئك المواطنين المساكين إلى أقل من مستوى البهائم التى تشاركهم نفس الحياة الريفية فى مصر . . .!

وليس فى هذا أقل مغالاة فان مقدار ما تتكلفه الماشية الواحدة من مواشى الفلاح الفقير فى العام لايقل عن سبعة جنيهات يمكن توزيعها على الشكل الآتى :

قرش	
٣٥٠	إجارة نصف فدان برسيم .
٦٧,٥	« ثلث « « (بين زراعة الأذرة والقطن)
١٠٠	ثمن خمسة أحمال تبن أبيض .
١٥٠	ثمن أردب فول عليق .
١٢٠	قيمة دراوة أو عفش زراعة فدان أذرة .
٧٨٧,٥	مجموع تكاليف الماشية الواحدة .

أى أن ماشية ذلك الفلاح الفقير تتكلف ثلاثة أضعاف مايناله هو نفسه

و تسعة ملايين مصرى يعيشون من العمل فى الزراعة [١]. فقد تبين لنا أن أن الفلاح المصرى لايكسب فى العام أكثر من ستة جنيهات على أساس عمله مائتى يوم بأجر يومى قدره ثلاثة قروش وأن ذلك الفلاح يعول — على الأقل — زوجة وطفلا أو طفلة أقل من خمسة أعوام أى أقل من السن التى يبدأ فيها الطفل فى الارتزاق فلا ينال الواحد أكثر من مائتى قرش فى العام وقد يعترض على هذا الكلام بأن الفلاح المصرى يستفيد من لبن ماشيته ومن نتاجها ولكن هذا الاعتراض لاقيمة له لأن تلك الاستفادة تكاد تكون وهمية فان لبن البقرة المصرية يستنفده ابنها الرضيع الذى إذا بيع بعد أربعة أو خمسة شهور من ولادته أى عند انقطاع اللبن فلن يتجاوز ثمنه أربعة جنيهات ، كما أن أقصى مايمكن أن يستفيده الفلاح المصرى من جاموستة أن يبيع ابنها بعد شهر من ولادته بثمن لايمكن أن يتجاوز جنيهين وأن ينتفع بلبنها فى تحويله إلى مسلى لن يتجاوز قدر صفيحتين ثمنهما أربعة جنيهات وإلى ملء « بلاصين » من الجبن لايتجاوز ثمنهما جنيهاً واحداً !

ومن ذلك يتضح أن الماشية تتكلف أكثر من ضعف أو ثلاثة أضعاف ماينالة الآدمى العامل فى أرض مصر [٢] فلا يمكن إدخال إيراد هذه الماشية السعيدة فى حساب رزق هذا الفلاح .

بل هناك أكثر من ذلك ... هناك البهائم التى لاتعطى للفلاح المصرى لالبناً ولا مسلياً ولا جبناً ، ولا « مشاً » ومع ذلك فهى تتكلف أكثر من متوسط مايكسبه نفس ذلك الفلاح ، هناك الحمير التى لا تكاد تفيد

---

(١) محمود كامل : كتاب « مصر الغد تحت حكم الشباب » ص ٢٦

(٢) عبد الغنى غنام : « الاقتصاد الزراعى وادارة العزب » ص ٢٢٣

مالكها الفلاح إلا فى نقل الأتربة أو اتخاذها كمطية لمسافات قريبة فمتوسط تكاليف الحمار عند الفلاح المصرى الفقير فى العام لا يقل عن ثلاثة جنيهات يمكن توزيعها على الشكل الآتى :

م	
١٤٠	اجارة خمس فدان برسيم
٣٠	ثمن حمل ونصف حمل تبن .
١٥٠	ثمن أردب فول .
٢٠	أربعة قراريط عفش زراعة أذرة .
٣٤٠	مجموع تكاليف الحمار الواحد فى العام

وإذا استبعدنا الجانب «الانسانى» الذى ينفر من وضع عشرة ملايين مواطن فى مستوى أدنى من مستوى المواشى والبهائم فى نفس الوطن الواحد فان للطبيعة البشرية حقا فى حد أدنى لكمية الغذاء ونوعه مما لا يمكن أن ينالها عشرة ملايين مصرى وهم فى ذلك المستوى المنحط من الحياة .

فقد قرر الاخصائيون فى علم غذاء الجماعات أن الوحدة الغذائية اليومية للرجل البالغ ، فى الطبقات الفقيرة ، كالعمال ، تتكون من ٦٠٠ جرام من الخبز البلدى و ١٥٠ جراماً من اللحم البقرى و ٢٠٠ جراما من اللبن و ١٥٠ جراما من الخضار بما فيه البصل و ٧٥ جراما من الأرز و ٧٥ جراما من العدس أو الفول و ٧٥ جراما من المسلى و ٣٠ جراما من السكر و ٢٠ جراما من الملح و ٢٥ جراما من الفلفل وهذا الغذاء يحتوى على حوالى ٣٠٠٠ كالورى ونفقته حوالى ٣٨ مليما [١] .

(١) الدكتور حسن كمال : بحث عن « غذاء الجماعة » — مجلة « المقتطف » عدد مايو ١٩٤٠

وهذا التقدير قد بنى على أساس ارتفاع الأسعار فى أوائل الحرب الأخيرة ولذلك فهو لايتناقض مع تقدير إخصائى آخر قرر أن أقل مبلغ لازم لغذاء شخص بالغ يعيش فى أسرة هو ١٩ مليما فى اليوم أى ٦٩٣ قرشا فى السنة . وقد رأينا أن هذا المبلغ هو إيراد أسرة كاملة تتكون من ثلاثة أشخاص على الأقل (١) .

وهذه الاحصائيات التى ذكرناها عن موارد الفلاح المصرى قد روعى فيها التوسع ومع ذلك فهى لاتكفى — كما رأينا — لما تحتمه الضرورة القصوى من غذائه وغذاء أسرته . أما الاحصائيات الأخرى التى لاتكتفى باعطائه الحد الأدنى من الغذاء الضرورى فانها لا تكتفى بالجنيهات الستة التى تكون كل موارد ثلاثة ملايين ونحو ربع مليون أسرة من أسرات الفلاحين المصريين التى تتكون كل أسرة منها من ثلاثة أشخاص على الأقل بل تحدد عشرة جنيهات سنويا كأقل مايكفى لحياة أسرة الفلاح وتوزعها على الأوجه الضرورية الآتية :

م

٢٠٠ ثمن زيت للطبخ و بعض خضروات تكميلية غير الخضروات التى يحصل عليها من الحقل ولحم —أحيانا — وسكر وشاى .

١٠٠ ثمن غاز للمصباح وتكاليف التجديد فى الأدوات المنزلية كالقلل والصحاف أو ماتحتاج اليه الجاموسة أو مايحتاج إليه الحمار من عليق اثناء الصيف

١٥٠ ثمن ملابس جديدة كجلابية للفلاح او ثوب لزوجته او ابنته بمناسبة العيد .

---

(١) Wendell Cleland — البحث السابق — مشيراً الى تقدير الدكتور — William Wilson ص ٤٦٧ .

م

٥٠ مصاريف بسبب المرض او سداد الغرامات التى يحكم بها .

٥٠٠ مصاريف استثنائية — وهذا البند الأخير ، وهو الوحيد الذى يمكن ان يقتصد منه — يتضمن نفقات الختان أو الجنازات بسبب وفاة احد افراد الأسرة أو الزواج أو المهر أو البدل العسكرى للاعفاء من الجندية وأحيانا لاتكفى موارد الأسرة لتغطية هذه المصاريف [1]

ومن العجيب — رغم هذه الاحصائيات المفحمة — أن بعض الباحثين الأجانب الذين تعرضوا لهذا الموضوع قد زعموا ان الفلاح المصرى لايعوزه الغذاء وان غذاءه العادى بل حتى الماء الذى يشربه فيه مايكفى حاجته من المواد المعدنية الطبيعية وأن عمله وصحته ومناعته الجسدية تؤيد هذا الرأى [2] ويكفى للرد على هذا ودحضه أن نعلم أن الذين لايمكن تجنيدهم — وتبلغ نسبتهم نحو ثمانين فى المائة من مجموع الذين فى سن الاقتراع — إنما يشكون من سوء التغذية . كما ان انتشار مرض « البلاجرا » الذى يدل على سوء التغذية — ووصول عدد الوفيات بسببه فى احصاء عام ١٩٣٩ إلى ٦٣٩ من مجموع المصابين وعددهم ٠٠٠ر١٢٠ر١ يقطع بأن الفلاح المصرى لايجد القوت الضرورى الذى يكفيه .

ومع ذلك فان الفلاحين الذين يعملون بأجر فى أراضى غيرهم ليسوا أسوأ المصريين حالا . فان هناك طبقة أتعس منهم هى طبقة الذين يملكون فدانا فأقل الذين يبلغ عددهم — كما رأينا — فى احصاء ١٩٤٠ :

---

(١) Henri Habib Ayrout: Fellahs, p. 72

(٢) Schrumpf-Pierron : La teneur en minéraux de la nourriture du fellah, Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1932, P. 153 et suiv.

١٫٧٦٠٫٧٧٣ ولا يزيد متوسط مايملكه الواحد منهم عن ٤١ فى المائة من الفدان . فان العامل الزراعى يشتغل فى العام مائتى يوم يتقاضى عنها ستة جنيهات بمعدل ثلاثة قروش فى اليوم الواحد بينما المزارع الذى يملك نصف فدان لايمكن أن تغل له هذه القطعة من الأرض فى أحسن الظروف أكثر من خمس جنيهات فى العام بعـــد استبعاد التكاليف الزراعية كالأموال الأميرية ورسوم مجلس المديرية وثمن التقاوى . هذا مع العلم بأن هذا المزارع المالك يشتغل فى أرضه بلا مقابل أى بلا حساب لأجره [(١)]

٤ — ولقد ترتب على هذا المستوى المنحط من المعيشة .

« أولا — أن الأحوال الصحية فى القطر المصرى عامة تعتبر أسوأ الأحوال بالقياس الى كافة الأمم المتمدنة فى القارات الخمس حتى تلك التى تشبهها أو دونها فى نسبة المتعلمين .

ثانيا — ان الأحوال الصحية فى الريف الذى تسكنه أغلبية المصريين ليست سيئة فحسب بل انها تسير من سيء الى أسوأ » [(٢)]

وقد دلت الاحصائيات الصحية على ظاهرة خطيرة يتخذها الاخصائيون فى علم الصحة عادة دليلا على تقدم الحالة الصحية فى دولة ما أو على تدهورها . وهذه الظاهرة هى الزيادة المخيفة فى نسبة وفيات الأطفال الى المواليد الأحياء . فقد كانت النسبة فى وفيات الأطفال الذين هم أقل من سنة فى إحصاء ١٩٢٨ إلى المواليد أحياء ١٥١ فى الألف وارتفعت فى إحصاء ١٩٣٣ إلى ١٦٢ فى الألف وهذه النسبة وان هبطت هبوطاً تافهاً

---

(١) محمود كامل : « مصر الغد تحت حكم الشباب » ص ٣٠ .

(٢) الدكتور عبد الواحد الوكيل — من بحث عن « الصورة القاتمة لحالة مصر الصحية » بمجلة « المقتطف » عدد مايو ١٩٤٠ .

فى احصائى ١٩٤٠ و١٩٤١ الى ١٦١ فى الألف [١] إلا أنها لاتزال نسبة مرتفعة ارتفاعا مشيناً بحالة مصر الصحية . لأن المتوفين فى تلك السن من الأطفال فى إحصاء ١٩٣٧ بلغوا ١١٤٫٨٥٦ من مجموع الوفيات التى بلغ عددها ٤٣٤٫٢٠٨ أى بنسبة ٢٦٫٤ فى المائة من ذلك المجموع . كما أن المتوفين من الاطفال الذين يتراوح سنهم بين سنة وخمس سنوات فى تلك السنة بلغوا ١٢٧٫٨٩٢ أى بنسبة ٢٩٫٤ فى المائة من مجموع الوفيات أى أن نسبة الاطفال الذين اختطفهم الموت فى تلك السنة إلى مجموع الوفيات بلغت ٥٥٫٨ فى المائة بينما هذه النسبة فى انجلترا لاتبلغ أكثر من العشر .

وتدل الاحصائيات الرسمية عن « الامراض الاجتماعية » كما يسميها علماء الصحة على تدهور يقطع بأن الاحزاب المصرية — بأجمعها — التى تتالت على حكم مصر منذ تصريح ٢٧ فبراير عام ١٩٢٢ كانت من الغفلة بحيث تركت تسعين فى المائة من المواطنين يعانون أهوال المرض . وأسباب هـذه الامراض « توجد عادة متغلغلة فى تلافيف الفقر والجهل والعادات السيئة وكذلك فى نوع العمل الذى يرتزق منـه الانسان والوسط الذى يعيش فيه » [٢] فقد بلغ عدد المرضى بالرمد الحبيبي ١٤ مليون ونصف مليون مصرى أى تسعين فى المائة من المصريين وبالانكلستوما ثمانية ملايين أى نصف المصريين وبالبلهارسيا والديدان المعوية الأخرى ثمانية ملايين اى نصف المصريين عدا الأمراض الأخرى التناسلية والرئوية والعقلية وهذه المجموعة المخيفة من الأمراض التى تدمغ برامج الأحزاب المصرية بالخزى

---

(١) كتاب الاحصاء السنوى للجيب سنة ١٩٤١ ص ٩٣ .
(٢) الدكتور عبد الواحد الوكيل — المرجع السابق

والعار هى التى جعلت الاخصائيين يقررون أننا « اذا جمعناها بعضها الى بعض مرضا مرضاً وجدنا جملتها زهاء ٥٠ مليوناً أى أنها تكفى لإصابة شعب من ٥٠ مليون نفس بحيث يصيب كل شخص منهم مرض واحد فاذا وزعناها على المصريين أصاب كل شخص فى المتوسط ثلاثة أمراض فى وقت واحد . واذا اتبعنا مايفعله الاحصائيون الأميركيون وأردنا أن نترجم هذه الأرقام بالجنيهات التى تخسرها الأمة فى المجهود القومى بسبب هذه الأمراض وقدرنا أن متوسط قيمة المجهود الذى يبذله الشخص السليم فى السنة يساوى ١٢ جنيها وأن المصاب بثلاثة أمراض يهبط إنتاجه الى النصف وهو تقدير كثير التواضع لرأينا أن ما تخسره البلاد بسبب هذه الأمراض هو زهاء مائة مليون جنيه فى كل عام. »[1]

أما الأمراض الأخرى أى الأمراض غير الاجتماعية فان نسبة المصابين بها الى مجموع السكان لاتزال نسبة مرتفعة ارتفاعا مخيفاً . كما ان مقارنة هذه النسبة بنسبة المصابين بها فى الدول الاخرى تقطع بأن طرائق الحكم التى اتبعتها الاحزاب المصرية بأجمعها عبث بأول الواجبات البديهية المفروضة على تلك الاحزاب نحو سواد الشعب . وإننى لأكتفى هنا بأن أذكر — على سبيل المثال — عاهة واحدة هى العمى . فقد كان عدد العمى فى إحصاء عام ١٩١٧ يبلغ ١٥٥٫٥١١ أى بنسبة ١٢٢٣ فى كل مائة الف من مجموع السكان وبلغ عددهم فى إحصاء عام ١٩٢٧ : ١٠٩٫٩٣٤ أى بنسبة ٧٧٥ فى كل مائة الف . وان كان قد حدث تحسن يسير فى إحصاء عام ١٩٣٧ إذ هبط عددهم إلى ٨٦٫٢١٨ إلا أن نسبتهم الى مجموع

(١) الدكتور عبد الواحد الوكيل — المرجع السابق .

السكان لاتزال مشينة لمصر إذ أن نسبة العمى فى انجلترا وويلز ٧٣ فى كل مائة ألف وفى المانيا ٥٦ فى كل مائة ألف بل إنها حتى فى الهند لم تزد فى احصاء عام ١٩٢١ عن ١٥٢ فى المائة ألف . وقد لاحظ الاخصائيون فى الاحصاء بمصر أن « اصابات العمى والعور تزيدان بعد الطفولة بنسبة واضحة ولانزاع فى أن هناك بعض العوامل التى تساعد على ارتفاع نسبة هاتين العاهتين فكثرة الذباب لعدم العناية بوسائل النظافة تسبب انتشار الرمد الصديدى والجو المشبع بالأتربة يؤذى العيون السليمة بسرعة عظيمة ويأتى بعد ذلك إهمال العلاج حتى يصل المرض إلى حد العاهة »[1] .

ولا تزال نسبة ذوى العاهات على العموم بين عمى وعور وصم وبكم وضعفاء القوى العقلية مرتفعة ارتفاعاً يستلفت النظر وإن بدا تحسن بسيط فى الاحصائيات الأخيرة إذ بلغ مجموع عدد ذوى العاهات فى إحصاء عام ١٩١٧ : ٥٨٧,٧١٧ وهبط فى إحصاء عام ١٩٢٧ إلى ٤٠٦,١٢٣ ثم هبط بالتالى فى إحصاء عام ١٩٣٧ إلى ٢٦٩,٣٣٩ ورغم هذا التحسن فلا يزال نحو ثلث مليون مصرى مصاباً بعاهة كان يمكن تلافيها — ولاشك — لو نفذ برنامج صحى بطرق عصرية فى القرية المصرية .

٥ — ولقد ترتب على إهمال الحكومات المتتالية أمر تدبير موارد جديدة لميزانية الدولة والخضوع لخرافة أن مصر قطر زراعى يعيش على الزراعة وحدها كأهم مورد من موارد الايراد الأهلى . والسماح للسياسة الاستعمارية بصرف السواد الأعظم من المصريين عن أبواب المدارس

---

(١) الدكتور السيد صبرى — المرجع السابق ص ١٩٣

وتركيهم يعيشون عيشة أحط من مستوى البهائم كما رأينا — ترتب على ذلك كله أن نسبة المتعلمين بين المصريين — رغم النهضة العلميـة التى بدت آثارها منذ إعلان تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ واستئثار المصريين بأمر التعليم العام الذى ظل يتحكم فيه الأجانب عشرات الأعوام — لا تزال أقل بمراحل من نسبة المتعلمين من الأجانب المقيمين فى مصر فقد ثبت من تحليل إحصاء عام ١٩٢٧ أن نسبة الملمين بالقراءة والكتابة بين رعايا الحكومة المحلية لاتتعدى ١٢٦ فى الألف بينما هذه النسبة تصل بين الأجانب المقيمين بمصر إلى ٧٩٩ فى الألف من مجموع هؤلاء الأجانب . ولايخطر ببال القارىء أن المقصود بالأجانب فى هـذا التحليل هم الأوربيون بل أن وصف الأجنبي ينصرف إلى كل من ليس مصرياً فنسبة الملمين بالقراءة والكتابة مثلا بين السوريين والفلسطينيين تبلغ ٧٠١ فى الألف من مجموع أفراد هذه الجالية الشقيقة أى نحو ستة أضعاف النسبة الخاصة بالمصريين .

وبسبب هـذا الوضع الذى جرد المصريين من السلاح العلمى الذى يمكنهم من الكفاح فى سبيل الحياة الحرة الكريمة ارتضت غالبية الشبان المصريين من حملة الشهادات قبول الحياة داخل مكاتب الوزارات والمصالح الحكومية فى مقابل مرتب ثابت تافه وهى حياة ذليلة راكدة تقتل روح الابتكار فى الشاب ويكفى أن يعلم القارىء أن نسبة الذين يشغلون هذه الوظائف الحكومية الى مجموع حملة الشهادات على اختلاف أنواعها بين ابتدائية وثانوية وعالية قد بلغت ٣٨٤ فى الألف فاذا إستبعدنا المحامين والأطباء الذين لايعملون فى الحكومة من حملة الشهادات لوجدنا أن الأغلبية الساحقة منهم تطرق باب الوظائف الحكومية وتغلق بمجرد

دخولها عقولها عن كل تفكير فى كفاح أشرف ، وحياة أرفع ، ورزق أرغد .

واستغل الأجانب المقيمون فى مصر هذا النقص الرئيسى فى تكوين سواد الشعب فزاولوا الأعمال التى تدر الربح الوفير . ولذلك تجد أن نسبة المشتغلين بالتجارة بين المصريين لاتعدو ٣٦ فى الألف لمجموع المصريين بينما هى بين الأجانب تصل إلى ١٥٥ فى الألف لمجموع الأجانب أى أكثر من أربعة أضعاف نسبة المصريين وقد بلغ عدد العاطلين من المصريين الذين يعملون فى مختلف الصناعات ١١٩ر٥٩١ أى أكثر من نصف المليون بينما بلغ عدد غير المشتغلين أى الذين لايساهمون بجهد إيجابى فى الإنتاج القومى العام ٠٢٥ر٠٥٧ر١ ويبلغ غير المشتغلين من حملة الشهادات ٨٫٣٩٦ أى بنسبة ١١٩ فى الألف إلى مجموع حملة الشهادات وهى نسبة مرتفعة ارتفاعا مخيفاً . . . ومن المؤلم أن نجد حملة الشهادات من المصريين منصرفين عن الأعمال التى تدر ربحاً وفيراً على الأجانب ففى صناعة استخراج المعادن مثلا لانجد — فى إحصاء ١٩٢٧ — واحداً من حملة الشهادات العالية المصرية يعمل بها ! وفى الزراعة — وهى إلى اليوم أساس حياتنا الاقتصادية — لانجد من المشتغلين بها من حملة الشهادات إلا ٤٩ فى الألف . وفى « الصناعات التحويلية » — وهو التعبير الذى يطلقه الاخصائيون فى الاحصاء على نحو ثمانيـة عشر صناعة مختلفة كصناعة الأطعمة النباتية والحيوانية والسجائر والصناعات الكيماوية وتجهيز مواد البناء وتشييد المبانى ووسائل النقل وتوليد النور والحرارة والمياه وتجهيز المعادن والاشغال الخشبيـة والاثاث والجلود والنسيج والملابس والورق والطبع وتهيئة المجوهرات والنفائس — وهى جميعها صناعات كان

يزاولها المصريون بنجاح عظيم قبل الاحتلال الانجليزى كما رأينا فى مقدمة « أهداف العمل لمصر » عند الاشارة إلى تقرير لورد كرومر — نجد أن نسبة المشتغلين بها بين المصريين قد هبطت إلى ٤٤ فى الألف لمجموع المصريين بينما هى بين الأجانب تصل إلى ١٠٥ فى الألف . أى إلى أكثر من ضعف النسبة بين المصريين .

وعلى العموم نجد أن نسبة المشتغلين بمختلف الصناعات ـ بما فيها الزراعة ـ بين الاجانب تبلغ ٦١٥ فى الألف لمجموع الاجانب بينما هى لاتزيد بين المصريين عن ٤٧٩ فى الألف لمجموع المصريين.

٦ — ومن النتائج المترتبة على انحطاط مستوى المعيشة . والحرمان . والجهل تفشى الإجرام . وخاصة ذلك النوع من الإجرام الذى يصدر عن العوز . فقد بلغ عدد الجنايات التى ارتكبت فى مصر فى السنة القضائية ١٩٣٩ — ١٩٤٠ : ٨٣٠٢ جناية وعدد الجنح ٣٧٧,٢٩٢ جنحة وبلغ عدد الجنايات والجنح التى حكم فيها بالسجن والحبس فى تلك السنة ١٢٦,٥١١ ، ولكن المشاهد أن جنايات السرقة والرشوة والإختلاس — وهى التى تصدر غالباً عن العوز — قد بلغت فى تلك السنة ١٤٨٠ جناية كما أن جنح السرقة وخيانة الأمانة والتشرد والرشوة — وهى التى تصدر عن نفس الوازع — قد بلغت سنتئذ ١٥١,٣٠٦ ، فاذا لاحظنا أن إحصاء تلك السنة يدل على أن عدد الطلبة المصريين — بنين و بنات — الذين يتلقون العلم فى مختلف المعاهد قد بلغ ١,٥٢٧,٨٦٦ لاتضح لنا أننا فى مقابل كل عشرة مصريين نرسلهم لتلقى العلم فى المدرسة نزج بمصرى إلى السجن لقضاء عقوبة مقيدة للحرية حكم عليه بها وهى نسبة مخيفة تدل على إهمال الذين تولوا أمر الاصلاح الإجتماعى فى جميع العهود التى تتالت على مصر

منذ نهضتها الأخيرة عقب الحرب العالمية الأولى . وليست هذه النسبة بين الذين يتلقون العلم ويدخلون السجون وليدة المقارنة بين عدد الطلبة وعدد الذين حكم عليهم بالسجن أو الحبس فى تلك السنة وإنما تؤيد هذه النسبه نفس ميزانية الدولة عن نفس السنة فقد بلغت ميزانيـة مصلحة السجون ٤٤١,٧٤٢ جنيهاً وبلغت ميزانية وزارة المعارف ٤,٤١٤:٧٥٠ جنيها أى عشرة أضعاف مصلحة السجون !

هذا عرض موجز للحياة الشقية الذليلة التى يحياها أكثر من تسعة أعشار الشعب المصرى الذى نحن منه . والذى لا ننفك نزهو بالانتساب إليه وهى حياة يرتعد الجيل الجديد من المصلحين الشبان لهولها ويؤمن بأن الابقاء عليها جريمة وطنية لا تغتفر . وأن تاريخ هذا الشعب المجيد الذى نقل العالم من عصور الهمجية إلى التمدن عند ما يكتب يجب أن يلطخ بالعار جباه الأحزاب المصرية التى تتالت على حكم مصر بدون أن يكون أساس عملها برنامجاً لتحقيق حياة أكرم لهذه الملايين من المواطنين الأعزاء الذين لا يمكن بدون توفير هذه الحياة الكريمة لهم بعث الدولة المصرية وإحياء مجدها .

وسنعرض فى هذا الفصل تفاصيل موجزة عن البرنامج الذى يحقق — إلى أبعد حد — هذه الحياة المنشودة لغالبية المصريين العظمى .

أولا — *البدء بتدبير موارد جديدة لميزانية الدولة* لتمكينها من مواجهة بعض الالتزامات التى يفرضها عليها تحقيق هـذا البرنامج القومى الضخم . وأول مايلاحظ أن فرض ضريبـة الأطيان وعوائد الأملاك المبنية والضريبـة على ايرادات رؤوس الأموال المنقولة وعلى الأرباح الصناعية والتجارية وعلى كسب العمل لا يزال متأثراً بالاوضاع

العتيقة التى لاتقيم وزنا للعدالة الاجتماعية ولاتعبأ بتمكين الدولة من رفع مستوى الفقير على حساب الغنى . فالقانون الخاص بفرض ضريبة الاطيان رقم ١١٣ الصادر فى ١٠ أكتوبر عام ١٩٣٩ ينص فى المادة الثالثة منه على أنه « ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٩ تكون الضريبة بنسبة ١٦ فى المائة من الايجار السنوى للأراضى على ألا تزيد على ١٦٤ قرشاً عن الفدان الواحد » والأمر العالى الخاص بعوائد الأملاك المبنية الصادر فى ١٣ مارس عام ١٨٨٤ ينص فى المادة الأولى منه على انه « يبتدأ من أول يناير سنة ١٨٨٤ بأخذ عوائد باعتبار جزء من اثنى عشر من قيمة الأجرة عن بيوت السكن واللوكاندات والمخازن والدكاكين والوابورات والمعامل والاملاك ذات الايراد وبالجملة عن جميع أبنيــة القطر المصرى والجنائن التابعة لها سواء أكانت مسكونة بأصحابها أو بأصحاب المنفعة فيها أوغيرهم باجرة أو بدون أجرة » والقانون رقم ١٤ الصادر فى ٢٣ يناير عام ١٩٣٩ بفرض ضريبة على إيرادات رؤوس الأموال المنقولة وعلى الأرباح الصناعية والتجارية وعلى كسب العمل المعدل بالقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٤٠ والقانون رقم ١٩ الصادر فى ٨ يونيو عام ١٩٤٢ قد حــدد فى المادة السابعــة سعر الضريبة بعشرة فى المائة ثم رفعها الى ١٢ فى المائة .

وقد رأينا فى صدر هــذا الفصل أن مجموع الايراد الاهلى قد قدر فى عام ١٩٣٥ بمائة وخمسة وثمانين مليونا من الجنيهات ومع ذلك فان جملة ماجبته الدولة فى السنة المالية التالية لهذا التقدير أى سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ من جميع الضرائب المباشرة على الدخل الثابت وغير الثابت وغير المباشرة والضرائب الجمركية لم يتجاوز ٢٤٫٩٦٧٫٧٤٧ جنيها أى نحو ثمن مجموع

الإيراد الأهلى . وهى نسبة تافهة لاتكفى إطلاقا لمواجهة الالتزامات الضخمة التى على عاتق الدولة .

قد يعترض بان ماتجبيه الدولة قد زاد بتطبيق قوانين الضرائب الجديدة فوصل المجموع فى السنة المالية ١٩٤٠ — ١٩٤١ إلى ٢٧٫٦٨٧٫٧٠٠ جنيها ثم وصل فى السنة المالية ١٩٤٤ — ١٩٤٥ إلى نحو أربعة وأربعين مليونا من الجنيهات . ولكن يجب ألا يعزب عن أذهاننا أن حالة التضخم المالى التى نشأت فى مصر بسبب اعتبارات الحرب الأخيرة لها أثر كبير فى زيادة موارد الدولة . وان السياسة المالية الحكيمة تقضى بتدبير موارد ثابته تقوى على مسايرة أيام السلم بعد زوال اعتبارات الحرب وأول مايلاحظ على قوانين الضرائب المصرية — على اختلاف أنواعها — أنها تأخذ بنظرية الضريبة النسبية impot proportionnel مع أن جميع الدول الديموقراطية قد أخذت بنظرية الضريبة التصاعدية . أو التدريجية impot progressif التى ترفع قيمة الضريبة كلما ارتفع ايراد الممول فهى تنكر المساواة بين الممول الفقير والممول الغنى . « إذ لا يمكن اعتبار ثروة الممول نتيجة نشاطه الفردى فحسب بل للنشاط الجمعى أثر بالغ فيها ولا يمكن لشخص بمفرده أن يتولى كفاية جميع حاجاته بل لابد من معاونة الآخرين فاذا كان من المحقق عدم تمكن الفرد فى جماعة ذات ظواهر اقتصادية كثيرة محكمة الاتصال أن يرفه عن نفسه بمجهوده الشخصى فمن الطبيعى أن تشترك الجماعة بأكملها بنظام التصاعد فى الضريبة فى ازدياد الايرادات الخاصة »[1].

(١) الدكتور زكى عبد المتعال : «أصول علم المالية العامة والتشريع المالى المصرى» ص ٢١٢ ، الطبعة الأولى .

وقد ذهب آخرون من الاقتصاديين فى تبرير هـذه الضريبة التصاعدية إلى أن «المقدرة تتكون من عنصرين الأول المقدرة على امتلاك الأشياء وعلى الإنتاج والثانى المقدرة على الصرف والاستهلاك فمما لاشك فيه أن الأموال الطائلة أوالايرادات الطائلة تجعل فى مقدور مالكها أن يزيد هذه الأموال والايرادات بسهوله فالمقدرة على زيادة الانتاج تزداد بازدياد رءوس الأموال بنسبة تفوق النسبة الحسابية ويمكن أن يقال إن الأغنياء فى ازدياد ثروتهم خاضعون لقانون الغلة المتزايدة فكلما كثرت أموالهم عظمت مقدرتهم على زيادة ثروتهم فكسب الريال الأول أشق من كسب المليون الثانى فبينما تبقى المقدرة الطبيعية على الاقتناء واحدة عند الجميع تزداد المقدرة المكتسبة على الاقتناء لدرجة كبرى وبناء عليه يمكن القول بأن المقدرة تتزايد بأسرع من تزايد رأس المال أو الايراد فيجب اخضاع هذه المقدرة المتزايدة لضريبة متصاعدة . »[1]

وهذه الضريبة التصاعدية يجب ألا يفلت منها ممول مصرى أوأجنبي بسبب انتمائه إلى طائفة وضعت الظروف سلطة التشريع بين يديها . فالمحامون هم أول من يتحتم أن تتقاضى الدولة منهم هذه الضريبة التصاعدية لأن التفرقة بين كسب العمل من المهن الحرة وبين الأرباح الصناعية والتجارية تفرقة ظالمة لايوجد مايبررها ولا تعترف بها التشريعات المالية العصرية فى جميع الدول المتمدينة . وتمييز المحامين — وهم غالبية أعضاء السلطة التشريعية فى مصر — قد ترتب عليه تمييز طوائف عديدة أخرى يكسب أفرادها أرباحا طائلة لاتخضع إلا لضريبة تافهة كالأطباء

---

(١) Seligman : Progressive Taxation in theory and Practice. وأحمد ممدوح مرسى : « الضريبة على الايرادات علما وعملا » ، صفحة ٦٩

والموسيقيين والمهندسين والصحفيين وغيرهم . مع أن مواجهة الالتزامات الضخمة التي يفرضها برنامج « العمل لمصر » تستدعى مساهمة كل مواطن بأكبر قدر من ماله فى تنفيذ هذا البرنامج القومى الذى يحقق المجد المنشود للوطن الباقى على ممر الزمن للأولاد والاحفاد .

والذى يلاحظه الجيل الجديد من المصلحين المصريين الشبان رفق المشرع المالى بالمولين رفقاً يصل إلى حد التفريط فى حق الدولة فالمادة ٦٣ مثلا من القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٣٩ التى تحدد سعر الضريبة على المرتبات وما فى حكمها والأجور والمكافآت والمعاشات تنص على تحديدها على الوجه الآتى :

٢ فى المائة عن ال ١٢٠ جنيها الأولى
٣ « « « ١٨٠ « التالية
٤ « « « ٢٠٠ « «
٥ « « « ٣٠٠ « «
٦ « « « ٤٠٠ « «
٧ « عما زاد عن ذلك

وهذه المادة هى التى أراد المشرع المصرى أن تسرى على المحامين ومن اليهم عند ما خطرت له فكرة فرض ضريبة على أصحاب المهن الحرة [1] .

---

(١) قدمت الحكومة المصرية الى مجلس النواب المصرى مرسوما بمشروع قانون فى شهر يوليو عام ١٩٤٤ نص على إلغاء الباب الثانى من القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٣٩ والاستعاضة عنه بالنصوص الآتية :

« مادة ٧٢ — تفرض ضريبة سنوية على أرباح مهنة المحامى والطبيب وطبيب الأشعة والطبيب البكتريولوجى وطبيب الأسنان والطبيب البيطرى والداية والقابلة

كما أن مجلس النواب المصرى فى عام ١٩٤٤ كان قد أخذ بمبدأ الضريبة التصاعدية عند ما فرض ضريبة إضافية على رؤوس الأموال المنقولة فلما عرض المشروع على لجنة المالية بمجلس الشيوخ رأت الموافقة على « أن تكون الضريبة الاضافية بنسبة ١٠ فى المائة من الضريبة المفروضة على رؤوس الأموال المنقولة وعلى الأرباح التجارية والصناعية وقد كانت فى السنة الماضية ٥ فى المائة كما وافقت على بقاء نسبة الضريبة ٥ فى المائة من الضريبة المفروضة على كسب العمل »[١].

وهذه النسب — كما هو واضح — تقل بمراحل عن النسب المفروضة على أمثال هؤلاء الممولين فى الدول التى تواجه التزامات قومية عليا كالالتزامات التى يفرضها برنامج « العمل لمصر » كما أن ميل لجنة الشيوخ إلى أنقاص الضريبة التى فرضها مجلس النواب دليل على أن المشرعين المصريين لم ينسجموا بعد مع الروح الصحيحة التى توحى بفرض الأعباء

= والحكيمة والمولدة والمهندس والمهندس المعمارى والمحاسب والخبير والمؤلف والمترجم والمقرىء والرسام والخطاط والمصور والمثال والموسيقى والملحن والعازف والمغنى والممثل وكذلك على أرباح كل مهنة غير تجارية تعين بمرسوم بشرط أن يكون العنصر الأساسى فيها العمل وأن تقوم على الممارسة الشخصية لبعض العلوم أو الفنون »

(١) رأت هذه اللجنة تعديل الضريبة الاضافيه التصاعدية المقررة على الأطيان على الوجه الآتى :

« ٨ فى المائة على ال ٢٠ جنيها الأولى من الضريبة

١٠ فى المائة على ال ٣٠ جنيها التالية من الضريبة

٢٠ فى المائة على ال ١٥٠ جنيها التالية من الضريبة

٣٠ فى المائة على ال ٤٠٠ جنيها التالية من الضريبة

٥٠ فى المائه على مايزيد على ١٠٠٠ جنيه من الضريبة »

المالية . وهى روح التضحية بالمصلحة الشخصية فى سبيل المصلحة الوطنية العامة .

ثانيا : استغلال الصحارى المصرية الشاسعة

وهذا الجزء من برنامج « العمل لمصر » يواجه ثلاث التزامات قومية

ا — تدبير موارد جديدة لميزانية الدولة . وهو الذى تكلمنا عنه فى البند السابق .

ب — تدبير مرافق جديدة للمصريين الذين يتزايدون زيادة مضطردة. فالاحصائيات تدل منذ عام ١٩٠٧ على أنه وأن انخفضت نسبة الاطفال الذين دون العاشرة من ٢٩٨ر٦ فى الألف إلى ٢٧٤ر٢ فى الألف إلا أن عدد الاشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والاربعين قد زادوا من ٤٨٠ر٣ فى الألف إلى ٥٠٧,٩ فى الألف وهذا من شأنه أن يزيد فى عدد المصريين المنتجين من الناحية التناسلية . أى الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والتاسعة والاربعين . والمتوقع إذا استمرت الزيادة فى عدد المواليد بالنسب التى أثبتتها الاحصائيات الرسمية فان عدد المصريين سيتضاعف فى مدى خمسين عاماً . أى أن مصر فى عام ١٩٩٠ ستضم نحو أربعين مليونا من المصريين . فاذا لاحظنا إلى جانب ذلك أن الأراضى المزروعة أو الصالحة للزراعة وإن لم تزرع فعلا لاتتجاوز مساحتها ١٢١ر٣٦٢ر٨ فدانا — كما رأينا فى صدر هذا الباب — وأن المزروع منها فعلا لاتتجاوز مساحته ٧٤٢ر٣٥٣ر٥ فداناً . وأن ازدحام السكان فى الأراضى المزروعة يبلغ ١١٧٥ لكل ميل مربع وأن هذه النسبة هى أعلى نسبة فى العالم لأنها ضعف نسبة الأزدحام فى بلجيكا التى تعد أشد الدول الاوروبية إزدحاما

بالسكان [١] . إذا لاحظنا ذلك كله وجب علينا أن نضع البرنامج الكفيل بمضاعفة الأراضى المزروعة إلى أربعة أضعاف مساحتها الحالية . أى إلى عشرين مليونا من الأفدنة لتدبير موارد جديدة لميزانية الدولة ولخلق مرافق عمل جديدة للمصريين المتزايدين ولتحقيق الفقرة التالية من البرنامج وهى .

ج — رفع مستوى الغالبية العظمى من المصريين . وهم صغار الملاك الزراعيين والعمال الزراعيين . الذين رأينا فى هذا الباب أنهم يعيشون حياة أحط من حياة البهائم التى تعينهم على الانتاج الزراعى . والذين لا سبيل الى رفع مستوى حياتهم إلا بتخفيف الضغط عن الأراضى المحتشدة بالسكان وتوزيع هؤلاء السكان على الأراضي المصرية الواسعة بعد إصلاحها وإعدادها لوسائل الاستغلال — توزيعاً يوفر لهم الموارد التى لا يمكن توفرها الآن على ضوء التوزيع الحالى .

ومما لاشك فيه أنه يجب الانتهاء فورا من إصلاح الأراضى الداخلة فى الزمام والتى لم تزرع بعد وهى التى تقدر مساحتها بثلاثة ملايين من الأفدنة وواجب الدولة الأول بالنسبة لهذه الأجزاء من أرض الوطن هو إعداد مشاريع الرى والصرف الخاصة بها وتنفيذها . فان النيل يمنح مصر فى كل عام كمية من الماء العذب تتراوح بين ٨٥ و ٩٠ مليونا من الأمتار المكعبة ، وهى تكفى لرى جميع الأراضى الداخلة فى الزمام أما الخطوة الثانية فى إعداد هذه الأراضى لوسائل الاستغلال . أى تحويل الأراضى

---

(١) هذه النسبة خاصة بالأراضى المزروعة بصفة عامة ولكن بنادر المديريات يشتد فيها الازدحام الى أضعاف هذه النسبة ولنأخذ مثلا إحصاء عام ١٩٢٧ فقد بلغ فيه الازدحام ببندر دمنهور فى الكيلو متر المربع ١٨٤١٧ وبلغ فى بندر الجيزة ٢٦٩٢١

البور إلى أراض صالحة للزراعة فقديكون من واجب الأفراد لامن واجب الدولة . وهذه النقطة و إن كانت من النقط التفصيلية فى البرنامج إلا أننى لا أجد مايمنع من الدعوة إلى وجوب اشتراك الدولة فى إصلاح هذه الملايين الثلاثة من الأفدنة عن طريق المساهمة فى رؤوس أموال الشركات التى تتألف للقيام بهذا الاصلاح أو إعفاء هذه الشركات من الضرائب لمدة معينة أو ضمان الدولة لقرض وطنى يرصد للانفاق على هذا الاصلاح .

والتقدير الفنى لتكاليف الاصلاح يذهب إلى أن الفدان الواحد يجب أن يصرف عليه فى الأعوام الثلاثه الأول على التوالى ما يأتى :

مليم	جنيه	
٧١٦	١٩	جملة مصاريف السنة الأولى قبل أن تغل الأرض أى إيراد
٣١٢	٣	« « « الثانية بعد خصم الايراد
٤٢٧	٢	« « « الثالثة « « «
٥٥٥	٢٥	جملة المصاريف لغاية نهاية السنة الثالثة [١] .

و بذلك يكون مجموع المال اللازم لاصلاح الملايين الثلاث من الأفدنة — عدا مشاريع الرى والصرف — خمسة وسبعين مليوناً من الجنيهات ، وهو مبلغ لا يصعب الحصول عليه عن طريق تأليف شركات المساهمة التى تبين — إزاء حالة التضخم المالى الموجودة فى مصر الآن — أن اكتتاباتها تغطى ثلاثين وأربعين مرة قبل أن تصدر المراسيم الملكية بتأليفها . وقبل أن « تسعّر » أسهمها فى بورصة الأوراق المالية ودون أى ضمان من الدولة لقيمة أسهمها أو أية رعاية حكومية لها . ولا شك أن هذا الضمان لن يعرّض الدولة لأى خطر . لأن « الأموال المقررة » التى ستجبيها الدولة سنوياً من

---

(١) عبد الغنى غنام : « الاقتصاد الزراعى وادارة العزب » ص ٥٤٤

هذه الأراضى بعد إصلاحها سيكون أكبر غطاء لهذا الضمان فهذه الأموال ستصل إلى نحو خمسة ملايين من الجنيهات سنوياً عدا « عوائد الأملاك » التى ستفرض على المبانى التى ستقام فى المدن التى يدعو التطور الطبيعى إلى إقامتها . ولكن الزيادة المضطردة فى عدد المصريين تحتم التفكير العاجل فى فتح آفاق جديدة للعمل المثمر . ولذلك جعلت من أسس برنامج « العمل لمصر » زيادة الأراضى المزروعة فى مصر إلى عشرين مليوناً من الأفدنة فى خلال عشرة أعوام . ولا سبيل إلى تحقيق هذا الشطر من البرنامج إلا بالعمل على استغلال الصحارى المصرية الواسعة .

ولا شك أن الصعوبة الأولى فى استغلال الأراضى الصحراوية هى المياه . وقد أثبتت التجارب العملية أن فى الامكان تحويل الصحراء إلى مزارع مثمرة ويكفى أن أشير إلى تجربة « بساتين بركات » وأراضى « المنصورية » التى تقع فى الجزء الصحراوى من مركز امبابة . وقد أهملت الحكومات المتعاقبة إهمالا مشيناً فى الاستعانة بآخر التطورات العلمية للبحث عن المناطق الصحراوية التى يغزر وجود المياه تحت سطح الأرض فيها . مع إن استعمال الكهرباء المتحركة فى اكتشاف المياه hlydrologie électrodynamique قد أصبح من الطرق العلمية المسلم بها . وهو لا يعدو الاستعانة بمقاييس كهربائية توضع على سطح الأرض لتحديد كمية المياه الموجودة فى أعماق الأرض المختلفة (١) .

ومن الثابت أن الكثبان الرملية بالمناطق الصحراوية فى شمال مصر وشبه جزيرة سينا وشاطىء البحر الأبيض المتوسط هى الخزانات الوحيدة

---

(١) H. Lowy : Sur les Equatations fondamentales de l'Hydrologie électrodynamique (Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1940, vol. 22)

للماء العذب[١] وتجمع الماء تحت الكثبان الرملية له قيمة عملية كما يتضح من الجهات المزروعة فى شبه جزيرة سينا وفى واحات « صوف » بالجزائر ، وهى الواحات التى تزدهر بالزراعة وسط محيط من الرمال . وفى خلال حرب ١٩١٤ــ١٩١٨ غذّت عيون المياه التى تحت تلك الكثبان الحملة المصرية بالماء الذى كانت فى حاجة اليه[٢] وقد أصبح فى الإمكان إنشاء خطوط من عيون الماء بعد قياس كميـة الماء المنتشرة فى الأعماق المختلفة بالطريقة الكهربائية فى عدة نقط من سطح الأرض . والمشاهد أن اتجاه الماء تحت الكثبان الرملية يكون عكسيا فبينما ترتفع الكثبان عن مستوى سطح الأرض تنخفض عيون الماء عن مستوى خط الماء الجارى تحت سطح الأرض[٣] .

وقد اتضح بعد تجربة من أحدث تجارب الاستغلال الزراعى للصحارى وهى تجربة الاستعمار الايطالى لطرابلس أن مساحة الاراضى التى كان الطرابلسيون يستغلونها قبل إحتلال إيطاليا لوطنهم لا تتجاوز ٢٥٠٫٠٠٠ هكتاراً فلما بدأ استغلال الصحراء أصبحت تلك المساحة ٣٥٠٫٠٠٠ هكتاراً وأن كميات غزيرة من الماء تمتد إلى أبعاد طويلة توجد على عمق بضع مئات من الامتار . وإن كان بعض العلماء قد تساءلوا « إلى متى ستكفى هذه الكميات من الماء الجارى تحت سطح الأرض إذا طال استغلال تلك الأراضى ؟ »[٤]

---

(١) W. F. Hume : Geology of Egypt (1925)

(٢) المرجع السابق الجزء الأول ص ٥٥

(٣) H. Lowy : Iso-dielectric lines and geologic structure (Philosophical Magazine, January 1940).

(٤) E. F. Russell : Agricultural Colonisation in the Pontine Marshes and Libya (The Geographical Journal, October 1939)

ولمعرفة كمية الماء التى يمكن أخذها من العيون الجوفية فى مدة ما يجب معرفة كمية الماء التى ترد إلى تلك العيون فى نفس المدة من طبقات الأرض القريبة وقد أثبت استخدام الكهرباء فى البحث عن المياه أن كمية الماء المتسللة فى الأرض لاتعدو كونها عملية إفراز porosité للارض العازلة للكهرباء كافراز مسام الجلد . ولذلك يمكن بسهولة تحديد كمية الماء المنتشرة فى الأرض بعد معرفة قوة مرور المياه من مسام تلك المنطقة من الأرض . أى افرازها وبتكرار هذا المقياس فى فترات مختلفة يمكن تحديد التغيرات الزمنية لكميات الماء المنتشرة تحت سطح الأرض . (١)

وكان العلماء الجيولوجيون قد تساءلوا فى أوائل القرن الذى نعيش فيه عما إذا كان من المقبول أن يفقد الناس شجاعتهم ويتركوا تلك المساحات الواسعة من أراضى الصحراوات قاحلة جرداء مقفرة لا يسكنها أحد ؟ ودعوا إلى استغلال تلك الصحارى والتنقيب فى باطنها وإجراء الأبحاث العلمية عليها . وأشاروا إلى أن خير وسيلة لذلك الاستغلال هى وصل تلك المناطق الغنية — إذ ذاك — الآهلة بالسكان ، والتى لا يعلم أحد إلى متى سيدوم غناها ، بتلك الصحارى المقفرة بأية وسيلة من وسائل المواصلات . كالسكة الحديدية مثلا واقترحوا لاستغلال الصحارى .

(ا) إجراء أبحاث منظمة عن المعادن .

(ب) إنشاء خط سكة حديدية أو أية وسيلة أخرى سريعة ومريحة من وسائل المواصلات (٢) .

---

(١) H. Lowy : Quelques considérations sur l'exploration et l'utilisation des déserts (l'Egypte Contemporaine. 1940 p. 303)

(٢) F. Foureau : Documents scientifiques de la Mission saharienne d' Alegr au Congo par le Tchad (1903–1905)

وقد زاد الاهتمام باستغلال الصحارى إلى حد أن أكاديمية العلوم الاستعمارية فى باريس قد أنشأت عام ١٩٢٥ جائزة لمن يكتب بحثاً عن الموضوع الآتى : « بحث عن سياسة عامة لإصلاح الصحراء » وقد ساعدت قواعد علم طبيعة الأرض التطبيقية géophysique appliquée وهو علم حديث بدأت قواعده تستقر ويعترف بها عام ١٩١٠ ومن هذه القواعد أن سطح الأرض فى الصحارى يتميز بنوافذ fenêtres شفافة للموجات الكهربائية وهى تسمح ، بمساعدة تلك الموجات ، برؤية ما بداخل الأرض . وقد استفادت روسيا الحديثة من هذا العلم فوائد عظيمة فأنشأت معهداً له ، Institut de Géophyique appliquée يتبع أكاديمية العلوم بلينجراد والغرض منه ترقية وسائل الاستعانة بالكهرباء فى استغلال الصحارى وقد نشر الأستاذ بتروفسكى A. Petrowsky مدير هذا المعهد فى عام ١٩٣٢ تقريراً عن الأبحاث الكهربائية التى أجريت تحت إدارته فى المناطق الصحراوية من روسيا الاسيوية وقد قرر فيه أن عدم استعمال المقاييس الكهربائية بكثرة يعود إلى الظن بقلة قيمتها العملية . ويجب هنا التفرقة بين طريقة استعمال « التيار » الكهربائى وطريقة استعمال « الموجات » الكهربائية فالتيار courant يستعمل فى الأرض الرطبة . أما الموجات ondes فلا يمكن استعمالها إلا فى الصحارى والمناطق التى تظللها السحب الدائمة فأرض هذه المناطق شفافة بالنسبة لتلك الموجات كما سبق أن ذكرنا (١) .

وقد تقدمت هذه الطرق العلمية فى استغلال الصحارى خلال بضعة الأعوام الأخيرة تقدماً عظيما ، وأثمرت نتائج باهرة . ظلت مصر — مع عظيم الأسف — بمنأى عنها . ويكفى أن أذكر هنا أنه لما تبين العلماء الذين

(١) H. Lowy : L'Egypte Contemporaine, 1940 p. 307, 308

استخدموا الكهرباء فى البحث عن المياه أن الكشف عنها فى صحراء واسعة يستدعى نقل الآلات من مكان إلى آخر بسرعة وفى هذا مافيه من عناء ومشقة انصرفت أفكارهم إلى استخدام الطيارات . وليس هناك خطر من إضطرار تلك الطيارات إلى الهبوط فى الصحراء . وفكرة البحث عما فى باطن الأرض بواسطة الطيران هى التى تسمى prospection électro-aéronautique du soussol.

واذا كان سير وليم ويلكوكس قد وصف أعمال الملك مينا فى رى وادى النيل بانها من أعمال الجبابرة لأنه تخيل ونفذ تلك الأعمال التى نشرت العمران بين الملايين من أهل وطنه (١) مع أن الأراضى التى زرعها الفراعنة من الصحراء كانت الأراضى المجاورة لوادى النيل فإن رى الأراضى التى فى قلب الصحراء بعيداً عن وديان الأنهر — وإن كان يبدو أشق وأصعب منالاً — إلا أن تقدم العلم فى القرن العشرين تقدمه الباهر والعزيمة المتوقدة فى صدر الجيل الجديد من المصلحين المصريين الشبان كفيلان باتيان المعجزات فى هذا المجال الحيوى الذى يحتم بعد النظر إعطاءه أقصى قدر من الاهتمام . ولا يجب أن يتطرق اليأس إلى قلب هذا الجيل . فان نجاح الزراعة فى واحات «صوف» بالجزائر وسط الصحراء الافريقية الكبرى يقطع بان فكرة خلق واحات تزدهر الزراعة فيها وينتشر العمران وسط محيط من الرمال ليست فكرة خرافية وانما هى حقيقة علمية فى حيز الامكان (٢) .

وقد خطرت فكرة استغلال الصحارى المصرية فى بضعة الأعوام الأخيرة لبعض العلماء الأجانب ولكن ظلت جهودهم محصورة فى دائرة

---

(١) Sir William Willcocks : The Restoration of the ancient Irrigation of Bengal (1928)

(٢) E. F. Gautier : Le Sahara, p. 194.

يخرجها إلى حيز التنفيذ فلاحظ بعضهم مثلا بعد اكتشاف منخفض القطارة — أى اكتشاف خصائصه «الميتيورولوجية» — خلال الحرب العالمية الأولى بواسطة أحد الضباط البريطانيين أن فى الإمكان الاستفادة من انخفاض مستوى منطقة القطارة نحو ١٢٠ متراً عن سطح البحر الأبيض المتوسط.

وهذا المنخفض تبلغ مساحته ١٩٫٥٠٠ كيلو متر مربع فاقترحوا وصل هذا المنخفض بالبحر الأبيض المتوسط بقناة[١] وبذلك تحصل مصر على منجم لا يفنى من الملح وتتحصن بهذا الحاجز الطبيعى ضد كل غزو من الغرب. كما أن أحد وزراء الأشغال المصريين قد خطرت له فكرة الاستعانة بمساقط المياه المتدفقة من البحر الأبيض إلى المنخفض فى توليد القوى الكهربائية.

ومن الإنصاف أن نعترف للعلماء الأجانب بفضل اكتشاف خصائص ومميزات الصحارى المصرية. ففى أوائل القرن التاسع عشر اكتشف المهندس الفرنسى ده لاموت De la Motte منطقة وادى ريان وقد رسم لمجرى النيل خارطة بيّن فيها موقع وادى ريان وقد بلغ من دقة هذه الخارطة أن الجيش الانجليزى استخدمها فى حملة استرجاع السودان. وأشار « ده لاموت » إلى إمكان الانتفاع بوادى ريان لخزن مياه النيل وبعد ذلك ببضعة أعوام اهتم بالأمر الرحالة الأمريكى « كوب هوايتهاوس » Cope Whitehouse وهو الذى قرر أن ذلك الوادى هو مكان بحيرة «موريس» القديمة وهو أمر لم يثبت بطريقة تاريخية علمية صحيحة. وكان مشروع كوب هوايتهاوس يهدف إلى ثلاثة أغراض :

١ — الحد من سرعة مياه الفيضان والتخفيف بقدر الإمكان من

---

(١) John Ball : Geographical Journal, 1933

ضغط المياه على السدود المقامة على النيل في الوجه البحري مما يزيل إلى حد كبير المخاوف المترتبة على ارتفاع مياه الفيضان .

ب — إقامة خزان واسع يستطيع — رغم ما ينتظر من تبخر جزء من مياهه واستعمال جزء آخر في ري الأراضي المحيطة به — مد وادي النيل بكمية وافرة من الماء وتغذية الترع المتفرعة من النيل .

حـ — تهيئة أراض جديدة للزراعة بتغذيتها بطمي ماء النيل .

وتبلغ مساحة الخزان المقترح إنشاؤه ١٣٠,٠٠٠ فداناً على عمق ٢٠ متراً و ١٧٠,٠٠٠ فداناً على عمق ٣٠ متراً . وقدّر كمية الماء التي يمكن خزنها على الدوام به من أربعة إلى خمسة ملايين من الأمتار المكعبة [(١)] .

وانصرف التفكير بعد ذلك الى الاستفادة من الصحراء المصرية في خزن مياه النيل . ففي عام ١٨٩٤ تألفت لجنة لدراسة هذه الفكرة والانتفاع بوادي ريان في خزن تلك المياه . وكانت هذه اللجنة مؤلفة من سير وليم ويلكوكس مدير عام مصلحة الري وسير كريج Craig أحد مديري مصلحة المساحة المصرية إذ ذاك فذكرت في تقريرها أنه لا يوجد على مقربة من وادي النيل من حلفا الى القاهرة منخفض يصلح لخزن مياه النيل إلا وادي ريان وأشار التقرير إلى أن مساحة وادي ريان تبلغ ٦٧٣ كيلو متر مربع وأن كمية المياه الممكن خزنها فيه تبلغ ثمانية عشر مليارا وسبعمائة وثلاثة واربعين مليونا من الامتار المكعبة . ويلاحظ الفرق الكبير بين كمية المياه الممكن خزنها في تقدير «هوايتهاوس» وتقدير هذه اللجنة . ويبعد هذا المنخفض عن وادي النيل بثلاثين كيلو متراً وهو على

---

(١) Jean Mazuèl : Le Wadi Rayan, le lac Moeris de L'antiquité, Le Progrès Egyptien, 8Avril 1944

بعد ثلاثين كيلو متراً جنوب الفيوم ومائة وعشرين كيلو متراً جنوب غرب القاهرة وهو أيضاً على مقربة من منخفض آخر اكتشفه ليومور بك Liemur عام ١٨٨٧ ولا يزيد عرض وادى النيل عند أقرب نقطة من المنخفض عن عشرين كيلو متراً ، وقد اقترح سير وليم ويلكوكس حفر قناة تصل النيل بوادي ريان واتجهت الفكرة الى حفر تلك القناة عند مركز ببا لا عند بنى سويف كما ظن أولا . وهذا التصميم يجعل فى الإمكان مضاعفة عرض القناة التى تنقل ماء الفيضان إلى الوادى الذى يصبح بمثابة خزان ثم إعادتها الى النيل بعد انتهاء الفيضان. وكانت تكاليف المشروع قد قدرت عام ١٨٩٤ بمبلغ ١٬٦٨٤٬٠٠٠ جنيهاً ولكن هذا المشروع دفن لأن مستوى هذا الوادى أقل من مستوى البحر بخمسين متراً ومن مستوى مديرية الفيوم بثمانين متراً . ولا يفصل مديرية الفيوم عن الوادي إلا مساحة ضيقة من الأرض ولذلك خشي أن يرتفع مستوى الماء فى بحيرة قارون وأن يغمر أرض المديرية . إلا أن الأبحاث التى أجريت بعد عام ١٨٩٤ قد أثبتت أن تلك المخاوف لا أساس لها . وأن فكرة خزن المياه بذلك الوادي هى نوع من صمام الأمان soupape فى وقت الفيضان [١].

وفى ٣٠ مارس عام ١٩٤٢ تضمن خطاب العرش المصري إشارة الى هذا المشروع والى تعهد الحكومة باتمام دراسته ..

ولكن المشروع لايزال حيث هو منذ عام ١٨٩٤ . . . . ! مع انه يحقق — الى جانب الاستفادة منه فى خزن المياه — تحويل مساحات واسعة من أرض الصحراء المصرية الغربية إلى أراض صالحة للزراعة

---

(١) Egyptian Gazette, 10 Mars 1943, et Le Progrès Egyptien, 20 Mars 1943

وانصرف التفكير أيضاً الى زراعة الشعير فى صحراء شبه جزيرة سينا وقدم همرسلى باشا Hammersley محافظ سينا فعلاً تقريراً الى الحكومة المصرية اقترح فيه إنشاء خزان تتجمع فيه مياه السيول التى تصب فى البحر هدراً ليستفاد منها فى زراعة عشرات الآلاف من الأفدنة ولزراعة أشجار الغابات الخشبية التى لاشك فى حاجة مصر الشديدة اليها [١]

ومما يدعو الى الدهشة أن العقلية الحكومية فى مصر لاتزال تنظر الى الصحارى على أنها مورد عاجل من موارد الميزانية · لاعلى أنها حقل من حقول الاقتصاد الأهلي من حقه أن تضع الدولة له سياسة مدروسة وبرنامجاً واسع الأفق لأجل طويل مهما تكلفت فى سبيل ذلك من تضحيات . فقد صرح أحد كبار موظفى مصلحة المناجم والمحاجر — فى معرض التدليل على نشاط مصلحته — أن الرسوم التى حصلتها تلك المصلحة عام ١٩٣١ كانت لاتعدو ثمانين ألفاً من الجنيهات ولكنها ارتفعت فى عام ١٩٤٢ الى ستمائة وستة وستين ألفاً ! [٢] مع أن واجب هذه المصلحة الأول هو العمل على تشجيع استخراج الثروات الطائلة التى لاتزال مختبئة فى جوف الصحارى المصرية .

فمن الثابت أن كمية المستخرج من البنزين يكفى حاجة مصر منه ويبقى منها فائض للتصدير . وهذه الكمية فى زيادة مستمرة فقد بلغ المستخرج منه محلياً عام ١٩٣٨ ـ ٢٠١ر٩٥ طناً فزاد فى عام ١٩٣٩ الى ٨٣٥ر١٠٤ طناً وزاد فى عام ١٩٤٠ إلى ٩١١ و١٢٩ طناً . وكانت كمية المستخرج من

---

(١) Le Progrès Egyptien, 9 Avril 1945

(٢) Le Progrès Egyptien , Le Sous-Sol Egyptien renferme d'inépuisables richesses, 6 Mai 1943

الـكيروسين فى عام ١٩٣٨ ـ ١٧٦٣٦ر١٧ طناً فزادت فى عام ١٩٣٩ إلى ٥٢٢١٢ر٥٢ طناً وزادت فى عام ١٩٤٠ إلى ٦٧٦ ر ٧٠ طناً . كما أن كمية المستخرج من المازوت وزيت السولار والديزل كانت فى عام ١٩٣٨ ـ ١٦٧٧٣٣ر١٦٧ طناً فزادت فى عام ١٩٣٩ إلى ١١٦ر٣٨٧ طناً ثم زادت فى ١٩٤٠ إلى ٤٧٠ر٥١٩ طناً

وهناك معادن عديدة أخرى ثبت أن جوف الصحارى المصرية غنى بها فالفوسفات زادت كمية المستخرج منه من القصير وسفاجا و بدأ استخراجه من منطقة فى شمال أدفو وكان المستخرج منه فى عام ١٩٣٨ ٤٠٤ر٤٥٨ طناً فزادت فى عام ١٩٣٩ إلى ٥٣٧ر ٥٤٧ طناً . والمنجنيز فى سينا كان المستخرج منه فى عام ١٩٣٦ — ٩٧٢ ر١٣٤ طناً فزاد فى عام ١٩٣٧ إلى ٣٢٠ر١٨٦ طناً ولـكنه هبط على التوالى بعد ذلك .

والذهب كان المستخرج منه من منجم السكرى فى عام ١٩٣٧ ٣٨ كيلو جراماً فزاد فى عام ١٩٣٨ إلى ٢و٦٧ كيلوا جراماً وفى عام ١٩٣٩ إلى ٦ر١٢٠ كيلوا جراماً وفى عام ١٩٤٠ إلى ٤ر٢٢٨ كيلوا جراماً .

وقد اتضح أيضاً أن معادن الـكروم والقصدير والاميانت موجودة فى الصحارى المصرية .فالـكروم اكتشف عام ١٩٣٦ فى أبى دهر ولـكن لم يبدأ استخراجه إلا فى عام ١٩٤١ . والقصدير اكتشف فى عام ١٩٣٦ فى « جبل المولاح » وتتولى الحـكومة المصرية تـكريره فى « العجلة ». والـكمية المستخرجة منه فى تزايد مستمر . والاميانت اكتشـف فى عام ١٩٤١ على مقربة من السكرى بجبل نجرس والنوع المـكتشف من النوع الممتاز كما أنه وجد أيضاً فى جهات أخرى .

أما الحديد فقد ثبت بطريقة علمية قاطعة أن الموجود منه بأســوان

تمكن استغلاله لمنفعة الاقتصاد المصرى سواء تمت كهربة خزان أسوان أولم تتم [١].

وبرنامج استغلال الصحارى المصرية يستدعى أن يكون المصريون عمليين مع أنفسهم ومع مصلحتهم . فقد اعترض بعض ضيق الأفق على إعطاء تصريحات للتنقيب عن الثروات المدفونة فى جوف تلك الصحارى ظناً منهم أن ذلك الاعتراض لون من ألوان الوطنية ولعل خير رد عليهم هو ما ذكر فى مجلس الشيوخ المصرى من « أن البحث عن البترول — مثلا — يتطلب مجهودات جسيمة شاقة ورؤوس أموال طائلة وخبرة فنية خاصة وهذه كلها لم تتوفر بأكملها حتى الآن إلا لدى شركات البترول العالمية وحدها وقد سبق أن عمدت الحكومة قديماً فى فترات متقطعة بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٩٢٣ للقيام بعمليات بحث من هذا القبيل لحسابها الخاص واستخدمت فريقاً من الفنيين الأجانب لهذا الغرض وتكبدت فى هذا السبيل مبالغ طائلة ولكنها عدلت فى النهاية عن هذه السياسة لضآلة النتائج وعدم تناسبها مع المجهودات والنفقات » [٢].

كما ثبت أيضاً بالنسبة للبترول وحده أن عدد الشركات التى قامت بالبحث عنه فى الصحارى المصرية قد زادت على الخمسة والعشرين شركة ولم تنجح بينها إلا شركة واحدة هى ال Anglo Egyptian Oil Fields «ولا شك أن هذه الشركة كسبت من وراء هذا التوفيق والنجاح مكاسب

---

(١) المرجع السابق

(٢) رد وزير التجارة والصناعة على الاستجواب المقدم من الشيخ المحترم محمد عبد المجيد العبد عن منح تصريحات لشركات أجنبية للبحث عن البترول بالأراضى المصرية — مضبطة مجلس الشيوخ — جلسة ١٨ يونيو ١٩٤٥

معقولة والذى يهمنا فى الموضوع — فيما يختص بالاستغلال — أن هذه عملية فيها صرف وفيها إيراد ففيما يتصل بالصرف لا مانع عندنا من أن تصرف الشركات كما تشاء وأما فيما يتعلق بالإيراد فالذى يهمنا من أمره أن الحكومة — وهى صاحبة الثروة الموجودة فى الأراضى المصرية — يجب أن تحصل من وراء هذا الاستغلال على نصيبها العادل منه . . . وليس فى ذلك أى خطر على استقلالنا لأننا لسنا أكثر استقلالا من رومانيا أوالولايات المتحدة أو فنزويلا أو الارجنتين ففى الولايات المتحدة نفسها تقوم شركة شل باستغلال البترول وكذلك الحال فى فنزويلا ولا يرون فى ذلك أى غضاضة أو مساس باستقلالهم »(١) .

وهذا الكتاب لا يتسع — بطبيعة الحال — إلى الإسهاب فى شرح تفصيلات برنامج استغلال الصحارى المصرية ولذلك أكتفى بأن أقترح

ا — إنشاء وزارة للصحارى تضم إليها مصلحتا المساحة والمناجم والمحاجر لتتولى وضع تفصيلات البرنامج الطويل الأجل لاستغلال الصحارى وإرسال البعثات العديدة من الشبان المصريين للتخصص فى الأعمال الفنية المتشعبة التى يستلزمها تنفيذ هذا البرنامج . وإنشاء شبكة من السكك الحديدية تصل بين وادى النيل والمناطق التى يتضح من البحث أنه يمكن استغلالها زراعياً . أو صناعياً . وتنفيذ مشروع وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة تحمل الماء العذب إلى مناطق المناجم المصرية . وتنشر العمران على شاطئيها (٢) .

---

(١) حسن صادق باشا مدير مصلحة المناجم والمحاجر ووزير المالية الأسبق — المرجع السابق . اثناء مناقشة نفس الاستجواب

(٢) تحدثت طويلا فى هذا الموضوع الى معالى عثمان محرم باشا الذى تولى منصب وزير الأشغال عدة عدة مرات فكان من رأيه :

ب — تنظيم التعاون بين الدولة المصرية فى عهدها الجديد وبين رؤوس الأموال الأجنبية التى يجب أن تنتفع بها مصر فى برنامج استغلال

ا — أن حفر ترعة تصل النيل بالبحر الأحمر يتطلب نفقات باهظة نظراً لطبيعة أرض الصحراء الشرقية الصخرية وهذه النفقات لا تتناسب مع ما ينتظر من النفع الذى يعود من وراء حفرها. وإنى — مع احترامى لخبرة هذا المهندس المصرى الكبير — ألاحظ أن الفائدة العمرانية هى التى حدت بالدول الأوروبية الى شق انفاق طولها عشرات الأميال فى جوف الجبال لتسهيل سبل المواصلات . كما أن مشروع شق قناة بناما قد اعترضته صعوبات فنية أشد من صعوبات أرض الصحراء الصخرية فلم تثن أصحاب المشروع عن اتمامه وأخيراً أن هذه الأرض الصخرية لم تثن السلطات الحربية الانجليزية — فى الحرب العالمية الأخيرة — عن انشاء سكة حديدية بين الأقصر والقصير لما اتضحت الحاجة اليها .

ب — أن فى الامكان زراعة جوز الهند على شاطىء البحر الأحمر وريه بماء البحر وأن دائرة المعارف البريطانية تقر إمكان زراعته وريه بهذه الطريقة وأنا أضيف الى رأى معاليه أن دائرة معارف لاروس عند الكلام على شجرة جوز الهند Cocotier فى الجزء الثالث ص ٨٢ تقر أن هذه الشجرة لا تثمر الا على مقربة من البحار فى المناطق الاستوائية وأن ارتفاعها يصل الى ٢٥ متراً

جـ — فى الامكان زراعة الفواكه فى مساحات واسعة بشبه جزيرة سينا التى ثبت تاريخيا أن النبي موسى عليه السلام عند ما خرج من مصر قد سكنها نحو خمسين عاماً مع نحو خمسين الفا من أتباعه قبل انتقالهم الى فلسطين مما يقطع بأنها كانت اذ ذاك صالحة للزراعة وأن معاليه قد تحدث فى هذا الشأن مع سيادة الحاخام الأكبر ناحوم افندى لاضاءة الناحية الهندسية من المشروع بالحقائق التاريخية .

د — أن فى الامكان زراعة نحو ثلاثمائة الف فدان فى الواحات الخارجة بالصحراء الغربية اذا نظمت طرق الانتفاع بالمياه الجوفيه .

هـ — أن فى الإمكان الإنتفاع بالآبار التى فى الصحراء الشرقية على مقربة من شاطىء البحر الأحمر ونقل مياهها فى أنابيب إلى مناطق المناجم وإلى ميناء القصير التى لا تزال تعتمد على مياه البحر بعد تكثيفها .

و — أن من الواجب انشاء هندسات رى ومستعمرات للمهندسين فى المناطق الصحراوية التى تصلح للاستغلال الزراعى .

المؤلف

الصحارى كما يجب أن تنتفع بها فى غيره من مشاريع الاصلاح . وهو موضوع البحث الثالث فى هذا الباب

ثالثا — تنظيم التعاون بين الدولة المصرية وبين رؤوس الأموال الأجنبية

قبل أن نشرح برنامج « العمل لمصر » بالنسبة لهذا الموضوع الدقيق يحسن أن يعرف المصريون حقيقة موقف رؤوس الأموال الأجنبية من الاقتصاد الأهلى . فقد قدرت هذه الأموال فى عام ١٩٣٧ عند توقيع اتفاق مونترو الخاصة بالغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر — بمبلغ ٣٥٠ مليوناً من الجنيهات . منها ٢٤٠ مليوناً من الجنيهات رأس مال شركة قناة السويس والباقى وقدره ١١٠ مليوناً من الجنيهات هو قيمة ماقدرت به رؤوس الأموال الأجنبية الأخرى المستغلة فى مصر . وقد حدث بعد ذلك بسبب حالة التوتر الدولى التى نشأت من تصرفات المانيا النازية بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٩ أن فقدت أسهم الشركات نحو ٣٠ فى المائة من قيمتها فأصبحت رؤوس الأموال الأجنبية التى تستغل فى مصر والتى قدرت عام ١٩٣٧ بمائة مليون وعشرة — عدا قناة السويس — لاتساوى فى عام ١٩٣٩ — عندما تسببت المانيا النازية فى إعلان الحرب العالمية الثانية — أكثر من ٧٥ مليوناً من الجنيهات [١] وقد حدث بسبب التضخم المالى الذى نشأ فى مصر عقب هذه الحرب العالمية الأخيرة وتزايد بتوالى سنى الحرب أن ارتفعت قيمة الأسهم ارتفاعاً كبيراً ولذلك قدرت قيمة رؤوس الأموال الأجنبية المستغلة فى مصر فى أوائل عام ١٩٤٤ بمبلغ ٢٢٥ مليوناً من الجنيهات بعد

---

(١) تقدير مسيو مارسيل فانسينو Marcel Vincenot رئيس مجلس ادارة البنك العقارى — جريدة La Bourse Egyptienne فى ١٤ مارس ١٩٤٤

أن كانت مقدرة فى أواخر عام ١٩٣٩ بخمسة وسبعين مليوناً ، أما شركة قناة السويس وقد كانت مقدرة بمائتين وأربعين مليوناً فقد قدرت فى أوائل ١٩٤٤ بضعف تلك القيمة فقط ــ نظراً للاعتبارات الحربية التى خفضت حركة النقل بالقناة — أى بمبلغ ٤٨٠ مليوناً . وبذلك يكون مجموع رؤوس الأموال الأجنبية بمصر مقدراً بنحو سبعمائة مليون جنيه

فاذا تذكرنا أن مجموع الإيراد الأهلى فى مصر قد قدر عام ١٩٣٥ بمبلغ ١٨٥ مليوناً من الجنيهات لتبينا مبلغ تغلغل الأموال الأجنبية فى اقتصادياتنا . وقد ذهب البعض من غلاة المتطرفين المصريين الى الزعم بأن المصلحة الوطنية تقضى بوجوب وضع العراقيل فى وجه رؤوس الأموال الأجنبية وإغلاق الباب فى وجه الممولين الأجانب الذين يريدون استثمار أموالهم فى مصر . ونحن نؤمن بأن هذه الدعوة ليست من الوطنية فى شىء وأنها صرخة أرسلت فى الجو دون بحث ولا دراسة لاستجداء التصفيق . وأن واجب المصلح فى العهد الجديد أن يقترح أسس التعاون بين مصر والأجنبي الوافد اليها بخبرته الفنية أو برأس ماله بحيث يثمر هذا التعاون خير الثمرات لمصر دون أن يعرض كيانها الدولى أو سيادتها لأى خطر . أو شبهة خطر

ومن الحقائق التى يجب أن يعرفها المصريون « أنهم مسؤولون مسؤولية خطيرة عن أنهم لم يضعوا برامج دراسات تماثل الدراسات التى قام بها أولئك الأجانب وأنهم لم يعقدوا العزم قط على بذل الجهود المرجوة للتحكم فى اقتصادهم التجارى والصناعى . وعلى الأخص ان نظم التعليم والدعاية لم تحضر فى عقولهم فكرة أن تقلد وظائف الحكومة هى أبعد

الأفكار تعبيراً عن طموح شعب الى المجد »[1]

وليس هذا البحث مجالاً لشرح أسباب التقصير الذى منيت به برامج التعليم والتى ترتبت عليها الخرافة التى تزعم أن مصر قطر زراعى ولا يمكن أن يكون صناعياً وهل تقع مسؤولية هذا التقصر على المصريين أم على المستعمرين منذ عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٢٢ فقد وفيناهذا الموضوع فى باب « أهداف العمل لمصر » وإنما يجب أن نعترف بأن الحكومات الحزبية التى تتالت على مصر منذ عام ١٩٢٢ لم تفعل شيئاً إيجابياً لخلق مصر الصناعية .

ب — أن مصر مقبلة على مستقبل صناعى وأنها فى حاجة إلى معاونة الفنيين والخبراء الأجانب وأننا يجب أن نسمح لهم بالاقامة فى بلادنا وألا نضع العراقيل فى سبيل قدومهم إلينا[2] .

حـ — أن فى مصر عناصر لا تزال تعد أجنبية فى عرف المرسوم بقانون رقم ١٩ بشأن الجنسية المصرية الصادر فى ٢٧ فبراير عام ١٩٢٩ مع أن هذه العناصر ترغب رغبة أكيدة صادقة فى الاندماج اندماجا تاماً ونهائياً فى القومية المصرية . ومن حقها أن تجاب إلى هذه الرغبة التى تقرها التشريعات العصرية المماثلة . فاذا كان من حق المصرى أن ينال جنسية الولايات المتحدة الأمريكية إذا أقام فيها خمسة أعوام فقط فان من حق « من ولد لأجنبى فى القطر المصرى وكانت إقامته العادية فيه عند بلوغه سن الرشد » أن « يعد مصرياً اذا تنازل عن جنسيته الأصلية وقرر اختياره الجنسية المصرية » ولكن المادة السابعة من ذلك المرسوم تشترط لذلك أن يكون

(١) Hafez Afifi Pasha : La Cooperation des égyptiens et des étrangers, La Bourse Egytienne, 3 Novembre 1943.

(٢) حسن نشأت باشا : من محاضرة ألقيت فى شهر مارس عام ١٩٤٤

اختيار الجنسية المصرية « فى خلال سنة من بلوغه هذه السن » ولا شك أن الكثيرين ممن ينطبق عليهم هذا النص الى عام ١٩٣٧ — أى فى خلال الأعوام الثمانية التالية لنشر المرسوم — كانوا يفضلون الاحتفاظ بجنسياتهم الأجنبية للانتفاع بالامتيازات الأجنبية . ولم يكن فى هذا مايطمئن السلطات المصرية إليهم . ولكن ذلك العهد قد انقضى بكل مالابسه من ظلم واستغلال . وقد شعر الأجانب المولودون فى مصر أن مصر — وقد استردت سيادتها — قادرة على حمايتهم وحماية أموالهم وأن الانتساب إليها أصبح شرفاً يباهون به فمن الواجب إذن أن تقبل مصر رجاء هذه العناصر المستمر الاندماج نهائيا فى القومية المصرية وقطع كل صلة كانت تربطها بدول أخرى . كما أن فى هذا المرسوم أحكاماً يجب أن تعدل بحيث تستطيع مصر أن تدخل فى جنسيتها عناصر ثبت أنها « تأقلمت » مع المصريين وأنها قادرة على الحياة معهم حياة خيِّرة منتجة .

ويجب لتحقيق التعاون بين مصر ورؤوس الأموال الأجنبية التى تستغل فى مصر التفرقة بين استغلال النشاط التجارى والصناعى من جهة وبين استغلال الأراضي الزراعية — وهو العامود الفقرى للاقتصاد المصرى إلى اليوم — واستغلال المنافع العامة services publics فمن مصلحة مصر أن ترحب بكل رؤوس الأموال الأجنبية التى تستغل فى كافة المشاريع الصناعية والتجارية وفى أراضى البناء والمبانى على قدم المساواة مع المصريين . ولكن هذه المصلحة نفسها تحتم وليس فى هذا أى ضير على ضيوفنا الأجانب:

١ — تحريم تملك الأراضى الزراعية على غير المصريين .

قد يعترض بأن مصر مقيدة ببعض قيود دولية تحد من حقها فى إصدار هذا التشريع لأنها التزمت فى المادة السادسة من معاهدة الصداقة والتحالف

بينها و بين بريطانيا العظمى الموقع عليها بلندن فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ بما يأتى :

« يصرح صاحب الجلالة ملك مصر بمقتضى هذا أن أى تشريع مصرى يطبق على الأجانب لن يتنافى مع المبادىء المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث وأنه فيما يتعلق بالتشريع المالى على الخصوص فان هذا التشريع لن يتضمن تمييزاً مجحفاً بالأجانب بما فى ذلك الشركات الأجنبية » و بأن مصر التزمت أيضاً فى المادة الثانية من الاتفاق الخاص بالغاء الامتيازات فى مصر الموقع عليه فى ٨ مايو عام ١٩٣٧ بمونترو بما يأتى :

« مع مراعاة مبادىء القانون الدولى يخضع الأجانب للتشريع المصرى فى المواد الجنائية والمدنية والتجارية والادارية والمالية وغيرها ومن المفهوم أن التشريع الذى يسرى على الأجانب لن يتنافى مع المبادىء المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث ولن يتضمن فى المسائل المالية على الخصوص تمييزاً مجحفاً بالأجانب والشركات المؤسسة وفقاً للقانون المصرى والتى يكون فيها للاجانب مصالح جدية » .

ولكن هذا القيد — كما هو واضح — لايمنع مصر من أن تصدر تشريعات تراعى فيها مبادىء القانون الدولى العام . وهذا القانون يعترف للدولة بمالها من حق السيادة الاقليمية أن تنظم المسائل الخاصة بالملكية وأن تعين الأشخاص الذين يملكون التمتع بحق الملكية للاشياء الواقعة على الاقليم ولا حرج على الدولة إذا هى حظرت على الأجانب المقيمين خارج الاقليم تملك العقارات فيه أو تملك المنقولات .. وللدولة أن تحرم

الأجانب المقيمين خارج الاقليم من وراثة العقارات أو المنقولات الموجودة فيه» (١).

ب — تمصير الشركات التى تتولى الخدمات العامة كالنقل بأنواعه والنور والمياه .

وقد رأينا أن رؤوس الأموال الأجنبية المستغلة فى مصر قد بلغت فى نهاية الحرب العالمية الأخيرة أكثر من سبعمائة مليون جنيه . منها أربعمائة وثمانون مليونا من الجنيهات قيمة رأس مال شركة قنـــــاة السويس وحدها . أى أكثر من ثلثى مجموع رؤوس الأموال الأجنبية المستغلة فى مصر . ولنقف برهة عند هذه الشركة ليعرف منها المصريون حقائق تاريخية تلقى ضوء على حقهم فيها .

١ — فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ منح الخديوى سعيد باشا امتياز حفر قناة السويس الى مسيو فردينان ده ليسيبس . وقد توصل الأخير الى الحصول على موافقة الباب العالى على هذا الامتياز فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ . وقد نصت المادة الأولى من مواد الامتياز على أن تحفر الشركة ترعة تبتدىء من فرع النيل بالقاهرة وتنتهى الى مدينة الاسماعيلية كما نص على أن للشركة الحق فى أن تبيع مياه هذه الترعة لمن يستفيد منها من الزراع . ونص فى المادة العاشرة على أن تمنح الحكومة المصرية شركة القناة جميع الأراضى — بعرض كيلومترين من الجانبين — اللازمة لمبانيها والتى تقتضيها حاجتها للعمل بلا ثمن وبلا ضريبة ونص فى المادة الثالثة عشر على أن للشركة الحق التام فى أخذ مايلزمها من المناجم والمحاجر المصرية بلا ثمن وبلا ضريبة وعلى أن تعفى الشركة من جميع الرسوم الجمركية على وارداتها الخاصة بأعمالها

---

(١) الدكتور محمود سامى جنينه : «القانون الدولى العام» . الطبعة الثانية ص ٣٣٦

ونصت المادة السادسة عشر على أن تتمتع الشركة باستغلال القناة مدة تسعة وتسعين عاما تؤول القناة بعدها الى الحكومة المصرية . ونص في المادة الثامنة عشر على أن الحكومة المصرية تحصل على حصة قدرها خمسة عشر فى المائة من صافى الأرباح السنوية .

ولم يكد ده ليسيبس يحصل على هذا الامتياز حتى دعا إلى الاكتتاب لإنشاء الشركة التى تتولى حفر القناة وجعل رأس مالها مائتى مليون فرنك موزعة على أربعمائة ألف سهم قيمة السهم الواحد خمسمائة فرنك . فلم ينقض شهر واحد على بدء الاكتتاب حتى غطى رأس المال المطلوب واشترت مصر من هذه الأسهم ١٧٦٫٦٠٢ سهماً ولم تشتر انجلترا سهماً واحداً ظناً منها بأن هذا المشروع لن يقدر له النجاح [1] !.

٢ — ولكن هذا الإمتياز الذى لا نظير له فى التاريخ من حيث الغبن الواقع فيه على مصر قد عدّل بعـــد رفع الخلاف الذى نشأ بين الخديوى إسماعيل عاهل مصر وشركة قناة السويس الفرنسية الجنسية إلى محكّم اختاره الطرفان هو نابليون الثالث عاهل فرنسا ! فقد قضى فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ :

ا — بابطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين وإلزام الحكومة المصرية بأن تدفع فى مقابل ذلك «تعويضاً» ! قدر بمبلغ ثمانية وثلاثين مليوناً من الفرنكات .

ب — بأن تتنازل الشركة للحكومة المصرية عن كل حق فى ترعة المياه العذبة وتتعهد الحكومة بإتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها

(١) جولييت آدام : « انجلترا فى مصر » ص ٧٢ — ترجمة على فهمى كامل

فى مقابل إلزام الحكومة المصرية بأن تدفع « تعويضاً » ! قدّر بمبلغ ستة عشر مليوناً من الفرنكات .

ح — بأن « تعيد ! » الشركة للحكومة المصرية أرضاً مساحتها ستين ألف هكتاراً اتضح أنها ليست فى حاجة إليها فى مقابل أن تدفع الحكومة المصرية « تعويضاً ! » قدّر بمبلغ ثلاثين مليوناً من الفرنكات (١) .

و بذلك بلغ مجموع ما أرغمت الحكومة المصرية بمقتضى هذا التحكيم على دفعه ثلاثة ملايين وثلاث مائة وستين ألفاً من الجنيهات مع أن رأس مال شركة قناة السويس كله إذ ذاك لم يكن يعدو ثمانية ملايين من الجنيهات .

٣ — فى عام ١٨٦٦ ، بعد أن كادت تنتهى أعمال إنشاء القناة ، تبين أن عمل الشركة قد يقضي بأن تقيم فى غرب القناة مستودعات ومخازن وورشاً ومرافىء ومسا كن لأجل الحراس والملاحظين والعمال المكلفين بأشغال الصيانة ورأت الشركة وقتئذ أن تلحق بهذه المسا كن الأراضي التى يمكن زرعها كحدائق تنتج بعض المواد اللازمة فى تلك الأما كن النائية كما رأت أن تمكن من الحصول على الأراضى اللازمة لإقامة الأعمال الهندسية التى تكفل حماية القناة من ترا كم الرمال فطلبت من الحكومة المصرية أن تزيد مساحة الأراضى التى حددت بفرمان ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ فوافقت الحكومة المصرية على ذلك ولكنها خشيت من انتفاع الشركة ببيع هذه الأراضى أو المضاربة بها بقصد الربح فنصت صراحة فى المادة الرابعة من اتفاق سنة ١٨٦٦ على أنه لا يجوز للشركة أن

---

(١) Ferdinand de Lesseps : Lettres, Journal et documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez. T 4. p 476

تطالب بمساحات من الأراضى بقصد المضاربة أو الحصول على أراض لزرعها أو لبيعها عند تكاثر عدد السكان وحددت لهذا مناطق على طول القناة برسوم وخرائط أرفقت بذلك الاتفاق . وقد تبينت الشركة أن هذا القيد — مع مانص عليه فى المادة العاشرة من عقد الامتياز الصادر من الخديوى سعيد باشا فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ من أنه عند إنتهاء أجل الامتياز تحل الحكومة محل الشركة وتؤول إليها جميع المنشئات التابعة للشركة — سيلجؤها إلى التنازل للحكومة المصرية عن جميع المنشآت بدون مقابل ولذلك سعت لدى هذه الحكومة حتى وصلت إلى اتفاق عقد فى شهر ابريل سنة ١٨٦٩ نص فى البند الأول منه على أنه « يجوز بيع الأراضى المخصصة للشركة على طول القناة والصالحة لإنشاء المدن والمحطات والمبانى الخاصة » . ونص فى البند الثانى من هذا الاتفاق على أن ما يتجمع من ثمن هذه الأراضى — التى يثبت أن الشركة ليست فى حاجة إليها — يقسم مناصفة بين الحكومة المصرية وشركة القناة (١).

٤ — وفى ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩ عقد اتفاق جديد بين الخديوى اسماعيل والشركة نص فيه على إلغاء ما أشارت اليه المادة الثالثة عشر من فرمان ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الخاصة باعفاء ما تستورده الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية فى مقابل أن تدفع الحكومة المصرية تعويضاً للشركة قدر بمبلغ عشرين مليوناً من الفرنكات (٢).

٥ — فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ افتتحت القناة للملاحة بعد أن

---

(١) محمد عرفان : « محاضرة عن مدينة بور فؤاد » ألقيت بجمعية المهندسين الملكية فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٦ ص ٣ و ٤

(٢) J. Charles Roux : L'Isthme et le Canal de Suez. T. I p. 501.

ضحت مصر فى سبيلها أكبر تضحية يمكن أن تقدمها دولة لعمل عالمى كهذا العمل ويكفى أن نذكرهنا أن العمال الذين كان مفروضاً أنهم لا يزيدون عن خمسة وعشرين ألفاً قد زادوا فى بعض فترات العمل فوصل عددهم الى خمسة وثلاثين ألفاً فى الفترة من ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ وهو بدء العمل فى الحفر الى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ وهو تاريخ قرار التحكيم الذى أصدره نابليون الثالث . وقد أثبت التاريخ أن « هؤلاء العمال كانوا يساقون الى العمل بلا أجر من طريق السخرة وكانوا يسامون سوء العذاب من شدة الهجير وتفاهة الغذاء ومشاق العمل حتى أن عدداً كبيراً منهم يربو عن مائتى ألف نسمة قد مات بسبب الأمراض ، التى ولدتها لهم هذه المتاعب دون أن تقدم الشركة أو الحكومة المصرية تعويضاً لأسرهم وأهليهم[١] .

وقد إتضح كما رأينا أن الحكومة المصرية اكتتبت فى رأس مال الشركة بأكبر نصيب إذ اشترت ١٧٦٦٠٢ سهماً دفعت ثمناً لها ثلاثة ملايين وأربعمائة وستة وعشرين الفاً من الجنيهات وبلغ مجموع «التعويضات» التى قضى على الحكومة المصرية بدفعها طبقاً لقرار التحكيم الصادر فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ ولإتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩ ، أربعة ملايين وخمسمائة وستين ألفا من الجنيهات . وبلغت تكاليف شق الترعة التى قضى قرار التحكيم بإلزام الحكومة المصرية بإتمامها مليوناً ومائتى ألفاً من الجنيهات وبلغت نفقات حفلات إفتتاح القناة مليوناً وأربعمائة ألفاً من الجنيهات فيكون مجموع هذا المبلغ مع المبالغ التى دفعت كفوائد وسمسرة

(١) جوليت آدام المرجع السابق ص ٧٦

ونفقات تحكيم نحو سبعة عشر مليونا من الجنيهات . وتبدو قيمة المساعدة الإيجابية والمساهمة الفعلية التى قدمتها مصر معنويا وأدبيا إذا تذكرنا أن جميع نفقات إنشاء القناة لم تعد ثمانية عشر مليونا من الجنيهات .

٦ — فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ إجتمعت الجمعية العمومية لحملة أسهم الشركة وقررت أن « تحرم »! الحكومة المصرية من حق التصويت الذى تخوله لها ملكيتها لعدد من الأسهم بلغ مائة وستة وسبعين الفا وستمائة وسهمين واستندت فى هذا القرار الظالم المسرف فى التعسف الى أن قرار التحكيم الذى أصدره نابليون الثالث فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤ كان قد منح للشركة أرباح هذه الأسهم التى تملكها الحكومة المصرية فى مقابل التعويضات التى الزمت بها هذه الحكومة ! وأصبحت الحكومة المصرية نتيجة لهذا القرار الذى أتخذته الجمعية العامة لحملة الأسهم محرومة من أن تكون لها كلمة فى إدارة شركة ضحت فى سبيل تحقيق غرضها ما ضحت وساهمت فى أكثر من خمسى أسهمها [١] ولكن الخديوى اسماعيل ازاء هذا القرار الجائر وازاء قرار التحكيم الذى أصدره نابليون — وهو قرار نقد نقداً شديداً من كثيرين من المؤرخين المحايدين — أضطر أن يعطى توكيلاً لمسيو ده ليسيبس لكى يصوت نيابة عن الحكومة المصرية حاملة الأسهم !

٧ — فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ — وتحت ضغط هذه الظروف القاهرة

---

(١) استند كثيرون من المؤرخين المصريين على تقرير سير استيفن كيف المحاسب العام للحكومة البريطانية عن حساب نفقات الحكومة المصرية فى المدة بين سنتى ١٨٦٤ ، ١٨٧٥ فقد قدر ماتكبدته الحكومة المصرية فى انشاء قناة السويس بمبلغ ١١٩ر٧٥٠ر١٦ جنيها « بيير كرابيتيس : اسماعيل المفترى عليه » ص ٢١٢ ترجمة فؤاد صروف

(٢) Charales Lesage : L'Achat des Actions de Suez p.28

التى امتهنت فيها حقوق مصر البديهية امتهاناً تجرد من أبسط مبادىء العدالة — أضطر الخديوى اسماعيل الى بيع الأسهم التى تملكها الحكومة المصرية الى الحكومة الإنجليزية بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ـ وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ أى فى اليوم التالى مباشرة للبيع نشرت جريدة التيمس مبررة عمل دزرائيلى ، رئيس الوزارة البريطانية اذ ذاك ، ماياتى « من المستحيل أن نفكر فى شراء أسهم قناة السويس تفكيراً منفصلاً عن تفكيرنا فى علاقة انجلترا المستقبلة بمصر »[1] وبذلك اتضح جليا أن شراء حصة مصر فى الأسهم انما كان لتحقيق غرض استعمارى كشف عنه الستار فيما بعد عام ١٨٨٢ وقد تنازلت مصر بعد ذلك عن حصتها فى أرباح شركة القناة وهى الحصة التى قدرت فى عقد الامتياز بخمسة عشر فى المائة من هذه الأرباح

٨ — فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ عقد فى الاستانة مؤتمر مثلث فيه فرنسا والمانيا والنمسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا وهولندا وروسيا وتركيا ولم تمثل مصر اذ قرر ممثلو هذه الدول فى المادة الأولى من الإتفاق الذى عقدوه أن « تكون قناة السويس حرة على الدوام وتفتح فى زمن الحرب كما فى زمن السلم لكل سفينة تجارية أو حربية بدون تفرقة بين الأعلام التى ترفعها . وقد اتفق المتعاقدون على ألا يتعرضوا بأذى لحرية استخدام القناة فى زمن الحرب كما فى زمن السلم وألا تكون القناة خاضعة بأى حال لحالة الحصار » .

٩ — فى ٢٠ يناير سنة ١٨٢٠ تمكنت شركة القناة من الحصول على قرار من مجلس الوزراء المصرى تعترف فيه الحكومة المصرية بأن مساكن العمال والموظفين التى تقيمها الشركة تعتبر ملكاً خاصاً للشركة ولها أن

---

(١) احمد رشدى صالح : « قناة السويس » ص ٢٣

تزيلها عند نهاية الإمتياز . وقد تعهدت الحكومة فوق ذلك بأن تشتريها جميعها حسب ماتقدر به سنة١٩٦٨ بعد خصم سعر الأرض المقامة عليها[١]

١٠ — فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ نص فى المادة الثامنة من معاهدة الصداقة والتحالف المعقودة بين مصر و بريطانيا على أن قنال السويس «الذى هو جزء لايتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فإلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والأمبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال » .

هذه صورة مصغرة لمأساة قناة السويس . وهى المأساة التى كلفت تاريخ مصر الحديث أكبر خسارة يمكن أن يتكبدها شعب من الوجهتين المالية والمعنوية . وأعظم تضحية يمكن أن يقدمها شعب فى سبيل تيسير التبادل التجارى بين الشرق والغرب . فما لاشك فيه أن حفر هذه القناة قد حرم مصر من الأرباح الطائلة التى كانت تجنيها من وراء مرور البضائع فى أرضها ولم يحصل ده ليسيبس على امتياز حفر القناة إلا بخديعة إذ أدخل فى روع سعيد واسماعيل انها ستعود بالنفع على مصر[٢] كما أنه مما لاشك فيه أن حفر القناة قد عاد على الشركة بأعظم الأرباح وأن مصر لم تستفد منه بل

---

(١) محمد عرفان — المرجع السابق ص ٦

(٢) Leiden : L'Egypte et L'Europe, par un ancien juge mixte, p. 46

أن القناة التي شقت في صميم أرضها كانت سبب شقائها [١]

وإذا كانت شركة أجنبية واحدة تتحكم في هذا المرفق الخطير من مرافق الاقتصاد المصرى الذى يقدر — الآن — بنحو خمسمائة مليون من الجنيهات فاننا لا نغلو إذا دعونا المصريين إلى فتح أعينهم على ما يصيب سيادتهم من خطر داهم بترك هـذه المرافق العامة . التي لهـا وثيق الصلة باعتبارات السيادة الإقليمية ومصلحة الدولة والشعب بين أيدى الأجانب .

إننى أومن بأن من واجب كل حكومة مصرية أن تنشر على العالم · على هذه « الدول المتحدة » التي كونت لها هيئة عالمية انضمت إليهامصر. بجميع اللغات الحية جميع الحقائق التاريخية التي تثبت تآمر بعض الرأسماليين الأجانب على اغتيال حقوق مصر البديهية فى الاستئثار بالإشراف على مرافقها العامة . والتي تدمغ الأساليب التي بذلت لسلب تلك الحقوق بما هى جديرة به من بطلان لا ريب فى أنه سيثير ثائرة الضمير لدى المفكرين الأحرار فى كل دولة متحضرة . من واجب وزارة الخارجية المصرية أن تطبع النشرات بجميع اللغات المعتمدة لدى « هيئة الأمم المتحدة » معلنة حق مصر شارحة ما أصاب مستغليها من ربح وما عاد عليها من خسارة . من واجب كل ممثل سياسى وقنصلى لمصر فى الخارج أن يتكلم أينما سنحت له الفرصة . أن يحاضر فى الجامعات . وفى الأندية . وفى قاعات المحاضرات وأن يعلن حق مصر فىالتحرر من هذا الاستعباد الاقتصادى الذى لا يقره الضمير الإنسانى. من واجب وزارة المعارف العمومية أن تعير من تعهد فيه الكفاءة من أساتذة التاريخ فى جامعتى فؤاد الاول وفاروق الاول الى الجامعات الامريكية والانجليزية والفرنسية والروسية ليحاضروا عن تاريخ

(٢) Abbas Hilmy : A few words on the Anglo Egyptian Settlement p, 33

مصر الحديث ولينشئوا جيلاً من الطلبة يؤمن بأن مصر ضحية تاريخية من حقها أن تنصف. من واجب كل مصرى أن يثبت أن القائلين بنظرية « الحقوق المكتسبة » المزعومة لشركات الاحتكار الأجنبية «يجهلون أن آخر تفسير عصرى للعلاقة التى تربط الدولة بتلك الشركات التى تتولى الخدمات العامة لم تعد ناشئة عن حق لتلك الشركات droit subjectif وإنما هى ناشئة عن قاعدة قانونية droit objectif والقاعدة القانونية التى تصلح لوقت ما قد لا تصلح للتطبيق فى وقت آخر فينبغى تغييرها ، وهذه المرونة القانونية التى تحتمل تغيير القواعدالقانونية طبقاً لتغير الظروف هى التى مهدت لعبقرية شراح القانون فى فرنسا فأتاحت لهم أن يقبلوا القواعد القانونية التى كانت مقررة فى أزمان سابقة وأن يغيروا فيها و يعدلوها بحيث تساير العصر الحاضر وتلائمه فليس لشركات الاحتكار التى تتولى المرافق العامة حقوق مكتسبة قبل الدولة لأن تفسير علاقتها بالدولة على هذا الضوء فيه إنكار لسلطان الدولة على هذه المرافق وهو سلطان واجب يدعو شراح القانون العام إلى الاستزادة منه ولكن كل ما فى الأمر أن تلك الشركات قد نالت امتيازاتها وفقاً لقوانين ولوائح استند إليها الوزراء المصريون الذين نزلوا لها — فى نوع من الغدر أو الغفلة — عن تلك الامتيازات التى تهدر حق الدولة وهذه القوانين واللوائح يمكن تعديلها بل إن تعديلها أصبح فريضة وطنية مقدسة »[1] .

وشىء آخر قد يعترض به على ما دعوت إليه . هو أنه لا يجب على الدولة أن تتوسع فى الهيمنة على أعمال قد يكون من المصلحة أن تترك

(١) محمود كامل « مصر الغد تحت حكم الشباب » ص ٥٣ و ٥٤ .

لنشاط الأفراد أو الشخصيات المعنوية المصرية كالشركات ولكن هذا الاعتراض مردود عليه بأن الفكرة الخاطئة التي كانت تذهب إلى أن الدولة يجب أن يقتصر عملها على البوليس والقضاء والجيش قدانقضى عهدها فيجب الترحيب بزيادة سلطان الدولة على مرافق أخرى عامة حتى ولو كانت فنية لأن فى ذلك تأكيداً لفكرة نيابة الحكومة عن الجماعة فى العمل على رقيها ورفاهيتها [1] .

والداعون إلى فكرة « العمل لمصر » مؤمنون بأن الرأى العام العالمى إذا تغذى بالمعلومات الصحيحة عن حقوق مصر فإن استعادة هذه الحقوق المسلوبة تكون أقرب منالاً مما يظن ضعاف الإيمان من المواطنين .

(١) Leon Duguit : Droit Constitutionnel, p. 76, 77

محتويات الكتاب

عن دار الجامعة للطبع والنشر
٤٧ شارع قصر النيل بمصر
تليفون ٤٣٠٢٨

